عبد المنعم محمد خلاف

المادّيّة الإسلامية وأبْعادُها

دار المعارف

المادّيّة الإسلاميّة وأبعادها

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.

عبد المنعم محمد خلاف

المادية الإسلامية وأبعادها

الطبعة الثانية

دار المعارف

مقدمات

١ ـ على معارج المادة إلى أفق مجهول .

٢ ـ تخلف التفكير المادى لدى المسلمين المتأخرين .

٣ ـ اللقاء بين العلم والدين فى الاسلام .

٤ ـ لقاء تعارف وحوار مفتوح بين اشتراكية الإسلام والاشتراكيات الأخرى .

٥ ـ ظهور الاشتراكية العربية فى المجال الدولى .

على معارج المادة إلى أفق مجهول

على معارج المادّة تصعد الإنسانية إلى أفق مجهول . . .

يدعوها ويحدوها شوقٌ دفينٌ ونداء خفى يروعها ويهولها فتقبل مسحورة فى لهفة . . .

يلقاها فى صعودها معلوم وراء معلوم فتفرح به لحظة ثم تضعه تحت قدميها درجًا فى المعراج الذى ترقى عليه . . .

لا يثنيها عن الصعود عائق فى سلم أو حرب . . . بل هى فى الحرب تسرع فى عروجها ، وذلك لمضاعفات اللاهفة التى تصيبها بها الحروب . . .

وكلما صعدت درجة اتسع الأفق أمام نظرتها فرأت ما لم تر من قبل . . .

كل غرائزها تخدمها فى ذلك الصعود ، حتى ما يحسبه الأ كثرون هابطًا بها إلى الحضيض . . .

وكل أعمالها فى الأرض كذلك ولو كانت فى عجن الطين أو حفر المناجم ذات الظلمات والأعماق السحيقة . . .

وقد دميت قدماها وأصابها اللهاث من كثرة ما رقيت من درجات . . .

ولكن فؤادها لم يلهث سأمًا ولا مللاً ، بل ازداد شوقًا وظمأ إلى بقايا المجهول . . .

ولقد أسرعت خطاها وضاعفت قواها لأن اتساع الأفق أمام نظرتها أغراها بالإسراع . . .

إن سحر المجهول والباطن هو الذى أورثها سرَّ المعلوم والظاهر ، ولولا حساسيتها بالأول ما عرفت الثانى . . .

وفى البحث عن الأول تعثر عفوًا على كنوز لم تكن فى حسبانها . . . كمن يحفر بئرًا طلبًا للماء فيعثر قبل الماء على ذهب ..

وقد يلهيه الذهب مدة يفتر فيها عمله فى البحث عن الماء ، ثم لا يلبث أن يدرك أن ذهب الأرض كله لا يغنيه عن قطرات الماء يبل بها ظمأه . . .

* * *

المادّة تَهدِى إلى المادّة . . . وما تزال كذلك حتى تنتهى البشرية من إدراك كل مواد الأرض وتضعها تحت قدميها فى مِرْقاتها إلى فوق . . .

وعندئذ يجوز لها أن تبدأ حياة جديدة وتبحث عن إدراك كنه الروح الأكبر الذى يغمر الكون ! وقبل ذلك لا يجوز لها أن تتطلع إلى إدراك كنه ذلك الروح ...

فلماذا يجادل بعضهم فى المادة ؟ ولماذا يجادل آخرون فيما وراء المادة ؟

المادة معراج ثمين إلى ما وراءها . . . وما وراءها كقطب مغناطيسى يجذب الفطرة الإنسانية ويجعلها تصعد على ذلك المعراج بإلهام التطلع والتشوّف والبحث . . .

* * *

خذوا مثلا الزجاج والفَلَك . .

فمن كان يظن أن الزجاج — وهو من مادة الأرض — يُضيف بعدساته للملكرت الذهنى للإنسان ما أضافه من عوالم كانت مُطَلْسَمَةً مسحورة بعيدة نائية البعد، ما كان يبلغها وهم الواهمين وخيال المتخيلين ؟

من كان يظن أن المناظير الزجاجية مقرِّبة أومجهِّرة، تكون آلات و أدوات لعلم ما فى الأوْج وما فى الحضيض ؟ !

إن الفتوح التى أضافتها (التلسكوبات والميكروسكوبات) شىء كثير عظيم ، وسّع رؤية كثير مما فى أفلاك السماوات وأغوار ذرات الأرض . . . وكانت عدسيّة أن يعكف عليها الإنسان بجُهده الصناعى ليكشف أفقاً وراء أفق ، ويَهتِك بها ستاراً وراء ستار ، ويركب بها طَبَقاً بعد طبق ، أو ينزل بها ذرّة تحت ذرة . . . ما دام يرى أنها مفتاح ثمين لأبواب العالم أعلاه وأسفله ! .

إنها من عالم السّر والسحْر . . . لمحتها أحلام الإنسان قبل أن يلمحها علمه وجهده الصناعى ، إذ كانت فى « البلورة أو المرآة السحْرية » عند السحرة والراجمات بالغيب والنفّاثات فى العُقَد . . .

وكأن تلك البلّورة أو المرآة كانت فى عصور الأحلام والعجز رمزاً لما ستدركه العين الإنسانية عن طريق العلم بالمقرّبات والمُجَهِّرات فوق السماوات العُلا ، وتحت أطباق ذرّات الثرى . . .

* * *

وانقسم البشر بتلك العدسات إلى فريقين : فريق ينظر إلى أعلى بالمنظار المقرب لأبعاد السماوات (التليسكوب) و (الاسبكترسكوب) المحلل لألوان طيف عناصر المادة ، والكاشف عن وحدتها فى السماوات والأرض . . .

وهذا الفريق هو فريق الرواد لاتساع الكون ، وإضافة ملايين الأبعاد المجهولة فى الأفلاك إلى عالم المنظور ، بإضافة ما يستطيعون من « بوصات » إلى أقطار عدساتهم وسُمْكها . . .

وفريق ينظر بالمجهر إلى أسفل فى أفلاك ذرات التراب ونباته وحيوانه ، حتى وصلوا إلى الفلك الأصغر ، فلك الخلايا والجراثيم والذرات التى انتهى إليها الحد الأدنى للمادة .

وما زال هذا الفريق تشغله الأقفال والمغاليق التى كانت على الذرّة ، فهو يرجّها فى يده ويدُقّ عليها بكل قوته ليفتحها ويدرك سرها ، حتى استطاع أخيراً أن يحطمها بعد أن استعان بملايين من قوى الأحصنة والرجال !

لقد أدرك الإنسان إذن قرار المادة وحدّها الأدنى . . . ولكنه لم يدرك بعد حدّها الأعلى . . . ولست أعلم هل أدركت عدسة تلسكوب مرصد كاليفورنيا — وهى أكبر عدسات المراصد فى العالم — ذلك الحد الأعلى للنجوم ؟ فيكون الجهد الإنسانى قد وصل إلى الذروة العليا والحضيض الأدنى فى برهة زمنية واحدة ليكون فى هذا التوافق معنى القصد والعناية من سيد الطبيعة ، بإرشاده الإنسان إلى إدراك الأوج والحضيض فى وقت واحد ؟ !

* * *

وخذوا مثلاً ثانياً : صعود نا فى طائرة مخترقة حجاب الصوت أو فى صاروخ أو فى قمر صناعى . . . فما هو أثر ذلك فى نفوسنا ؟ أليس هو الرَّوْع اللذيذ والذهول الكامل والتعجب من أنفسنا وقدرتها ، ثم التعبدُ لبارئها فى لحظات الانطلاق والتعلق بين السماء والأرض على كف العلم ؟ !

فأى محراب صلاة فى مسجد أو دير أو معبد ، يكون له فى صدق عبادتنا وقنوت قلوبنا ما يكون لتلك المحاريب الطائرة أو الصارخة أو الدائرة فى الأقمار الصناعية ؟ !

فلماذا الفرار من المادة والإزراءُ بها واحتقارها ، مع أنها تهيئ لنا أعظم محاريب الصلاة ؟ !

ولماذا محاولة الفرار بقلوبنا من جاذبية ما وراء المادة ، مع أنه قطبها المُمتَغْنَط الذى يديرها بحركة الحياة وفيضها ويجذب إليه أشواقها وأطرابها ؟ !

* * *

وخذوا مثلا ثالثاً : أدوات الموسيقى : أليست مصنوعة من المادة : من الخشب والجلد والنحاس . . . ومع ذلك ففيها من هَيُولَى الأنغام ، وسَيَّالات الألحان ، وإشعاعات الأصوات ، وأنين المادة وحنينها ، ما يصعد بالإنسان إلى حيث يسمع النغم الذائب فى الكون كله . . . وما يخيل إليه كما خيل لأفلاطون أو فيثاغورس من قبل ، أن بناء الكون قائم على أسس موسيقية ، وما جعل تأثير الموسيقى فى تكوين الأمم ومزاجها يحمل أحد حكماء اليونان القدماء على أن يقول : « إذا أردت أن تغير أخلاق أمة ، فزِدْ فى قيثارتها وتراً أو انْزِعْ منها وترا » وما جعل حكيماً آخر يقول : « لست أبالى إذا وضعتُ موسيقى أمتى أن يضع غيرى شرائعَها » ! .

وكأن فى كل ذرة مادية أنيناً وحنيناً إلى الانطلاق فى عالم النغم والصوت . . . فإن شئت فأطلق ذلك الأنين الحبيس برفق حينما ترقّق المادة فتجعلها وتراً رفيعاً أو دُفّاً رقيقاً أو صنَّاجة حنَّانة أو نايًا باكيًا ، تنقر عليها نقراً موزوناً أو تنفخ فيها نفخاً فى جمل موسيقية « وهرمونى » وتناسق وانسكاب . .

وإن شئت فأطلق ذلك الأنين الحبيس ، بعنف ، فرقعةً صاعقة راجفة كما فى تحطيم الذرة . . . !

ألا ما أعظم ما وسعته المادة من لمحات وآيات تضىء للعقل طريقه فى مجاهل الكون !

فى كل ذرة تراب أو لمعة شعاع أو فحمة ظلام ، أو قطرة ماء ، أو خفقة نسيم ، رُوحٌ يَغْمِز القلوب لتستيقظ للوجود ، ومصباحٌ على الطريق إلى خالق الوجود ! . .

وإن ما ينقص البشرية فى حياتها العقلية الآن شىء واحد . . . هو أن نأخذ المادة بالتذوق الكامل بعد أن أخذتها بالحواس والذهن الحسابى الآلى . . .

نريد نفوساً تذوق «معانى» الحديد وراء إحساس اليد بكثافته وثقله وبأسه . . .

وتذوق « معانى » المطعومات الشَّهية أو البشعة ، وراء ما يَطْعَمُ اللسان منها . . . وتذوق معانى أزاهير الروض وراء عَبيرها وحريرها ورُوائها . . .

نريد نمو ملكة التذوق للأرقام والأحجام والأبعاد والأثقال والكثافات . . . حتى ننطلق منها ونسمو ، كما تنطلق الفراشة من الشَّرْنقة . . .

نريد تحويل المادة إلى رُوح شفيف وجوهر لطيف فى مشاعرنا وأفهامنا . . .

والأمر سهلٌ غايةٌ فى السهولة إذا فهمنا أننا نحكم العالم من داخلنا ، ونكيِّف كل شيء بهذا السر الذى فى نفوسنا ، وإذا أدركنا أننا نحتاج فى عملية التحويل هذه إلى علم غزير وفقه كبير بأسرار المادة ودقائق تركيبها وتحليلها وقوانين تسخيرها ، وإذا لم نتمرد على سننها المطردة ونحاول الانفلات منها بالأحلام والأوهام والشطحات التى ليست من مِزاجِ الإنسان العربى . وإنما جاءته من شعوب أخرى تُدْمِن الأحلامَ وتستمتع بِرُؤاها وتحاول تجسيم الخيال . والانسلاخ من قيود المادة وسننها المطردة . . .

أجل ، إن العربى — وهو عنوان العقل الإسلامى وأستاذُه — بتكوينه الأصيل فى جزيرته « الأمّ » هو ابن الطبيعة اليقظ الصاحى لوقائع الحياة القاسية التى كانت تحيط به ، فلم يكن حتى فى شاعريته الفائقة ، جامح الخيال ، ولا منطلق البَدَوَات . ولا أخيذَ الأوهام الشاردة . . . وإنما كان دقيق الحس بالطبيعة ووَقْعِ قوانينها فى نفسه وحياة بيئته . . . ولذلك كان شعره وُضوح رؤية لمشاهد الطبيعة ، وحكمةَ حياة تعتمد على الحسّ والصَّحْو ، وتجارب مجتمع بشرى يعيش فى الأرض ، لا مع آلهة الخرافة وشياطين الجن كالمجتمع الإغريقى القديم . الذى كان يعيش مع الآلهة الموهومين والأبطال الأسطوريين فى خيال طُفُولىّ طليق . . .

فعلى العربى أن يكشف عن ميزاته الأصيلة بالاتصال الدائم بالطبيعة وإدراك علومها المادية ، وتجميل الحياة فيها بحِذْقِ فنون العيش الأحسنِ والأفضل ، حتى يسايرَ رَكْب البشرية الراشدة الصاعدة إلى الأفق المجهول . . .

تخلف التفكير المادى لدى المسلمين المتأخرين

درج المسلمون فى العصور المتأخرة ، على فهم غير صحيح لمقومات الحياة وأدوات العيش العزيز ، وإدراك آثار الأعمال المادية بها ، والعلاقة بين المادة والروح فى مجالاتها . . . وقد ترك كل ذلك فى حياتهم آثاره الحتمية ، من التخلف فى جميع الميادين وضعف التدبير ، والاعتماد على الأحلام والأمانى عند العجز ، وعدم إدراك أن الطبيعة كلها صراع مواد وقوى .

ولذلك نرى أكثرهم يكادون يعيشون وسط هذا العالم الصناعى المعقد ، عيشة بدائية بالزراعة والتعليم النظرى والأحلام الشاعرية ، ويطمع فى حكمهم كل جاهل بسير الحياة ، لا يتصل بعلم عصره ومكتشفات زمانه ، ولا يزال بعض أئمتهم يتوجس من علوم الحضارة الحديثة خيفة على ما يسمونه الخُلُق أو الدين ، وهما منهم براء . . .

وصور أبطال الروح فى خيال أكثرهم صور من الدراويش والعجزة والقاعدين عن الزحام والمشوهين ومن قعدت بهم هممهم عن التنافس فى مجالات الحياة .

ومجالات الاختراع والاكتشاف عند أكثرهم ، هى مجالات الأدب والشعر والفن والجدل والمماحكات اللفظية والتوغل الصرفى فى أودية الشطح والتهويم والرموز . . . .

ورجال الدين عندهم بعيدون عن العمل المادى الذى به قوام الحياة ، فقلّ أن تجد فيهم من يحسن عملا ماديًا لخدمة البيت أو البيئة كالنجارة أو الحدادة أو الآليات أو الكهربيات أو الطبيعة أو الهندسة أو غيرها من المهن والحرف التى يملأ الانتفاع بها كل بيت وكل مدينة * .

وكأنهم يرون أن فى مزاولة العمل المادى حِطّة وقلة شرف . . . مع أنهم يروون فى سيرة الرسول محمد أنه « كان فى مهْنة أهله » أى خدمتهم ، وكان يخصف

* ومن هنا كانت إقامة جامعة الأزهر المتكاملة فى الدراسات الدينية والعلمية العصرية أحد أعمال التغيير الحيوى الكبير لحياة المسلمين المعاصرين .

نعله ويذبح ذبيحته ويرقع ثوبه بيده ، وكان راعياً تاجراً حاذقاً أميناً قبل بعثته .

وآمالهم أمانيّ كواذب غير عملية ، إذ لم تُبْنَ على فهم العلاقة بين الأسباب والمسببات ، ولذلك لا يستقبلون أمورهم ذات الخطر بالتدبير الكامل والعقل المستجمع كل قواه ، بل كثيراً ما يتركون فى تدبيرهم فجوات وثغرات تدخل منها أسباب الخيبة الإخفاق ، ثم يرجعون باللوم على الأقدار بعد أن تصيبهم الخيبة . . .

وإجمالا كأنهم ما يزالون بعد فى عهد الطفولة وعجزها وفرحها بالأمانى والأحلام واعتمادها على الخيالات والخرافات والأوهام . . .

ولذلك صاروا يستقبلون الأحداث الفواجع بابتسامة ليست فى شىء من رباطة الجأش والهزء بالأحداث اعتماداً على المقاومة ورد الفعل ، وإنما هى من ابتسامات البَلَه والانحطاط الفكرى عن تقدير الأمور حق قدرها فى أشد الظروف حرجاً ، ومن ضعف الهمم والأفكار عن بلوغ مستوى الأحداث .

ولو لم يكونوا كذلك ما نامت لهم عين من الأهوال المفزعة التى يرونها من وراء قيام دولة إسرائيل بأحدث النظم والعلوم وآلات الحرب فى قلب بلادهم ! قياماً قصد به الفصل الحاسم بين مسلمى المشرق ومسلمى المغرب بحاجز كثيف من القوة البشرية التى تتزايد كثافتها يوماً بعد يوم للقضاء عليهم جميعاً . . . ولأدركوا قبل فوات الأوان ، ما يجب عليهم إزاء هذا الخطر الداهم فى معركة الحياة أو الموت مع الصهيونية العالمية التى أقامت إسرائيل . . .

ثم هم لا يزالون غافلين عما يأتى به كل يوم من الجديد الذى تزيد به قوة أعدائهم ويزيد فى اختلال ميزان القوى لحظة بعد أخرى ، وغافلين عن طبيعة العصر وما ينبغى معها من حياة اليقظة والمتابعة لسير العلوم بالإنسان . . . فقد تكون أمة فى لحظة ما أقوى أمم الأرض بحيازتها سرًّا من أسرار القوى العلمية ليس عند غيرها ، فتأتى لحظة بعدها لأمة أخرى بسر آخر يقلب ميزان القوى وينقل مركز الثقل إليها . . .

ولذلك ليس السباق والصراع الحقيقى الفعال فى هذا العصر فى ميادين القتال على أيدى الجنود ، وإنما هو بين علماء الشعوب فى المعامل ، وبين العمال فى المصانع . . . أى فى حياة الإدراك العلمى المرهف واليقظة والحذر والعمل الفنىّ الحاذق المتتابع . . .

كل هذا يحدث للمسلمين المتأخرين مع أن القرآن يهيب بهم أن يبذلوا ما فى استطاعتهم من إعداد وسائل القوة والمنعة ، حتى يرهبهم أعداؤهم فلا يفكروا فى مهاجمتهم والقضاء عليهم : (وأعِدُّوا لهم ما استطعتم من قُوَّة) وهذا أمر واضح فى جملة قصيرة جامعة .

ومن غريب أمر المسلمين المتأخرين أنهم لم يفطنوا إلى ما قصه القرآن من سير الأنبياء والرسل ، رواد الحياة الروحية الذين ارتادوا للأمم الطريق إلى الله ، وكانوا فى الوقت نفسه رواداً فى طريق العمل المادى . . .

فلقد كان النبي (نوح) رائداً فى صناعة السفن ، حينما صنع سفينته بوحى من الله ليحمل فيها من آمن معه من قومه ، ومن كل حيوان زوجين اثنين ، لينجوا من الطوفان.

وكان النبي (إبراهيم) وابنه النبي (إسماعيل) يتقنان صناعة البناء ، وبذلك رفعا قواعد البيت الحرام فى مكة : (وإذ يَرْفَعُ إبراهيمُ القَوَاعِدَ من البَيْتِ ، وإسْماعِيلُ). وقد نوه القرآن بكفاية أسرة إبراهيم العملية والنظرية فى هذا القول الرائع المخلد لذكرهم المبين لمكانتهم عند الله : (واذكرْ عِبادنا إبراهيمَ وإسحاق ويعقوبَ أُولِى الأَيدِى والأَبصار . إنَّا أَخْلَصْناهم بخالِصَةٍ ذكرَى الدَّار . وإنهم عِندنا لَمِن المُصْطَفَيْن الأَخْيار) ولنتأمل قوله : (أُولى الأَيدى) !

وكان النبي (يوسف) رائداً من رواد التدبير المالى والاقتصادى فى مصر ، فحماها وماحولها من البلاد من المجاعة : (قال تَزرَعون سبعَ سِنين دَأَبًا فما حَصَدتُم فذَرُوهُ فى سُنْبلِهِ إلا قليلاً مما تأْكلون) ، (قال اجعلنى على خزائنِ الأَرضِ إنِّى حفيظٌ عليم) .

وكان النبي (موسى) قويًّا أمينًا مكنته قوته وأمانته من أن يدافع عن بنى قومه وأن يساعد ابنتى النبي (شعيب) على سقى قطيعهما ، مما رشحه لزواج إحداهما وللعمل عند أبيهما : (قالت إِحداهُما يا أَبَتِ استأْجِرْهُ إنَّ خيرَ من استأْجرتَ القوىُّ الأَمينُ) .

وكان النبى (داود) وابنه النبى (سليمان) رائدين فى الصناعة ، يصنع أولهما الدروع السابغات ويأكل من عمل يده . (وأَلَنَّا له الحديد . أَن اعْمَلْ سَابِغَات وقَدِّر فى السَّرْد) ويشرف ثانيهما على كثير من الصناعات ويسخر فى سبيل ذلك قوى الطبيعة الظاهرة والخفية (ولسليمان الريحَ غُدُوُّها شهرٌ ورَوَاحُها شَهْرٌ وأَسَلْنَا له عَيْنَ القِطْر ، ومن الجنِّ مَن يعملُ بين يديْه بإِذن ربِّه . . . يعملونَ له ما يشاءُ من مَحاريبَ وتماثيلَ وجِفانٍ كالجَوَابِ وقُدُورٍ راسياتٍ . اعمَلُوا آلَ داودَ شُكْرًا . . .)

وفى قصة سليمان مع ملكة سبأ تتضح قيمة العمل المبنى على العلم وقيمة انتصاره فى تحقيق أهداف الإنسان بالسرعة الخارقة ،إذ نقل الذى عنده العلم عرش بلقيس من اليمن إلى أورشليم فى لمحة نظر : (قال الذى عنده علمٌ من الكتاب أَنا آتيكَ به قبل أَن يرتدَّ إليكَ طَرْفُكَ . فلما رآه مستقِرًا عنده قال هذا من فضل ربى) .

وكان العلم والعقل والخلق مناط اختيار الله لبعض البشر ، فقد اصطفى الله (طالوت) ملكًا على اليهود فى ظرف من ظروفهم العصيبة ، وقد رشحه لذلك ما أوتى من بسطة فى العلم والجسم (قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بَسْطةً فى العلم والجِسم) .

وكان (ذو القرنين)من رواد إقامة السدود بجانب ريادته لحياة العدل والإصلاح : (قال ما مَكَّنِّى فيه رَبِّى خيرٌ ، فأَعِينونى بقوة أَجعلْ بينكم وبينهم رَدْما . آتُونِى زُبَر الحديد ، حتى إذا ساوَى بين الصَّدَفَيْن ، قال انفُخُوا ، حتى إذا جعله نارا ، قال آتُونِى أُفْرِغْ عليه قِطْرًا) . . .

وكان النبى (عيسى) المسيح نموذجًا فى معرفة (صناعة الحياة) نفسها وطب الأجسام وشفاء الناس من الأمراض بإذن الله وروحه . . .

ثم كان (محمد) خاتم الأنبياء والمرسلين ، الثقة الأمين فى كل

ما زاوله من عمل أو تجارة ، فكان الراعى اليقظ والتاجر الثقة والمحارب الشجاع والقائد العسكرى الموفق والمربى الشعبى ورجل الدولة والدين . . . وكان أصحابه معه تجاراً ورعاة ومحاربين وممارسين لكل أنواع الحياة العملية ،ولم يكونوا من (الدراويش) ، المتواكلين والعجزة الحالمين القاعدين عن الصَّفْق فى الأسواق والعمل فى مرافق الحياة .

فكيف ومن أين أتى المسلمين المتأخرين هذا الوهم الذى فصل بين حياتهم الروحية وحياتهم المادية وجعل رجال الدين منهم يستنكفون من العمل اليدوى ، ويتركون العلم المادى لغير المسلمين حتى سبقوهم ؟ !

لقد سبق المسلمون أهل أوربا فى صناعة كل شىء يحتاجه زمانهم وكانوا أساتذتهم فى الطب والرياضة والفلك والموسيقى ، إلى آخر فنون الحياة وعلومها .

إذن فالحياة المادية جديرة بأن نعيرها العناية اللائقة بمكانة المادة فى ملك الله وملكوته كما أعارها هو نفسه . . . إذ جعلها مجالى لظهور علمه وقدرته وحكمته وفنون إبداعه فى الخلق ما يشاء . . . وإذ جعل رواد الدعوة إلى معرفته والإيمان به والتعبد له رواداً فى الوقت ذاته للعمل فى المادة وتدبيرها وتصنيعها والانتفاع بها . . .

إن الدنيا فى التصور الإسلامى الصحيح مزرعة للآخرة ، فلا تصلح آخرة امرئ إلا إذا صلحت دنياه ، وسنحاسب فى الآخرة على التفريط فى إصلاح الدنيا .

فالعمل الطيب فى الدنيا وسيلة لصلاح حياة صاحبه فى الآخرة كما هو وسيلة لصلاح دنياه . . . ولولا خوف أكثر الناس من حساب الله وجزائه هناك لم يتقنوا أعمالهم هنا . . .

وكيف لا تخشى الضمائر حساب الله وهو يقول لها : (يُنَبَّأُ الإنسانُ يومئذٍ بما قَدَّم وأَخَّر . بل الإنسانُ على نفسه بَصيرةٌ ، ولو أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ) ، (يوم تجدُ كلُّ نفسٍ ما عَملت من خيرٍ مُحْضَرًا ، وما عَمِلت من سوءٍ تودُّ لو أنَّ بينَها وبينه أَمَدًا بَعيدًا ، ويحذِّرُكم اللهُ نَفْسَه) .

وهذا الازدواج والتكامل بين العمل للدنيا والعمل للأخرى أمر طبيعى منطقى

يتسق ويتفق مع منطق العقيدة الإسلامية ـ فى أن الحياة هنا وهناك واحدة بالجسم والروح . . . أى أن الحياة فى الآخرة استئناف للحياة الأولى ببعث الأجسام بعد موتها ، وممارسة للحياة المتكاملة بالجسم والروح فى المجالات التى اختارها وفضلها كل امرئ لنفسه فى حياته الأولى التى جعلها الله مجالا للاختيار . . . فإن يكن الإنسان قد اختار القبيح والسيئ والشر فى الدنيا فمصيره طبعًا فى الآخرة إلى ما اختاره لنفسه فى دار مخصصة للقبح والشر والسوء، وإن يكن قد اختار الجميل والخير والحسن هنا ، فمصيره إلى دار مخصصة للجمال والخير والحسن هناك كذلك . كما يقول القرآن :

(للذين أَحسنوا الحُسْنَى وزيادةٌ) ، (والذين كَسَبُوا السيئاتِ جزاءُ سيئةٍ بِمِثْلِها) ، (ثم كان عاقبةَ الذين أساءُوا السُّوءَى) ، (ذوقُوا ما كسبتم لأَنفسكم) ، (هل تُجْزَوْن إلا ما كنتم تعملون) .

وقد مكن الله للإنسان فى الأرض ، وأوسع له فيها ، وأعطاه من الدنيا على قدر همته وما يستطيع وما يعمل، وصدق الحديث المحمدى: «إن الله يعطى العبد على قدر همَّتِه ونَهْمَتِه » . ولم يجعل الإسلام الدنيا فى تصور المسلم سجناً أو دار عذاب وألم خالص أو غالب أو لا تحتمله طاقته ، وإنما جعلها على وضع مناسب يليق بدار مؤقتة للاختبار ، إن يكن الله قد مزج فيها المباهج بالآلام فإنه جعل مباهجها ونعمها هى الغالبة ، وجعلها معمورة برحمته وكرمه وترحيبه بالداخلين إليها ، مجلوة بالجمال والزينة وألوان المتاع وفنون العلم والقدرة والحكمة والإبداع :

(إنَّا جعلنا ما على الأَرض زينةً لها لنَبْلُوَهم أَيُّهم أحسنُ عَمَلًا) ، (قل من حرَّم زينةَ اللهِ التى أخرجَ لعباده والطيبات من الرزق ؟ ! . قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصةً يوم القيامة) ، (إنا زيَّنَّا السماءَ الدُّنيَا بزينةٍ الكواكبِ) ، (انظرُوا إلى ثمره إذا أثمر ويَنْعه) ، (زُيِّن للناس حبُّ الشهوات من النساءِ والبنين والقناطيرِ المُقَنْطَرة من الذهب والفضة والخيل المسوَّمة والأَنعامِ والحَرْث ، ذلك مَتاعُ الحياة الدنيا) ، (ولكُم فيها جَمَالٌ حِين تُرِيحون وحِين تَسْرحون) ، (كلوا من طيبات ما رزقنا كم)

ونبلُوكُم بالشر والخير فِتنةً) ، (ولَنَبْلُوَنَّكمُ بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأَموال والأَنفسِ والثمراتِ ، وبشِّر الصابرين) ، (اعلَموا أنما الحياةُ الدنيا لعبٌ ولَهْوٌ وَزِينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ فى الأَموالِ والأَولاد) .

إذن فطبيعة الحياة الدنيا فى رأى القرآن أنها دار جمال وزينة ومتاع بكل طيب ، مع امتزاج متاعها بشىء قليل من أسباب الألم والخوف والجوع والفقد ، لتكون فى وضعها الذى أراده الله لها بوصفها داراً للابتلاء والاختبار ، وللتطلع منها إلى ما وراءها من ملكوت رَحْب كامل دائم ، يدعونا للاستعداد لسكناه خالدين فيه متفرغين لحياة السلام والمتاع خالصين من الآلام والمتاعب والمخاوف .

وفى هذا الاستعداد سر الاختيار والاختبار ، ليظهر (أَيُّهم أَحسنُ عملا) .

وقد وعدنا رب الكون بأن يجدد لنا المتاع الحسن إلى آخر آجالنا فى هذه الحياة ، وأن ينيل كل ذى شأن فاضل وعمل نبيل جزاء فضله ونبله ، إذا ما رجع كل منا دائماً إلى هذا السيد وفرّ إليه من خطاياه :

(وأَن استغْفِرُوا ربَّكم ثم تُوبُوا إليه يُمَتِّعْكم متاعًا حَسَنًا إلى أَجلٍ مُسَمًّى ويُؤْتِ كُلَّ ذى فضلٍ فَضْلَه) .

وقد أوسع الإسلام ويسر كثيراً فى مفهوم العبادة ، حتى جعلها تشمل تذوق جميع شئون الدين والحياة ، حتى المتاع واللذات المباحة ، إذا ما صحبها ذكر اسم الله .

فجوهر العبادة بذلك هو الإدراك والشعور بفعل يد الله فى الطبيعة والنفس والحياة ، وذكرُه مع كل علم أو عمل أو متاع أو ألم ، والسيرُ على ما وضعته هذه اليد من سنن ومناهج فى الطبيعة والشريعة .

وبذلك تتحول مزاولة كل شأن فى الحياة إلى عبادة لسيد الحياة !

اللقاء بين العلم والدين فى الإسلام

١ — أود أن أوضح حقيقة ألمَحْتُها فى القرآن كتاب الإسلام ، وأقررها على ثقة من صحتها ، وهى أن موضوع ما نسميه (العلم) وما نسميه (الدين) موضوع واحد ، هو الكون كله بما فيه الإنسان .

غير أن الدين يبحث موضوع الكون كله ليعرف دلالاته على خالقه وعلى صفات ذلك الخالق وعلى مصير الكون والإنسان ، وليعلم طرق التعامل مع الكون ومع خالقه ويسلك أحسن السبل فى ذلك التعامل . وما يصل إليه الفكر فى هذا عن طريق الوحى الإلهى أو عن طريق الرشد أو « الحكم العقلى » المنطقى هو علم الدين .

وبعبارة أخرى ؛ الدين هو محاولة الكشف عن سر الكون كله والتعرفُ إلى خالقه والتعاملُ معه معاملة تليق بمقامه .

أما العلم بمعناه العصرى ، فهو حصيلة التجارب ونتيجة المحاولات لمعرفة أسرار جزئيات الكون المادّى ، ثم استخدامُ ذلك وتسخيره للانتفاع به .

وعلى هذا يكون العلم جزءاً من الدين ، لأن موضوعه ، وهو جزئيات الكون ، مندرج فى الموضوع الكُلّى للدين وهو الكون كله .

٢ — ومنشأ قضية « الخلاف بين الدين والعلم » — وهى القضية التى ثارت منذ عصر النهضة الأوربية الحديثة ، أى فى القرن الخامس عشر الميلادى وما بعده ، عقب بدء ظهور الأسرار العلمية التى كشفت عنها التجربة والمشاهدة — هو الاختلاف على تفسير بعض ظواهر الكون وتعليلها بين العلم وبعض الأديان ، وقد يصل الخلاف إلى حد التناقض بينهما تناقضاً لا يمكن رفعه .

وطبيعى أن الكتاب الناطق بالدين إذا كان من الخالق لا يمكن أن يناقض

كتاب الكون الصامت، كتاب الطبيعة، لأن «مؤلف» الكتابين واحد . . فلا يعقل أن يختلف قوله مع عمله . . وفى ذلك يقول القرآن: (قَوْلُه الحقُّ وله المُلْكُ، يومَ يُنْفَخُ فى الصُّور، عالمُ الغَيْبِ والشَّهادة، وهوالحكيمُ الخبير)، (تنزيلاً مِمَّنْ خلَقَ الأرضَ والسموات العُلاَ)، (قل أنزله الذى يَعْلم السرَّ فى السمواتِ والأرضِ)، (ألاَ يعلمُ من خلَقَ وهو اللطيف الخبير).

٣ — والواقع أن التفكير المنطقى وتسلسله هو الذى يضع الإنسان على أول طريق الدين وأول طريق العلم فى وقت واحد، لأن محور الدين هو التساؤل بتلك الأسئلة الخالدة لدى كل عقل يتفتح لأول الإدراك والرشد: مَنْ نحن؟ وما هذا الكون الكبير؟ ومن خلقنا وخلقه؟ وإلى أين المصير؟ وما هى الغاية؟

وهذه الأسئلة كما يبدو هى أسئلة عقلية كما أنها أسئلة دينية . . وقد نشأ العلم الدينى والعلم بالطبيعة من نتائج الأجوبة الصحيحة عن هذه الأسئلة.

وقد مزج القرآن بين هذين النوعين من العلم ولم يفصل بينهما فى قضية الإيمان بل إنه عدهما علماً واحداً هو العلم الأكبر الكُلىّ بالكون والنفس والحياة وامتدادها مع الله الخالق فى هذه الدار الدنيا وفى الدار الأخرى، دار الجزاء والخلود والسلام الأبدى . . واعتبر نقص العلم وقصوره عن هذا المستوى الشامل غفلة وجهلا فقال (ولكنّ أكثرَ الناس لا يعلمون. يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هم غافلون).

٤ — والعلم بمفهومه العصرى وهو ما استيقنته النفس عن طريق التجربة والمشاهدة الحسية فى جزئيات المادة والطاقة، جزءٌ من أنواع العلم بمفهومه الواسع وهو اليقين عن طريق (الحكم العقلى) المستخلص للنتائج من المقدمات . . سواء أكانت المقدمات حسية أم معنوية لا تدرك بالحواس ولا تخضع للتجارب المادية.

والواقع الذى لا جدال فيه أن (الحكم العقلى) هو الذى يدرك الأشياء والنِّسَبَ والعلاقات التى بينها، والأمور المادية والمعنوية، ويدرك القوانين التى تحكمها، ثم يستنبطها ويلخصها ويفرغها فى قوالب صحيحة محبوكة منطقية تضيف إلى رصيد الحقائق العلمية التى فرغ من تقريرها وسلم بها وصارت من ميراث العقل الإنسانى وقام عليها بناء العلم والمعرفة . . كالحقائق والقوانين العلمية والرياضية

والأحكام العقلية القاطعة فى جميع المجالات .

فينبغى أن يكون واضحًا أن « الحكم العقلى» هو الأصل فى العلم بمعناه العصرى كما أنه الأصل فى العلم بمعناه الكلى ، وهو المعيار الذى ندرك به المفردات والحقائق والقوانين فى الماديات والمعنويات ، وهو الذى يعطيها وصفها الدقيق ويضعها فى مواضعها الصحيحة ويصنّفها ، فينبغى أن يكون هو الحكَم الذى نحكّمه فى جميع مدركاتنا الحسية والمعنوية .

٥ ــ وبناء على هذا ينبغى ألا نحكّم العلم بمعناه الضيق ــ وهو العلم بجزئيات المادة والطاقة وقوانينهما عن طريق التجربة ــ فى أصول الدين ، فلا نرفض أمراً معنويًّا يدرك بالحكم العقلى لأننا لم ندركه بالتجربة والمشاهدة الحسية .

فقضية إثبات وجود الله ووحدانيته ، أو قضية وجود عوالم أخرى كالملائكة والجن ، أو قضية الحياة الأخرى فى دار الجزاء : لا نستطيع إثباتها بالتجربة والمشاهدة الحسية ، ولكن نستطيع إثباتها عن طريق الحكم العقلى المنطقى المهتدى بالعلم والمستشهد بأسراره ، وخاصة أن العلماء العصريين يلجأون إلى الحكم العقلى حين يريدون أن يثبتوا وجود شىء يفرضونه حتما لأنهم لم يصلوا إلى إثباته عن طريق التجربة الحسية ؛ وذلك مثل حكمهم بوجود شىء يملأ الكون المادى كله ويتخلله وينفذ إلى كل جزء فيه ، وقد سموه (الأثير) ، وذلك ليعللوا به وصول موجات الضوء والصوت والكهرباء عبر المسافات الشاسعة والجبال والجدران والبحار والسدود فى طول الأرض وعرضها .. بل فى الفضاء الكونى كله .

وكذلك يسلك (الحكم العقلى المنطقى) إلى إثبات وجود الخالق العالم الحكيم القدير الرحيم طريق الاستنتاج من دلالات ما فى الكون المادى والحياة والنفس الإنسانية بذات طريق الاستنتاج العلمى ، كما يسلك عقل العالم الطبيعى الذى يبحث فى أية ظاهرة أو عنصر من ظواهر المادة وعناصرها ويدور حوله ليستخرج القوانين التى تحكمه والخصائص التى تميزه .

٥ (الله) فى رأى الحكم العقلى الدقيق هو العقل الأكبر أو الكائن الأعظم الذى خلق الكون ويحكمه .

٦ – ومن عجائب أمر القرآن التى يجدر بالعقل العلمى أن يلتفت إليها حتى يتأكد أنه ليس هناك خلاف بين العلم والإسلام ، أنه يسلك فى إثبات وجود الله الخالق والتعريف به وبصفاته مسلك هذا العلم المبنى على الحكم العقلى المهتدى بما فى الطبيعة والنفس .

فهو لم يعرّف ذات الله وكُنْهَهُ لأنهما طبعًا فوق إدراك العقل ، ولكنه عرفه بصفاته المستنبطة من عمله فى الطبيعة والنفس الإنسانية .

ففى الكون لاشك علم محيط بالدقيق والجليل من الأشياء ، إذاً فخالقه عليم..
وفى الكون قدرة وخبرة وحكمة ورحمة ونزاهة وجمال ونظام وإصرار . . إذاً فخالقه قدير خبير حكيم رحيم قُدُّوس مؤمن مهيمن ...

إلى آخر ما فى الكون من ظواهر تشير إلى صفات صانعها .

فهذا الموقف فى الإسلام تمامًا كموقف العلم الطبيعى الذى يستنتج صفات أى عنصر أو ظاهرة أو حقيقة من حقائق الكون وعناصره وظواهره كما سبق القول .

ومن هنا يلتقى الإسلام والعلم والفكر المنطقى ، ولا يتصور أن يكون بينها خلاف ، وخاصة فى الأصول .

ومن هنا كذلك نعرف السر فى أن الأكثرية الساحقة من فلاسفة الإسلام وأطبائه ومفكريه لم يلحدوا أو ينكروا وجود الله وأصول الدين ، لأنهم عرفوا القرآن أولا فأعطاهم الصورة الرحبة الشاملة الصحيحة المقنعة التى لم تهزّها قراءاتهم للمذاهب الفلسفية اليونانية والفارسية والهندية .

وكيف يتصور أن يلحد أو ينكر مفكر أوعالم ديناً يعتبر العلم أكبر مكوناته وأعظم شواهده ، وقد أمر بالاستزادة منه ، ومجّده ونوّه بأهله وجعلهم شهداء مع الله الخالق والملأ الأعلى على قضية الكون العظمى ، وهى قضية وجود الله الواحد القائم على الكون كله بالقسط والرحمة والحكمة والقدرة ؟ فيقول : (شَهِدَ اللهُ أنه لا إلـَه إلا هو ، والملائكةُ وأولُو العلم ، قائمًا بالقسط ، لا إلَهَ إلا هو العزيزُ الحكيمُ) ويقول : (وقل رَبِّ زدنى عِلماً) ، (يَرفعُ اللهُ الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجاتٍ) ، (إنما يخشى اللهَ من عبادِهِ العلماءُ) ، (والراسِخُون فى العلم يقولون آمنا به كلٌّ مِن عِنْدِ ربِّنا) ، (هل يستوى الذين يَعْلمون والذين لايعلمون) .

وما ظننّا بدين يكون أول الوحى به أمراً بالقراءة، وهى مفتاح كنوز العلم، وتوجيهاً لعقل الرسول إلى أسرار علم الله فى خلق الكون وخلق الإنسان وتعليمه بالقلم ما لم يعلم ؟ ويكون من افتتاحات الوحى إليه القَسَمُ بالقلم وما يسطره الكتبة والعلماء والقسم بالكتاب المسطور ؟

فيقول : (اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الإنسانَ من علق . اقرأ وربك الأكرمُ . الذى علَّم بالقلم، علّم الإنسانَ ما لم يَعْلَم)، (ن. والقلمِ وما يَسْطُرون) ، (وكتابٍ مسطورٍ فى رَقٍّ منشور) .

أولا يحقّ للمسلمين أن يقولوا بعد ذلك : إن الدين عندنا علم وإن العلم دين ؟ وإن حكاية الخلاف بينهما لا يعرفها الإسلام ، وإن الإسلام لو لم يكن ديناً جاءنا عن طريق الوحى الآلهى لكان المذهب العقلىّ الوحيد الذى لا يستطيع العقل أن يلجأ إلى سواه لحل مشكلات الفكر والاعتقاد ومشكلات العيش ؟ وإن فى هذه المزاوجة القرآنية الفريدة بين العلم والدين قضاءً على دعوى الخلاف بينهما .

٧ — ولنرجع بذاكرتنا وخيالنا القهقرىَ إلى عصر نزول القرآن ، ولنستحضر ما كانت الأمم تعيش فيه من أفكار وآراء عن الكون والحياة . . ثم لنقرأ القرآن كأنه ينزل علينا حينذاك جديداً . . أفلا نجد أنه كان أعظم تفسير للكون والحياة وأعظم مبشر ومشير إلى المستقبل الذى يعيش فيه إنسان القرن العشرين وما بعده ؟ وهل أتت العصور التى تلت عصر نزول القرآن حتى عصرنا هذا بأية حقيقة علمية تناقض القرآن ؟ ثم ألم يصبح الكون الآن والعلم الكونى أعظم مفسر للقرآن كما كان القرآن أعظم مفسر للكون وقضاياه فى العصور الخوالى ؟

٨ — بقيت مسألة دعوة القرآن إلى الإيمان بالغيب، أى بأمور لا تدركها الحواس وقد تبدو بعيدة عن مجالات العلم بمعناه العصرى، لأن الغيب هو ما فوق عالم المشاهدة والمادة . . ولكن شيئاً من التفكير المتعمق يوضح لنا أن الإيمان بالغيب أمر متم للصورة الكاملة التى يفرضها العقل للكون والحياة ويبدو الكون من غيرها ناقصاً . . لأن البداهة تحكم بأن الذى خلق هذا العجب الذى نراه فى الكون المادى لا بد أن يكون لديه عالم لا نراه يليق باتساع الكون واتساع قدرة خالقه . . وما دام الإنسان ضئيلا على كوكب ضئيل فى أبعاد هذا الكون الهائل . . فليس له أن يحكم عليه كله

حسب حواسه التى لا تعمل إلا فى دوائر ضيقة جداً من هذا الكون . . وينبغى أن تترك الرؤية فى هذا المجال للحكم العقلى الذى يدرك النقص الذى فى الكون المادى . . ويدرك الكمال الذى يليق أن يصل إليه . . وليس معنى الإيمان بالغيبيات ترك العلم والتفكير والتدبير إلى الشطح والتهويم و (الدروشة) . وإهمال العمل العلمى . .

« وبعد » فلا يصح مطلقاً لدى العقل الإنسانى أن نفرغ الكون من العقل الأكبر الذى خلقه ويدبره ويقوم عليه ، بحجة أن العلم بمعناه الضيق لا يثبت بأدواته ذلك العقل الأكبر ؛ وإلا وقعنا بالإنكار فى إشكالات عقلية دونها بكثير ماعساه أن يخيل إلينا من إشكالات فى الإثبات ، إن كان فى الإثبات إشكال . .

ولا بد فى عصرنا هذا من الاعتماد فى إثبات الدين على العقل والعلم بمعناه الذى شرحناه ، وأن نرفض الأمور التى لا يقرها الحكم العقلى ، وأن نخاطب العقول بما يقنعها علمياً أولا .

كما لابد من الربط بين علم الإنسان وبين علم الله وقدرته حتى يكون التكامل بين الدين والعلم فى أذهان الناس ... وخاصة إذا علمناهم أن العقل الذى يبدو فى الكون هو أستاذ عقولنا وأنه يسيرنا بمنطقه ، وأن الخير والشر عنده كما هو عندنا ، وأن القرآن قد عنى بتوجيه العقول إلى احترام المادة وكشف أسرار خلقها وبدئها ولم يسمح باجتياز الطبيعة إلى ما وراءها إلا بعد الإلمام بها ومعرفة علومها ، وجعل فضل الإنسان على غيره من المخلوقات منوطاً بعلم أسرارها . .

لقاء تعارف وحوار مفتوح
بيان اشتراكية الإسلام والاشتراكيات الأخرى

إلى الدينيين الحرفيين :

أبادر فى البدء إلى تذكير الدينيين الحَرْفيين الذين قد ينفرون من هذا العنوان بأن النظم التى وضعها الإسلام للمعاملات فى الاقتصاديات والأموال ليست من أركان الدين وعقائده حتى يكفر مخالفها . . . وإنما هى نظم لإجراء التصرف فى الأموال والمعاملات فى ضوء روح الدين وعقائده وأخلاقياته. فإذا خالفها مخالف بدون إنكار أنها من الدين ، لمصلحة يراها أو حتى لغير مصلحة ، وهو مؤمن بالعقيدة فلا يعد كافراً . . . وقد يعد عاصياً . . .

والأصل فى تلك النظم أنها لتحقيق المصالح العامة المقصودة من تلك المعاملات . ويكيِّفها كل شعب حسب الظروف والأحوال بدون خضوع للهوى أو للسطحية أو لمجرد الخروج على الموروث لأنه قديم . . . و « أنتم أعلم بأمور دنياكم » حديث نبوى محمدى يشير إلى المنهج الصحيح للنظر فى مثل هذه الأمور .

وعلى هذا الأساس ينبغى ألا ينظر هؤلاء الدينيون الحرفيون إلى المذاهب الاشتراكية التى تؤمن بالله على أنها كافرة فى رأى الإسلام مهما كانت آراؤها فى الاقتصاد أو السياسة مشتطة . . . لأنها على فرض مخالفتها لنظام اقتصادى أو سياسى إسلامى مقرر لم تخرج على ركن من أركان الإسلام الأساسية وعقائده الجوهرية .

ونستطيع أن نقرر بكل ثقة أن الإسلام لا يعنيه من الرأسمالية أو الاشتراكية أو أى مذهب آخر إلا تحقيقه لمصلحة الناس مع عدم خروجه على أصول العقيدة وأركانها ، وأنه لا يأخذ على الاشتراكية الملحدة وينكر منها لأول نظرة إلا جحودها لوجود الله وأصول الدين فى سبيل إنصاف الطبقات الكادحة والمظلومة ، لأن هذا الجحود لا يستطيع النهوض أمام بدَهيات الإثبات من جهة ، ولأنه من جهة أخرى لا حاجة إليه إطلاقاً لدى

العقل والتجربة لإنصاف تلك الطبقات . بل إن العقل والتجربة يريان أن احتياج الدعوة لإنصاف هذه الطبقات إلى الايمان بوجود الله وحسابه فى يوم الجزاء احتياج شديد المساس بمصلحة تلك الطبقات كما سيتبين ذلك فيما بعد .

كما نستطيع أن نقرر فى اطمئنان أيضاً أن الإسلام لا يمنع على الأقل — إن لم يأمر — أن يتجه الناس فى سبيل تحقيق مصالحهم العامة فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية إلى ما ترضاه عقولهم وتقبله نفوسهم من الاشتراكية أو غيرها ما داموا يرون باختيارهم وحريتهم أن فى هذا مصلحة لمجتمعهم وازدياداً لإنتاجهم وإزالة لأسباب النزاع والأحقاد بينهم وعدم إضعاف للدافع إلى العمل فى نفوسهم .

فيجب دائما أن يتذكر الدينيون الحرفيون أن قصارى أمر من يؤمن بأركان الدين ويخالف هذه النظم التى وضعها الإسلام للاقتصاد والمال — على فرض أنها لا محيد عنها مهما رأى الناس مصلحتهم فى غيرها — قصارى أمر هذا المخالف أن يكون عاصياً وليس كافراً .

فلا داعي حينئذ إلى أن يكفر بعض المتدينين بعضاً إذا اختلفوا على الاشتراكية أو الرأسمالية . . . وما كان لهم أن ينكروا من الاشتراكية المغالية الملحدة إلا جحودها لوجود الله ورفضها للدين وإنكارها لدوره فى حل مسألة الفكر والاعتقاد وفى تحقيق الطمأنينة النفسية على قيمة الإنسان ووضعه وعلى قيمة هذا الكون العظيم .

أخطاء متكررة من رجال الدين :

وما كان يجوز إطلاقاً للدينيين أن يتخلفوا عن الدعوة إلى إنصاف الطبقات المظلومة وأن يقفوا باسم الدين فى صف أعدائها وهم يعلمون أن الأنبياء والرسل كانوا رواداً فى طريق دعوة الإنصاف والعدل والمساواة والإخاء والتكافل بين الناس مع الإيمان بالله ، وكانوا حرباً وثورة على طغاة المال والسلطان ، وكانت حياتهم أمثلة تحتذى فى تطبيق المساواة والعدالة ومقاومة الأوضاع الظالمة بين الناس ولو كلفهم ذلك حياتهم .

وما أظن أننى بحاجة إلى أن أضرب الأمثلة على ذلك من حياة الأنبياء والرسل وخاصة حياة المسيح ونبى الإسلام ومواجهتهما لطغاة المال والسلطان من أول لحظة

صدعا فيها بأمر الدعوة إلى الإيمان بالله ، ويتبين ذلك بوضوح فى بعض فصول هذا الكتاب .

فأولى بهؤلاء الدينيين ألا ينزعجوا من هذا العنوان ، ولا مما تحته من حديث رفيق منصف للمذاهب الاشتراكية ، فإن الإنصاف هو أعظم الوسائل وأقرب المداخل إلى التفاهم بين المختلفين ، ولا يخشاه ويعرض عنه إلا المتعصبون لآرائهم بدون تعليل ، وإلا المفلسون من حجج الحق واليقين .

ونحن المسلمين قد عرفنا ما عند الاشتراكيين الملحدين ، وبدا لنا أنهم أخطأوا المنهج الصحيح إلى تحقيق سعادتهم وسعادة الطبقات المظلومة حين أنكروا فكرة الإيمان بالله ولم يحاولوا أن يستعينوا بتلك الفكرة على حل مشكلة العيش المادى مع أنها أعظم الأسلحة فى هذا كما سبقت الإشارة ، فحرموا الإنسانية الطمأنينة على مصيرها ومصير الكون ولم يجلبوا لها خيراً من وراء ذلك . بل جلبوا شرًّا محققاً .

ونريد أن يعرفوا ما عندنا من حلول تاريخية وآنيّة لمشكلات « الفكر والاعتقاد » و « العيش » فى ضوء الإسلام حتى لا يظنوا أننا نسلك طريق غيرنا من المتدينين التقليديين المفرّطين فى حق العقل أو حقوق الإنسان ، إذ يسيرون فى ركاب طغاة المال والسلطة جهلا بالدين أو جبناً أو تجارة ، أو الذين يعطلون قوى عقولهم فلا يدركون جوهر الحقيقة الكونية الدينية ، كما يشلّون قوى كفاحهم فلا يجاهدون لتحقيق الكرامة والعدالة والمصلحة حين يدخلون رحاب الدين مغمضى العيون مخدرين بالأوهام والخرافات مسممين بالتعصب الدموى أو العقلى المغلق البغيض .

لا يحتج بالأديان الوثنية :

نعم إن هناك بعض الأديان كالهندوكية التى يقوم بعض جوانبها الأساسية على التفريق الصارم بين الناس وجعلهم طبقات بعضها فى القمة وبعضها فى الوسط وبعضها فى الحضيض كالمنبوذين الذين لا يتأتى لهم أن يرقوا إلى مرتبة مَنْ فوقهم ويعامَلُوا مثلهم . . . غير أن هذا النوع من الأديان الوضعية الأرضية ليس هو الذى نتحدث عنه . لأنه من الوثنيات المتخلفة التى ما تزال

تعيش فى جو من الرموز وعدم الوضوح فى رؤية الكون وخالقه وفى جو من التهويمات والتأويلات الشاعرية والشطحات التى يعيش بها من لم يصلوا إلى درجة الرشد العقلى والتدين العلمى الذى يرى الدين علماً والعلم ديناً لأنهما يلتقيان فى الواقع على منهج واحد فى التوصل إلى حقائق العلم وجوهر الدين، وهو منهج الحكم العقلى المبنى على بداهة الفطرة.

ومع ذلك فإن هذا النوع من الأديان الوثنية قد أخذ يقترب على يد المصلحين كالمهاتما (غاندى) وتلميذه (نهرو) من منهج الدين السماوى وتطبيقاته فى إذابة الفوارق بين الطبقات وضمان حقوق الأفراد الأساسية على قدم المساواة .

طريقة القرآن فى الدعوة للإيمان :

والذين يريدون أن يأخذوا جماهير الناس بيسر وسهولة إلى الإيمان الفطرى بالله الخالق ورحمته وعدله لا يستطيعون أن يحققوا ذلك كما ينبغى ما دام عذاب تلك الجماهير بالفقر والحرمان مسيطراً على النفوس ، لأن الله الخالق إنما دعا الناس إليه وعرفهم بذاته عن طريق التذكير بنعمه وأفضاله عليهم وإمتاعه لهم وصنعه فى الطبيعة من أجلهم . . . وقد أدام تذكيرهم بآلائه التى لا حدود لها ورحمته الغامرة التى يتجلى بوضوح أن بناء الكون كله قائم عليها . . . وجعل عبادته والإيمان به عن طريق تذكر هذه النعم وشكرها ، كما قال القرآن : (فَلْيَعْبُدُوا ربَّ هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنَهم من خوف) ، (يا أَيها الناس اعبُدُوا ربَّكم الذى خلقكم والذين من قَبْلكم لعلكم تَتَّقُون ، الذى جعل لكم الأَرْضَ فِرَاشاً والسماءَ بِناءً وأنزل من السماء ماءً فأَخرجَ به من الثمراتِ رزقًا لكم) .

وواضح أن توجيه القرآن خطابه للناس جميعاً حينما يذكرهم بنعم الله الأساسية قاطع فى الدلالة على أن هذه النعم لا تخص فرداً أو جماعة أو أمة محدودة منهم بل هى عامة مشاعة لهم جميعاً ، فيجب ألا يستأثر بها ويحتكرها فريق منهم لنفسه ويحرم الآخرين فيكون ظالماً طاغياً مبدلا للأوضاع العادلة التى أرادها الله للناس جميعاً . . . كما يجب ألا يرضى ويستسلم الفريق المظلوم

المنهوب دون أن يكافح عن حقوقه الأساسية ونصيبه فى هذه النعم . . . وإلا وقع تحت مسئولية تضييع نفسه وتفريطه فى حقه ، لأن القرآن لا يعفى المستضعفين الذين قبلوا الظلم من مسئولية عدم المقاومة للظالمين ولو بالهجرة من أرضهم على الأقل إن لم يستطيعوا المقاومة الايجابية : (إن الذين تَوَفَّاهُم الملائكةُ ظالمى أنفسهم ، قالوا فيم كُنْتم ؟ قالوا كنا مُسْتضعَفين فى الأرض . . . قالوا ألم تكن أرضُ الله واسعةً فَتُهاجروا فيها ؟ فأُولئك مأْواهم جَهَنَّمُ وساءت مصيرا) .

لعنة الحرمان هى سبب الإلحاد :

وأعتقد أن أشد ما يبطئ بالناس عن الدخول فى رحاب الإيمان الفطرى العارف بالله حق معرفته ، ويعرضهم للفتنة فى الدين والحياة هو عذابهم بالحرمان من نعم الله وأفضاله التى جعلها لهم جميعًا وعمها بعدله ، ولكن الطغاة والأنانيين حجزوها لأنفسهم ومنعوها عن غيرهم فظن الممنوعون المحرومون أن الله هو الذى أراد حرمانهم وإهانتهم وإكرام الأغنياء المانعين .

رد قرآنى على الأوهام فى أسباب الغنى والفقر :

وهذا غير صحيح وغير معقول ! وقد بين القرآن هذه القضية بوضوح لا أدرى كيف فات المفسرين للقرآن أن يروه ويوجهوا المسلمين إليه ليصححوا أوضاع حياتهم الاعتقادية والاجتماعية والاقتصادية على مقتضاه ؟ وذلك فى قوله من سورة الفجر :

(فأَمَّا الإنسانُ إذا ما ابتلاه ربُّه فأَكرمَهُ ونَعَّمه فيقولُ ربِّى أَكْرَمنِ . وأَمَّا إذا ما ابتلاهُ فقَدَرَ عليه رِزقَه فيقول ربِّى أهاننِ . كلاَّ . . . بل لا تُكْرِمُون اليتيم ولا تَحَاضُّونَ على طعامِ المسكين . وتأْكلون التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا . وتحبُّونَ المالَ حُبًّا جَمًّا) .

وواضح من هذه الآيات أنها ترد على أوهام الناس فى أسباب الغنى والفقر وتبين لهم أن المسألة ليست مسألة إكرام من الله للغنى ولا إهانة منه للفقير وإنما ترجع

أسباب هذه المفارقات فى أحوال الناس بين الغنى والفقر إلى قسوة بعضهم على بعض، وإلى إخلالهم بالأوضاع الطبيعية التى وضعها الله ، لأنه خلق لهم ما فى الأرض جميعاً وأراد الكرامة لهم جميعاً وأمرهم أن يتراحموا ويتعاونوا ويتكافلوا . . . ولكن الظلمة الأقوياء أخلّوا بهذه الأوضاع التى وضعها الله، فخصّوا أنفسهم بما استطاعوا الحصول عليه بقوتهم وظلمهم من نعم الله ومنعوا تلك النعم والإكرامات عن الأيتام والضعفاء والمساكين وأمثالهم الذين لا يستطيعون نيل حقوقهم أو الدفاع عنها أو العمل لكسب رزقهم أو القدرة على كفاية أنفسهم ، ولم يتواص الناس ويتحاضّوا على تنفيذ أمر الله بأداء حقوق أولئك الضعفاء والمساكين فى ماله الذى استخلفهم فيه بل تكالبوا وتذاءبوا وافترسوا أولئك الأيتام والمساكين والضعفاء وكانوا سبباً فى حرمانهم من نعم الله وأرزاقه ، وفى شعورهم بالمهانة وتوهمهم أن الله يريد لهم الهوان بالحرمان؛ وقد أكل الطغاة « التراث » الطبيعى الذى جعله الله رزقاً وكرامة للناس جميعاً أكلاً لمًّا ابتلعوا فيه حق غيرهم وأحبوا المال حبًّا شديداً مفرطاً وجمعوه حلالا وحراماً . . . ثم تناسى الناس أن هذه المفارقات هى من صنع أيديهم وجناية أنانيتهم وجشعهم وقسوتهم ، ولا دخل فيها كما يتوهمون لإرادة الله إكرام الغنى بغناه الذى يجعله برحمته وحكمته وسيلة لاختبار شكره ، ولا لإرادة الله إهانة الفقير بفقره الذى يجعله كذلك وسيلة لاختبار صبره .

إذاً فالقضية فى رأى القرآن هى قضية إخلال الناس بالأوضاع الطبيعية الواجبة بينهم، وهذا الإخلال ينشأ فى رأى القرآن من القسوة والجشع والنهم فى أكل « التراث » الذى جعله الله لهم جميعاً والاستسلام لغريزة التملك وحب المال ذلك الحب الكثير الشديد الذى ينسى الناس أن المال مال الله لجميع خلقه ، ولكن الأنانية والظلم منعاه عن الضعفاء والمساكين فصار الحال كما قال (عمر بن الخطاب) أو (على بن أبى طالب) « ما تمتع غنى إلا من جوع فقير ! »

وكأن القرآن يقول للناس فى هذه الآيات : لم يرد الله تكريم الغنى بغناه ولا إهانة الفقير بفقره ولكنكم أنتم الذين لم تكرموا الضعفاء منكم والعاجزين والفقراء وأهنتموهم وأسرفتم فى حب المال وحجزه لأنفسكم وحدها ، ولو أنكم جعلتم كل واحد منكم ينال من مال الله ورزقه الذى جعله لكم جميعاً ما يسد حاجته لم يقل

بعضكم إن الله أكرمنى وبعضكم إن الله أهاننى ؛ لأن الجميع حينئذ يكونون فى درجة واحدة من الشعور بتكريم الله وعدله ورحمته وكفالته .

أما تعبير القرآن بقوله (إذا ما ابتلاه ربه فأكرمه) ، و (ابتلاه فقدر عليه رزقه) . فتأويله وتفسيره أن من حكمة الله ورحمته أنه يجعل كل شأن فى الحياة الدنيا سواء كان خيراً أم شراً وسواء كان من فعل الناس أم من فعل الله مباشرة ، وسيلة لنيل الثواب فى الآخرة إذا نجح الناس فى الابتلاء والاختبار به . وما دام الغنى والفقر شأنين خطيرين من شئون الحياة الاجتماعية وهما نتيجتان كما قلنا لإخلال الناس بالأوضاع الطبيعية الإلهية الواجبة بينهم فقد استعملهما الله وسيلتين للابتلاء والاختبار كما هو الشأن دائماً فى ابتلائه الناس بعضهم ببعض فى شتى أوضاع حياتهم الدنيا (وجعلْنا بعضَكم لبعضٍ فِتنةً . . . أتَصْبرون ؟) ، (ونَبْلُوكم بالشرِّ والخير فِتْنَةً) .

بيان قرآنى فى العقبة المشئومة :

وقد اعتبر القرآن الطغيان بالمال والإسراف فى إهلاكه والغرور به وحبسه عن الإنفاق لتحرير المحرومين من الحرية ولإكرام الضعفاء والأيتام والمساكين الذين أصابتهم المسغبة وآلام الجوع والحرمان . . اعتبر ذلك هو العقبة الكؤود التى يشق على الإنسان اجتيازها واقتحامها فى طريقه إلى رضا الله وإلى البعد عن المكابدة والتعب فى السعى إلى نيل الحقوق الطبيعية والنزاع عليها . . . تلك العقبة التى تفسد الحياة وتدمرها بشؤمها المهلك الذى لا ينجى منه إلا العمل الصالح من أجل الجميع والتواصى بالصبر عليه وبتعميم الرحمة والعدالة على الجميع .

ولنقرأ معا من سورة البلد تصويراً رائعاً لهذه المعانى :

(لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ فِى كَبَدٍ [أى مشقة شديدة] أَيَحْسَبُ أن لَنْ يَقْدِر عليه أَحدٌ . . . يقول أَهلكتُ مالا لُبَدًا [كثيرًا] . . . أَيحْسَب أن لم يَرَهُ أَحد . . . أَلمْ نجعلْ له عينين . ولسانًا وشفتين . وهديْناه النَّجْدَيْن فلا اقتحم العَقَبة . . . وما أدراكَ مَا العَقَبةُ ! فَكُّ رَقبةٍ ، أَو إِطعامٌ فى يوم

ذى مَسْغَبَة . يتيمًا ذا مَقْرَبَة . أو مِسْكِينًا ذا مَتْرَبَة . ثم كان من الذين آمنُوا وتَواصَوْا بالصبرِ وتَواصَوْا بالمَرْحَمَة . أُولَٰئِك أصحاب المَيْمَنة والذين كفروا بآياتنا هم أصحاب المَشْأَمة » .

إذاً فاقتحام عقبة الحياة وتجنب شؤمها يكون فى رأى القرآن الواضح هذه الآيات ، بإشاعة المرحمة ، وبتحرير رقاب الناس من أنواع العبودية والإذلال ، وبتأمين لقمة العيش وأساسيات الحياة للضعفاء والعجزة والقاصرين عن السعى لرزقهم ، وباتقاء الغرور بالمال والإسراف فى إهلاكه وإنفاقه . فلا يطغى به متبجحًا مفتخراً (يقول : أهلكتُ مالا لُبداً) . ولا يتغاضى فى الإسراف فيه وإهلاكه عن نظرات الفقراء وحسدهم وحسراتهم وحقدهم ، وعن تفتّح عيونهم وتطاعها إلى نعم الله التى حجزها المسرف لنفسه ، بل يجب أن يتذكر دائمًا أن الله جعل للفقراء عيونًا ترقب فى حسرة حقها فى هذا المال ، وألسنة وأدوات للنقد والحسد والقيل والقال والسخط الذى يصيبهم به الحرمان ، ويصيب الحياة الاجتماعية بالشؤم والدمار كما جعل للغنى المسرف تلك الأدوات (ولسانا وشَفَتَيْن) .

حديث قرآنى فى المصادر الأساسية للحياة :

وكيف ترسخ هذه الأوهام والأخطاء المشئومة فى أذهان المسلمين مع أن القرآن قد بين لهم نعم الله الأساسية التى يجب ألا يحرم منها أحد لأن بها قوام حياة كل فرد وذلك فى مثل قوله :

(أَفَرَأَيْتُم ما تُمْنُونَ ؟ أَأَنتم تَخْلُقُونَه أَم نحنُ الخالِقُون . . . نحن قَدَّرْنَا بينكم الموتَ وما نحنُ بمسبوقين على أن نُبدِّل أمثالَكُم ونُنْشِئَكُم فيمالا تعلمون ! ولقد علمتُم النشأة الأُولى فَلَوْلَا تَذَكَّرُون ! أفرأيتم ما تَحْرُثُون ؟ أَأَنتم تَزْرعُونه أَم نحنُ الزَّارعون ؟ . لو نَشَاءُ لَجعلناه حُطَامًا فَظَلْتُم تَفَكَّهُون . إِنَّا لَمُغْرَمُون . بل نحن محرومون. أفرأيتم الماءَ الذى تَشربون . أَأَنتم أنزلتموه من المُزْنِ أَم نحنُ المُنْزِلون . لو نشاءُ جعلناهُ أُجَاجًا فلولا تَشْكُرُون . أفرأيتم

النار التى تُورُون ؟ أأنتم أنْشأْتُم شَجَرَتَها أَم نحنُ المُنْشِئون ؟ نحن جَعَلنَاها تذكِرةً وَمَتَاعًا لِلْمُقْوِين ، فسبِّح باسمِ ربِّك العظيم . . .)

وهذا الحديث القرآنى جدير أن يكون هو الأصل فى وجوب جعل المصادر الحيوية الأساسية عامة للناس جميعًا ، وأن يكون أعظم سند للاشتراكية الإسلامية مع الحديث النبوى المشهور : « الناس شركاء فى ثلاثة : الماء والكلأ والنار» .

وفى هذا الحديث القرآنى يمتنّ الخالق ويذكر الناس جميعًا بالحياة ومقوماتها المادية الأساسية ، فهو يمتنّ أولا بإخراجهم للحياة عن طريق إفرازهم للسائل المنَوِىّ الذى منه يخلق نوعهم ونسلهم وتمتد سلالتهم ، ثم يمتنّ ويذكِّر بالمقومات المادية الثلاثة لعيشهم وهى الماء والنبات والنار . . .

فالحياة من غير أحد هذه المقومات المادية الأساسية تعتبر ناقصة غير وافية الأركان الضرورية التى تجعلها جديرة بأن تعاش وأن تقابل بالشكر للخالق على الدخول فيها .

ومن عجائب القرآن أنه يسمى المال خيراً ، وفى هذا إثبات أن الحياة بدونه شر فيقول : (كُتِب عليكم إذا حضر أحدكم الموتُ إن ترك خيراً الوصيةُ للوالديْن والأقربين) أى أن ترك مالا . .

والشعور الصحيح بالحياة وبيد الله الرحيمة فيها لا يكون إلا بتوفير المستوى الضرورى من نعم الله الأساسية لكل فرد . . . فلو بدأ الإنسان حياته فى عذاب الحرمان من هذه النعم واستمر هكذا ، فكيف يشعر بأن دخوله للحياة نعمة يشكر الله عليها ؟ أو كيف يحس برحمة الله وعدله وهو لم ير شيئًا منهما لنفسه ؟ إلا إذا كان ممن آتاهم الله أعلى مقامات ذلك الإيمان والرضا الصوفى المنكر لأى حق للإنسان لدى الله . . . ويكفيه دخوله للحياة ومعرفة الكون وخالقه ، ويرى أن ذلك موجب لشكر الله ولو كانت حياته كلها سلسلة من العذاب .

وكيف يعقل أن يمتنّ الله على الإنسان بشىء هو كله عذاب وحرمان ؟ وكيف يدرك الإنسان الصورة الحقيقية لرحمة الله وعدالته ، وهو لم ير فى تجربته الخاصة إلا القسوة والجوع والخوف والإهدار والضياع ؟ !

وقد سجل القرآن العجيب وأعلن أن الله لا يحرم أحداً من نصيبه فى الرزق الذى

به قوام حياته ومتاعه ولوكان كافراً به ؛ ويتضح ذلك من إجابة الله لإبراهيم حينما دعاه أن يرزق المؤمنين من أهل مكة وحدهم ، فرد عليه بأنه سيرزق الكافرين كذلك ، على ما حكى القرآن فى قوله :

(وإذْ قال إبراهيمُ ربِّ اجعلْ هذا بلدًا آمنًا وارْزقْ أهلَهُ من الثَّمراتِ مَنْ آمنَ منهم بالله واليومِ الآخرِ . قال : ومَنْ كَفَرَ فأُمَتِّعُه قليلًا ثم أَضْطَرُّهُ إلى عذاب النار . . .) .

ولقد كان اختلال هذا الأساس الضرورى للمعيشة المادية أكبر الأسباب فى فتنة أكثر الناس وصراع أفرادهم وطبقاتهم ، وفى حيرتهم وضلالهم الدينى . كما فى قول القائل :

كم عاقلٍ عالمٍ أعْيَتْ مذاهبُه وغافلٍ جاهلٍ تَلْقاهُ مَرْزوقَا
هذا الذى جعل الألبابَ حائرةً وصَيَّر العالِمَ النِّحْرِير. زِنديقَا

وكما وقع (لإنجلز) أحد بناة المذهب الشيوعى الإلحادى ، حينما حملته آلام الناس وشقاؤهم بالفقر والطغيان على أن ينكر أن فى الكون إلها يرحم الإنسان غير الإنسان نفسه . . . فيجب أن يدبر وحده وسائل عيشه ، ويصنع قدَره ويحطم كل شىء وكل معتقد يحول دون ذلك .

وإزالة اختلال هذا الإساس هو فى رأيى « نقطة البدء » فى دعوة الناس للإيمان بالله العادل الرحيم وفى قيادة الجماهير إليه وإلى حل « مشكلة الفكر والاعتقاد » و« مشكلة العيش » .

ويجب أن ينتهى الدعاة الدينيون فى ضوء رأى الدين إلى الاتفاق على أولوية حل هذه المسألة مع الاشتراكيين المعاصرين الملحدين حتى يسقطوا حجة إلحادهم الذى كان سببه كما سبق القول هو أنهم وجدوا بعض رجال الدين يجعلونه فى ركاب طغاة المال والسلطة الذين حجبوا ما وضعه الله فى الطبيعة والشريعة من عدالة ورحمة لكل فرد يخرجه للحياة .

فلنأخذ الجماهير إلى الله بتعميم نعمه عليها :

وعلى هذا فكل جهد يبذل لإزالة أسباب الحرمان والعوز لدى الجماهير ،ولإشعار الجميع أنهم سواسية فى ضمانات الحدود اللازمة للمعيشة ، وفى تكافؤ الفرص ، هو سعى وجهاد لإقرار الإيمان بالله ، وتطبيق شريعته وإعداد المشاعر الإنسانية لإدراك صداقته ورحمته وعدالته . . . وكل سعى أو تفكير يمنع وصول نعم الله إلى الإنسان أو يضيقها عن الحاجة أو يفسدها ، هوسعى إلى شيوع أسباب الكفر بالله والفساد فى الأرض وتشويه وجه الحياة .

وكثيراً ما قلنا إن الحياة من يد الله هى دائمًا صحيحة رحيمة عادلة ،والإنسان هو الذى يفسدها ويشوهها بالطغيان والطمع فى حقوق الغير واختلاسها واغتيالها والتحكم فيه وإذلاله واستغلاله .

فلولا جشع بعض الأفراد وطمعه وأنانيته وقسوته على غيره لوجدت كل نفس ما يكفيها ويغنيها ويشعرها بنعمة الله ، وما يجعل الحياة أمامها جميلة تستحق أن تعاش ، وما ييسر قيادها إلى الإيمان بالله ويجعلها تسمع وتفهم وتلبى الدعوة إليه ، وقد قرر القرآن أنه قد (ظَهَرَ الفسادُ فى البرّ والبَحْرِ بما كَسَبَتْ أيدى الناس) وأن الله قد سمح بظهور هذا الفساد مع أنه ليس من طبيعة الحياة (لِيُذِيقَهم بعضَ الذى عَمِلُوا لَعلَّهم يَرْجِعون) . فليس ظهور الفساد فى الأرض نتيجة لإرادة الله ابتداء ، ولكنه نتيجة لعمل الإنسان وليبين الله له عاقبة الخروج على قوانين الحياة الصحيحة وطبيعتها ليسرع بالعودة والرجوع إليها .

ومن هنا نجد صحة النظرة التى ترى أن التأمين المادى لحياة الإنسان يجب أن يسبق كل عمل آخر من أعمال الدولة أو الجماعة ، ونرى أنه كان يجب على الأمم ألا تشغل نفسها بشيء قبل أن تنتهى من حل مشكلات التفاوت الفاحش فى العيش المادى .

جنايات عصور الطغيان :

وقد اكتوينا بنيران جنايات العصور التى شاع فيها الطغيان والاستغلال على الدين وعلى قيادة الناس إليه بيسر وسهولة . فقد أشاعت تلك الجنايات الكفر

والفساد حين أشاعت العبودية والفقر . . . وجعلت الحياة تبدو عند بعضهم كأنها مأساة ، وعند بعضهم الآخر كأنها مهزلة مقصودة أو عبث اعتباطى لا حكمة وراءه ، إذ حجبت وجه الله الرحمن الرحيم عن خلقه حينما شغلت عيونهم بدموع الفقر وقلوبهم بآلام الحرمان والأحقاد وعقولهم وأجسادهم بالتفكير والسعى والكدح لتوفير لقمة العيش وانتزاعها من فم الطغيان والزحام على موارد الحياة، وأورثتهم الشك فى كثير من الحكم الإلهية التى ينبغى ألا تغيب عن تفكيرهم . وخلقت لهم مشكلات كثيرة فى فهم العلاقة بينهم و بين ربهم وقضائه وقدره فيهم ، وحملت الكثيرين منهم على أن يثوروا على كل مواريث العصور السابقة التى شاع فيها الاستبداد والطغيان والاستغلال ، ومنها ميراث الدين ؛ إذ وجدوا أن رجال الدين المحدودى الأفق أو الجبناء أمام طغاة المال والسلطان قد تحدثوا بلسان الدين لإقرار المظالم الاجتماعية والسياسية ، وفلسفوا وبرّروا تحمل آلامها وتحسين صبر الجماهير عليها ، وعدم الثورة والنضال لانتزاع حقوقهم من غاصبيها ، حتى صارت طرق الحياة مليئة بالأشواك والعقبات والمهالك التى تجعل الأمم تسير فى عناء وذل وخوف أمام الرعاة الجهلاء القساة على نحو ما قال المتنبى فى تصويره الرائع الصارخ :

فى كل أَرض وطئتُها أُمَمٌ   تُرْعَى بعَبْدٍ كأَنها غَنَمُ

لا تمنعوا عدل الله عن القادمين للحياة :

بهذه النظرة النافذة إلى صميم المشكلة ينبغى أن يتلقى الفرد الإنسانى فى أول دخوله إلى الحياة ما يشعره بترحيب الله به ورعايته له . وأول أسباب هذا الشعور هو توفير الوسائل اللازمة لعيشه المادى والمعنوى فى يسر وسهولة ، وبحيث تكفل له تكافؤ فرص الحياة مع الأفراد الآخرين فى السعى إلى نيل نعم الله ومواهبه الأخرى التى تزيد على المستوى الأساسى اللازم .

ونحن نرى مصداقاً لهذه النظرة فيما يحدث فى أطوار نشأة الجنين السوى الذى يخلق فى ظروف فطرية سلمت من الاعتداءات الخارجية بفعل الأب أو الأم أو البيئة . . . فنرى يد الله الخالق تهيئ للأجنة الأسباب الكاملة لنموها المادى من أجسام أمهاتها فى ناموس ونظام واحد ، بتوفير أسباب الغذاء والأمان والحراسة

الشديدة على صحتها لمقاومة أعدائها ؛ كالجراثيم الضارة والأخلاط والسموم التى تحيط بها فى بطون أمهاتها ، حتى إذا ولدت وخرجت للدنيا جعل الله غذاءها وأمانها فى لبن أمهاتها ورعاية أبويها .

فإذا كان الأبوان قد غدر حقهما وظلما فى الغذاء والأمان وتكافؤ فرص الحياة ، فهنا يكون قد حدث أول الاعتداء على أسس الحياة التى أعطاها عدل الله سليمة لكل فرد. وقوة الشر التى فى المجتمع الإنسانى هى القوة المعتدية التى أفسدتها وشوهتها وأخرجتها عن خط سيرها الطبيعى .

لا ملام على الأقدار :

وفى هذه الحالة لا تلام الأقدار التى أعطت الناس جميعاً بالسَّوِيَّة من وسائل الحياة الأساسية ، وإنما اللوم على الذين يعتدون على خط سير هذه الأقدار ويخرجونها عن العدل والرحمة بأنانيتهم أو جشعهم أو ظلمهم أو سفههم أو إفسادهم للحياة بإخلال أوضاعها الاجتماعية بالترف والبوار والإسراف فى جانب ، والفقر والحرمان والعجز والضياع فى جانب آخر .

وكل من يحاول إزالة هذا الاعتداء الذى شوه وجه الحياة وحجب رؤية عدل الله ورحمته وحمل الناس على الحيرة والكفر والشك فى وجود العدالة الإلهية ، هو لا ريب يستحق التقدير والتشجيع والترحيب .

التماس العذر لذوى الشطط :

وإذا كان بعض هذا الفريق قد اشتط وخرج فى محاولته هذه عن التفكير الدقيق لحل « مشكلة العيش » ، وحطم من أجلها المواريث الصحيحة للفكر والاعتقاد بعد أن اختلط عليه الأمر فيها بضعف بعض رجال الدين وسيرهم فى ركاب طغاة السلطة والمال ، وجهلهم فى تفسير جوهر الدين ومعرفة اتجاهاته الحقيقية لإنصاف المظلومين وإقرار عدل الله كما هو فى الطبيعة والشريعة ، وتحميل الدين مواريث ودعاوى خرافية ووثنية عن ذات الله وأقداره وعلاقاته بالإنسان . . . أقول إذا كان هؤلاء المحاولون قد اشتطوا وضلوا فى الوصول إلى الحل الصحيح لمشكلة الفكر والاعتقاد ، فيجب علينا نحن المسلمين خاصة أن

نفترض فيهم حسن النية ونبالة القصد ولا نسرع إلى الوقوف فى المعسكر المضاد لهم فنجعلهم يسلكوننا فى سلك واحد مع الذين كانوا هم السبب الحقيقى فى خروجهم على فكرة الإيمان بوجود الله وعدله ورحمته حينما قدموا إليهم الإله فى صورة خرافية تناقض العقل فيرفضها ، وحينما وقفوا باسم الدين فى صف طغاة المال والسلطان المهدرين لحقوق الشعوب والأفراد ، وحينما خدّروا الشعوب بأفيون الصبر وعدم الثورة والمقاومة لدفع المظالم وتصحيح الأوضاع حتى تكون كما هى فى شريعة العدل شريعة الله الخالق الرحمن !

افتراض واجب لحسن نواياهم :

أجل يجب أن نفترض أن الاشتراكيين ، حتى الملحدين منهم ، مدفوعون إلى ثورتهم العالمية ضد الظلم الاجتماعى والطغيان السياسى بنوايا طيبة وإخلاص للبشرية وللكادحين خاصة ، وأنهم يرون طريقهم هو طريق التقدم الإنسانى ، ثم لنا بعد ذلك أن ننقد ما نراه فى مذهبهم من أخطاء وأن ننكر عليهم أشد الإنكار رأيهم فى أن الانتصاف للطبقة الكادحة يستلزم رفض العقيدة فى الله الخالق سيد حكومة هذا الكون الكبير . . . ويستلزم إهدار حقوق طبقات المجتمع الأخرى .

اعتراف واجب بتأثيرهم :

كذلك يجب أن نعترف بأن صيحة الاشتراكيين قد تركت أعظم الآثار فى عصرنا هذا ، بتوسيع دائرة الدعوة إلى العدالة والمساواة ، وبإسراع الدول حتى الرأسمالية منها إلى الأخذ بأسباب الحياة الكريمة اللازمة للأفراد جميعاً وتكافؤ الفرص أمام الجميع ، وإلى إقامة الحياة الاقتصادية على الأسس العادلة المعقولة أو القريبة منها ، وإلى الارتفاع بقيمة العمل والعمال وتأسيس الأحزاب والجماعات والدول والفلسفات باسمهم ، وإلى توجيه النظر إلى قيمة المادة وقيمة المسألة الاقتصادية فى الحياة والاستعانة بذلك فى سير الحضارة والعلم وتقدم الإنسان .

وقد سادت (الروح الاشتراكية) مشاعر الجماهير فى كل مكان ، لأنها تجمع كل تطلعاتها فى آفاق الحريات السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وهى الحريات التى تهفو إليها الشعوب المظلومة والمستعبدة والمستغلة كوسيلة لإنقاذها مما هى فيه ،

كما ترى فيها الشعوب الحرة المتقدمة ضماناً لاطراد حريتها وتقدمها ودوام سيطرتها على مصائرها .

لقاء وحوار مفتوح معهم :

وكان يجب علينا نحن المسلمين أن نكون أول من يرحب بهذا الاتجاه الاشتراكي العصري مع رفض ما فيه من إلحاد وانحراف ومغالاة ، وأن نقدر البواعث عليه ، وأن نواجه الدعاة إليه بالتفهم والسعي إلى إفهامهم خطأهم في إنكار وجود الله وعدله ، وإلى إقامة حوار معهم ؛ لأننا أول من دعا إلى هذا الاتجاه باسم الدين ، وأول من نظمه وطبقه تطبيقاً ناجحاً معقولا ، وأول من دفع الحركة التاريخية إليه ، وأول من حماه بالقوة العسكرية من ارتداد المتحدين له ، وذلك في الحرب التي أعلنها الخليفة الأول أبو بكر على مانعي الزكاة التي كانوا يؤدونها لمحمد رسول الله .

فالدعوة إلى الاشتراكية المعاصرة هي في بعض جوانبها امتداد بأسلوب العصر لدعوة الاشتراكية الإسلامية الماضية التي أعلنت الإيمان بالإنسان الكلي وبالفرد وكرامته وقيمته ، وكفلت حقوقه الفكرية والمدنية والمالية والسياسية ، ودعت إلى تأمين حاجاته المادية التي تستأثر بشعوره وفكره ، وخاصة في أول دخوله للحياة وتفتح فهمه وتصوره للدين تبعاً لها ، وغرست في نفوس الجماهير الإيمان بالحق المعلوم للسائل والمحروم ، وأن « الفقر كاد أن يكون كفراً » وأن « جَهْد البلاء كثرة العيال مع قلة الشيء » ، وترجمت عن تطلعات المجتمع الإسلامي وغيظه من الفقر بلسان أحد خلفائه الراشدين من أهل بيت النبي هو (علي بن أبي طالب) بقوله : « لو كان الفقر رجلا لقتلته ! » وبلسان خليفة آخر هو (عمر بن الخطاب) في قوله : « لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء ورددتها على الفقراء ! » .

وما كان للإسلام وهو دين العقل والحكمة أن يفوته إدراك أن المسألة الاقتصادية حينما تختل أوضاعها وتفسد تكون كالأفعى* التي تنهش قلوب الأفراد والجماعات وتسممها وتمزقها بالصراعات ، وتردها إلى حياة الغابة والافتراس . وقد سبق بيان رأي القرآن في أن اختلالها هو العقبة المشئومة في طريق الإنسان .

(*) انظر فصل (المسألة الأفعوانية) من كتاب (أومن بالإنسان) للمؤلف .

لو كان الإسلام معروفاً لهم :

وبدون شك لو أن الفكرية (الأيدلوجية) الإسلامية فى الطبيعة والإنسان والخالق وفى المسألة الاقتصادية قد عرفت لدى واضعى «المادية الجدلية» ، ولو أن طريقتها المنطقية العلمية فى التوصل إلى الاستدلال على وجود إله الطبيعة وكمالاته وقيمة الإنسان ومصيره . . . ولو أن الاشتراكية الإسلامية ونظريتها فى أن المال مال الله لجميع خلقه ، وفى تحريم الربا والاحتكار والتحكم فى السلع وفى الملكية العامة والخاصة ، وفى قيمة العمل وشرفه وأنه الأصل فى قيم الأشياء والسلع ، وفى إزالة الفوارق المصطنعة بين الطبقات بالإخاء والمساواة ، وفى الإلزام بحق الفرد وحق الدولة وحكم الشورى ، وفى وجوب الكفاح لمقاومة المظالم وإقرار الحقوق وعدم الاستسلام والاستخذاء أمام الطغيان ، وفى الحرب والسلام والتعايش السلمى ، وفى التكافل الاجتماعى ، وفى التعاون فى نطاق الدولة وفى المحيط الدولى . . . أقول لو أن هذا كله كان معلوماً لواضعى المذهب الاشتراكى المنكر لوجود الله لغيروا من نظرتهم إلى الدين ومعاداتهم له ، وما وجدوا ضرورة لتخريب حياة التدين وشجبها باعتبار الدين فى زعمهم مهدراً للعقل ومخدراً للشعوب وصارفاً لجهادها وكفاحها لنيل حقوقها فى سعادة الأرض قبل سعادة السماء ، بل لاستعانوا بتلك المبادئ الإسلامية وتطبيقاتها التاريخية فى تأييد دعوتهم الاشتراكية ، بل لتبينوا أن الإسلام فى حرصه على حل مشكلة العيش كان دائماً حافزاً للطبقات المظلومة والكادحة على أن تأخذ حقوقها المقررة المعلومة ، لا مخدراً لها وصارفاً لهممها وكفاحها عن المطالبة بها وتحقيقها ولو بالقوة . . . بل لقد جعل الإسلام الفرد مسئولا عن استضعاف الأقوياء له ، وقد ربط نجاته من عذاب الآخرة ببراءته من أن يستسلم للظالمين ويمكنهم من إخضاعه وإهدار حقوقه ، وجعل الجماعة مسئولة عن ضياع أى فرد فيها كما جعل الفرد مسئولا عن الجماعة .

جهلوه فعادوه :

ولكن مع الأسف الشديد حين وجد واضعو (المادية الجدلية) والشيوعية أن العقل الدينى الذى احتكوا به منحرف عن الصواب فى حل مشكلتى الفكر والعيش ، وفى تصور الطبيعة والخالق والإنسان ، وأن الإله الذى تقدمه الكنيسة والمعبد فى

الغالب هو غير إله الطبيعة ، ظنوا من جهة أن الإسلام كغيره من الأديان التى احتكوا بها وخبَروها ، ولم يفطنوا من جهة أخرى إلى أن هذا الانحراف لا يرجع إلى طبيعة الدين ولكن إلى قصور رجاله والتصاق الجهلة والمتخلفين به ، وإلى تسخيره لذوى السلطان .

آفتهم تفريغ القلوب من الإيمان :

وكانت هذه الظروف التى أحاطت بواضعى (المادية الجدلية) سبباً فى أن تصاب الاشتراكية الملحدة بأشد آفاتها وهو إنكار وجود الإله الخالق وإنكار الدين جملة وتفصيلا تبعاً لذلك . وكان هذا من سوء حظ الإنسانية ومن أسباب زيادة شقائها وتطويل مراحل انتقالها إلى ما يجب أن تصير إليه وتعيش به من طمأنينة وسعادة نسبية تسمح بها طبيعة هذه الدنيا . . . لأن الشيوعية الملحدة قد أضافت بهذا إلى المذاهب الفكرية والأديان مذهباً أو ديناً آخر مجرداً من روح الكون وعقله ، قد زاد عدد الصراعات الموروثة بين المذاهب والآراء القديمة وضاعف من شقاء الإنسانية بالحروب بين الأمم الشيوعية والأمم الرأسمالية .

فالمادية الجدلية وتطبيقاتها فى الشيوعية ليست إلا ديناً جديداً وإن ظنت أنها ضد الأديان .

لو أعلنوا كفاحهم باسم الله :

ولو أن الاشتراكيين عموماً جاءوا إلى الناس عن طريق الدين الموروث ، وباسم الله العادل الرحيم الداعى إلى العدالة والتكافل والمساواة بين الناس ، وجعلوا شعارهم فى هذا العصر « الخبز والعدل للجميع بأمر الله ! » قبل أى شىء ، وحشدوا قواهم وعبأوا نشاطهم ليجعلوا هذا الشعار هو رسالة الدين كله فى هذا العصر . . . إذاً لاقتحموا بسرعة حصون الرأسمالية والاستغلال والإذلال ، ولأعلنوها حرباً مقدسة بكل إمكانات الدين وطاقاته الهائلة فى تعبئة القوى الروحية وإثارة الشجاعة والنخوة والفداء والبذل والإصرار والاستشهاد . . . ولدخلت الإنسانية كلها بذلك إلى عصرها الذهبى فى الحضارة الكاملة للروح والجسم .

حان اعترافهم بسبق الدين :

وقد صار لا يليق بالاشتراكيين المثقفين الملحدين أن ينكروا أن الدين كان أول مرسل لصوت الدعوة إلى العدالة بين الناس، وأول منظم لأدوات تنفيذها، واول مثير للشعور بالرحمة لبؤس البائسين، وللشعور بوجوب الانتصاف للمظلومين، وأول دافع إلى قمع شح النفس وإلى سخائها وإيثارها وإلى بذلها مالها طواعية وإلزامًا للمحتاجين . . . وكل أولئك من غير أن يصيب النفوس بأشد آفة من آفات الاشتراكية الملحدة وهو تفريغها من التفكير والاعتقاد فى الله الخالق وصرف جهودها كلها إلى التفكير فى هذه الحياة الدنيا وحدها مغلقة النوافذ الطبيعية التى فى العقل والقلب ليتطلعا منها إلى أهم مسألة يرى الإنسان أنه ما جاء إلى الحياة إلا من أجلها، وهى التعرف إلى سيد الكون والطمأنينة على مصير الإنسان ومصير الكون، لأن الإنسان عند نفسه أكبر وأعظم من أن يقصر حياته على التفكير فى حاجاته المادية ووجوده المؤقت هنا فحسب . . . إذ هو عند نفسه ليس حيوانًا سائمًا يقنع بملء بطنه واجترار طعامه ومتاعه المادى، ويرضى عن حياته إذا وجد المرعى حاضرًا . ودليل ذلك أن المترفين الذين يجدون كل ما تشتهى أنفسهم لا تنتهى رغباتهم عند حد، بل هم دائمًا يسأمون ويملُّون حاضر حياتهم ويتطلعون إلى غيره ويطلبون دائمًا غير ما يقتنون .

فِطْرةٌ دافعة ونَهَمٌ لا يشبع ونزوع نفس تسير دائمًا إلى المجهول سعيًا إلى أمر أعلى تحس وتشعر أنه فوق حياتها، وأنه سر وجودها وأنه أنسها الحقيقى وسط أهوال الحياة .

حل العقدة بقطعها عجز خطير :

وإذا كان من العجز ألا يجد الشيوعيون الملحدون حلا (لمشكلة العيش) إلا على منهج فهمهم فى وجوب تحطيم فكرة الإيمان بالله الخالق لأنهم وجدوا تناقضًا بينها وبين مقتضيات منهج فهمهم المذكور الذى شاءت الأقدار ألا يطلعوا قبل وضعه على الصورة الكاملة الجامعة فى الإسلام لحل « مشكلة العيش » وحل « مسألة الفكر والاعتقاد » . . . فإنه كذلك يكون عجزًا منا نحن المسلمين

وتقصيراً قبيحاً الا نقدم لهم الصورة التى فى أذهاننا من حلول هذه المشكلات والتناقضات ، وهم عندنا كما سبق الفرض طلاب حق لمصلحة الإنسانية وليسوا متعنتين متعصبين لرأى إذا ما ظهر بطلانه .

وإن عجز الشيوعية عن أن تحل « عقدة » الفكر والدين إلا « بقطعها » على طريقتها الخاصة فى « المادية الجدلية » التى تنكر الثنائية فى الكون بين الإله الخالق وبين الطبيعة ، ولا ترى غير المادة إلهاً خالقا ومألُوهاً مخلوقًا فى وقت واحد . . . هو لا شك عجز خطير ارتد بها إلى ما يشبه عصر عبادة الإنسان البدائى للقوى الطبيعية عبادة مباشرة ، وانحط عن الأفق الأعلى الذى ارتقى إليه العقل الإنسانى ورآى من قممه الأبعاد الفسيحة لنفسه وللكون مع رؤية الله والملأ الأعلى . . . تلك الرؤية الممثلة فى ذلك القول العظيم للقرآن :

(شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لا إلهَ إلا هُوَ ، والملائكةُ وأُولُو العِلْم ، قائمًابالقِسْطِ. لا إلَهَ إلا هُوَ العزيزُ الحكيمُ) .

وبهذا القول جعل القرآن شهادة العقل البشرى أحد معايير الإثبات واليقين مع شهادة الله والملأ الأعلى على الحقيقة العظمى وقضية الكون الكبرى قضية الإله ووحدانيته وعزته وقوته وحكمته البالغة ورحمته الغامرة وعدالته فى إقامة الوجود بالقسطاس المستقيم .

وقد أثار ذلك العجز الخطير على الشيوعية الملحدة عداوات جميع النفوس المستعلية التى لا ترى أن إشباع الضرورات المادية يستحق أن يكون سبباً فى إهدار الحاجات الفكرية والروحية التى تجعلها تحس بتفردها وامتيازها بين الكائنات الأخرى ، وترضى ويطيب خاطرها أن تخرج عن كل المتاع المادى بل عن الحياة ذاتها تضحية واستشهاداً فى سبيل تلك المعانى العليا التى تيّمت قلبها وملكت فؤادها قديماً وحديثًا ! !

نبعٌ من روح الكون فى جفاف المادة :

ومن أين للنفس الإنسانية الإحساس بهذه المعانى العليا ؟ من أين لها هذا السمو والتطلع إلى معانى الحق والشرف والجمال وجميع المثل العليا ليكون لها هذا الولوع والتّوله فى هواها حتى الموت ؟ هل كل أولئك إلا من نبع روح الكون

وسيده الذى وضع الفكر والخيال والضمير فى بناء الكائن الإنسانى ليتلقى بها فيض ذلك النبع الأعلى من الدين والعلم والفن ، ويعيش به ويتذوقه وسط ذلك الجفاف المادى ويأتنس برحمته وصداقته وسط القوى الطبيعية الجبارة العمياء البكماء الصماء . . . ويرى يده تمتد إليه بين هذا الجبروت لتمسح على قلبه بالطمأنينة والإدراك والفهم لما يحيط به من ألغاز الكون ؟ ! إن عقل الكون وسيده كالقطب المغناطيسى ، تتجه إليه العقول والقلوب كما تتجه إبر البوصلات إلى ذلك القطب . . .

هل يباع الذهب بالتراب ؟ !

وبعد ، فخلاصة القول : إنه يحق للشيوعيين أن يجادلوا ويفلسفوا ما شاء لهم الجدل والرأى والكفاح لحل « مشكلة العيش » على أية صورة ترضاها الجماعات البشرية باختيارها مهتدية بتجاربها لتحقيق العدالة وضمان زيادة الإنتاج واطراد التقدم . . . فذلك لهم ولا لوم عليهم فيه ولا عداء لهم من أجله إلا من الطغاة والمستغلين . . وقد سبقهم الإسلام إلى هذا الاتجاه بأمر الله وبكفاح مرير وتشريع كامل وتنظيم دقيق للزكاة فى جميع الأموال .

ولكن أولى بهم وأنجح لمساعيهم التقدمية وأقرب إلى إيمانهم بالإنسان وأسرع فى وصولهم لهدفهم ، أن يعترفوا بالحقيقة العقلية الفطرية الكبرى وهى الإيمان بالله الخالق كما تصفه الطبيعة ويتحدث عنه العلم والقرآن ، وبامتداد الحياة معه فى دار الجزاء العادل والكمال المطلق والدوام الأبدى . . . فإن ذلك الإيمان هو اللائق المتسق مع وضع الإنسان الجديد وعلمه وقدرته ومكانته فى الكون ، وهو الثراء الأعظم للإنسان .

ولا شىء غيره يستطيع أن يعطيه الطمأنينة والسعادة ولو كان ملء الأرض متاعاً . . .

أما أن يملأوا بطنه وجيبه ويفرغوا روحه وقلبه . . . فذلك ضَياعٌ وصفقة خاسرة ، فيها بيع للذهب بالتراب ، وللنور بالظلمات . . . !

ظهور الاشتراكية العربية فى المجال الدولى

« إن الجماهير المسلمة من جماهير الأمة »
« العربية ، وهى الأغلبية العظمى على الأرض »
«العربية ، تعتز كل الاعتزاز بدينها ، وتتشرف »
«بالانتساب إليه ، وتتمسك برسالته مؤمنة ، وبحق ، »
« أنها دعوة إنسانية ومساواة وسلام » .

من خطاب للرئيس جمال عبد الناصر فى حفل أقيم للرئيس السوفييتى (كوسجين) بالقاهرة فى يوم ١٠ مايو سنة ١٩٦٦ .

إن ظهور الاشتراكية العربية بأسسها الفكرية الإنسانية ومنهجها العملى المتمثل فى « ميثاق العمل الوطنى » وفى التطبيقات الاشتراكية المعتدلة ، وسط معترك الآراء والمذاهب المعاصرة التى تتجاذب عقول الناس ويحاول كل منها أن يسيطر عليها ، ربما يكون فيه للناس تأويل للأمر العظيم الذى هم فيه مختلفون . . . ألا وهو حل مشكلتى العيش والفكر !

والمكان الذى تنبثق منه الاشتراكية العربية ــ الشرق الأدنى ــ مرشح دائمًا على مدى التاريخ لأن ينبثق منه الحل الذى تلتقى فيه عناصر الآراء والمذاهب المغالية المتطرفة وتختلط وتتفاعل ويتهافت منها ما ليس صالحًا للبقاء ، ويمكث فى الأرض ما هو صالح للدوام والاستمرار ، ويخرج من ذلك كله الرأى المتعادل المتوازن الذى يرضى جميع الأطراف لأن فيه أحسن ما عند جميع الأطراف . . .

ويدرك الراصدون للحياة الشاعرون بوقع خطرات سيرها بالناس ، المستقبلون لإرهاصاتها بما فى أعصابهم من أجهزة للاستقبال ، أن ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ونتائجها قد هيأت الأشخاص والظروف والأحداث والمناسبات لتجمع الأنظار على هذه المنطقة التى تنبثق منها الاشتراكية العربية بآرائها المعتدلة فى السياسة والاقتصاد والفكر !

وقد دفعت الأقدار إلينا أحداثاً عظمى ومذاهب كبرى وجعلتها تضطرب وتتصادم حول ديارنا وعقائدنا ، وصرنا مسوقين إلى معركة فاصلة فى تاريخنا بل فى تاريخ الإنسانية كلها .

أجل لقد تحول موقفنا السياسى والفكرى بين الشرق والغرب فى هذه الأيام إلى إرهاصات رسالة عالمية ينشدها ضمير الإنسانية ويتمنى عمومها رواد السلام والحرية والعدالة فى عصر الذرة عصر القدرة والخطر فى مجالات التكوين والتخريب والانطلاق فى الفضاء الكونى . . . فنحن رواد حق وإيمان وعدالة وحرية وسلام وتقدم لجميع الأمم ، وقد مضينا إلى هذه المطالب الإنسانية ، فاعتنقنا الحياد وعدم الانحياز والبعد عن مناطق التأثير وتغليب فريق على فريق والدعوة إلى السلام فى عصر القدرة الإنسانية وأخطارها .

ويريد منا هذا الموقف الفاصل أن نعيه حق الوعى ونعبئ له قوانا وإمكاناتنا الفكرية والمادية ، ونتجرد له بكل عزائمنا ، ونذهب إليه فى تفان واستشهاد وتفهم أنها معركة مفروضة علينا ، تختارنا الأقدار لخوض مثلها فى الساعات الفاصلة على مدى أدوار التاريخ .

وقبل المضى إلى هذه المعركة ينبغى أن نختبر أسلحتنا ونبلو ما عندنا من الرأى ، لنرى مدى ما ينطوى عليه من صلاحية ، ثم نجلوه للشرقيين والغربيين ليروا أننا لسنا متعصبين ولا جاهلين ولا متخلفين حين نأبى أن نسير وراءهم فى الأودية إلى سلكوها معتسفين .

وقد كانت الاشتراكية العربية عند كثيرين من الناس عنواناً غامضاً مختلطاً بظلال من المذاهب الاشتراكية الأخرى ، بل إنها كانت متهمة لدى بعض الأوساط اليمينية هنا وهناك بأنها ضالعة مع الشيوعية المادية . وكلما زادت العلاقات والصداقات الفنية والاقتصادية والعلمية بين الجمهورية العربية المتحدة والاتحاد السوفييتى ، زاد اتهام تلك الأوساط وظنت أن الاشتراكية العربية قد تورطت فى تلك الصداقات ولن تستطيع الاحتفاظ طويلا باستقلالها ورأيها ، ولا تلبث أن تأخذها الشيوعية بشباكها . . .

وأول ما بدا من ظهور الاشتراكية العربية وتميزها واستقلالها ويقظتها ، كان

عندانحراف الثورة العراقية تحت تأثيرعملاء الشيوعية فى عهد (عبد الكريم قاسم) عن خط الأيدلوجية العربية العامة التىتحتفظ دائماً بعناصر الاعتدال والإيمان بالله وبالإنسانية وحرياتها وشرف الضمير والإحساس برحم الحياة بين أبناء الحياة . . . وعدم القسوة على المخالفين ، وعدم تقليد الغير فى الشر تقليد القرود والببغاوات كما وقع فى العراق حينئذاك . . . مما جعل الاشتراكية العربية تهتز أعماقها اهتزازاً ، غضباً وإنكاراً لما بدا من انحرافات دموية وفكرية شنيعة فى الثورة العراقية . . .

وكان من آثار هذا الانحراف أن بدأ الاشتباك الجدلى بين الاشتراكية العربية وبين عملاء الشيوعية ، وكان ذلك أول محك لأصالة الاشتراكية العربية وأول ظهور لمعالم استقلالها الفكرى والمنهجى .

وقد أشفق كثيرون عليها من هذا الاشتباك الجدلى حينذاك قبل أن تتبلور نظرياتها وتتضح معالمها حتى لدى كثيرين من العرب أنفسهم . . . ولكن تبين أن الأقدار أعظم شفقة على الاشتراكية العربية حيث اختارت الزمان والمكان المناسبين لمعاركها مع قوى الإسراف والتطرف ، إذ أن عملاء الشيوعية لم يُبْدوا مقاتلهم للطاعنين ولم يكشفوا عن شناعاتهم وما يستكن فى أعماقهم من الوحشية ، كما أبدوها فى العراق! فكان ذلك من أعظم أخطائهم فى فهم الوعى القومى العربى وهو فى قمة انتباهه ولهفته على مصيره فى العراق . . .

وقد ضيعوا على موسكو بذلك كثيراً من مكاسبها الجمة التى كسبتها فى العالم العربى والعالمين الأفريقى والآسيوى منذ تسليح الجمهورية العربية المتحدة وإمدادها بالمعونات الفنية والقروض والخبرات بدون قيد أو شرط ، وقد شاركتهم موسكو فى ذلك الخطأ ، إذلم تحسب حساب وقع أفاعيلهم وشناعاتهم وقسوتهم وتنكيلهم فى القلب العربى بجميع طبقاته وثقافاته . . . فكان أن صدم الجميع وارتسمت فى أذهانهم صور عن طبيعة السلوك الشيوعى والتفكير الشيوعى ، وخاب ظنهم فى دعاوى القوم بأنهم إنسانيون يحترمون الحريات ويطلبون العدالة ويمدون أيديهم للعرب بالمساعدات مع التقدير والفهم لطباعهم وأخلاقهم ومع عدم التطلع إلى السيطرة عليهم كما قال (شبيلوف) فى خطابه بمصر بقرية (برنشت) عند بدء نشوء علاقات الصداقة الروسية العربية .

وكانوا يصرون على تكرار الأخطاء حين يطلقون أجهزة الدعاية الشيوعية تشن حملتها على الجمهورية العربية المتحدة والاشتراكية العربية مستندين إلى أخطاء فى التقدير لجرائم الخارجين على الولاء لأمتهم المتآمرين على وطنهم، مهما كانوا على صواب فى آرائهم .

غير أن هذه الأخطاء كانت فرصة للاشتراكية العربية لتؤكد استقلالها وتنفى عن نفسها تهمة التبعية ولتجدد تحذيرها للمتلمسين سبيلا إلى الغدر بها ونقض عهدهم معها باحترام حريتها واختيارها فى تشكيل حياتها كما تريد .

ولعل من التفاؤل الواجب أن نظن أن احتكاك الشيوعية بالاشتراكية العربية سيفيد الأولى ويعدل من تطرفها ويردها إلى فهم الأسس الإنسانية التى لا غناء فى أى نظام لم يقم عليها ، إذا ما تفتحت لقبول الصواب من تجارب الغير ولم تتعصب وتتقوقع وتغلق على نفسها المنافذ فلا تنتفع بجهود الغير ، لأن الاشتراكية العربية قد تفتحت لقبول كل ما هو حق وصالح من المذاهب والآراء لدى جميع الأمم والشعوب ، ورأت على الطبيعة المعركة الدائرة بين الشيوعية والرأسمالية منذ أكثر من خمسين سنة ، وتبينت أخطاء الطرفين والثغرات التى فى بنائيهما ، وهى عازمة أن تمضى مع كل حق وصواب إلى آخر المدى الذى تسمح به معايير الصدق فى الفكر .

وربما تكون الاشتراكية العربية آخر نماذج التفكير الإنسانى المهتدى إلى حل مشكلات الفكر والعيش والاعتقاد والسياسة ، المعترف بوحدة الإنسانية كلها برغم اختلاف أنواعها وألسنتها ، والآخذ منها كلها .

فنحن لسنا متخلفين عنهم كما يتوهمون ، وكما عبر الرئيس خروشوف فى حديثه إلى وفد مجلس الأمة بالجمهورية العربية المتحدة ، وإنما نحن أكثر تحرراً من أن نسجن أنفسنا وعقولنا فى تفكير معين سواء كان وافداً إلينا من الخارج أم ناجماً من بيئتنا وحياتنا . ونحن نحرص دائماً على أن نُطيف بكل منابع الفكر ومصابه ، لنرى هل من جديد يأتى به قانون الصيرورة والتطور . . .

تلك طبيعتنا الأبدية اكتسبناها من موقع وطننا الكبير المتوسط بين مواطن الأمم والشعوب ، ومن مخالطتنا لهم جميعاً فى تفتح وقابلية للأخذ والعطاء ، ومن طبيعة

ثقافتنا المتعددة الجوانب المستمدة من كل ثقافات العالم .

أما الثقافة الشيوعية مثلا فى روسيا فإنها مفروضة مغلقة مقطوعة عن روافد الثقافات الأخرى . . . فأهلها معذورون حينما يصدرون فى تفكيرهم عن نمط واحد لا يسمح برؤية غير الآفاق الفكرية الروسية ، ولذلك صاروا يمثلون طرفاً أقصى بحكم عزلتهم الجغرافية والفكرية .

وأود أن أذكر أن اعتزازنا بمذهبنا واشتراكيتنا لا يمنعنا من الاحترام والتقدير للجهود الجبارة المتواصلة مدى خمسين سنة ، التى بذلها الشيوعيون فى هذا القرن ليجعلوا شعاره وبناءه الاجتماعى والاقتصادى والسياسى قائماً على إنصاف الطبقة العاملة ، وهى الكثرة ، وعلى دفعها إلى المشاركة فى الحكم مشاركة تمثل دورها الحقيقى فى واقع الحياة .

والحق أنهم استطاعوا أن يملأوا الدنيا ويشغلوا الناس وأن يطبعوا هذا العصر بطابع التفكير الاشتراكى على تفاوت فى درجاته ، وأن يحطموا كثيراً من الأشكال الاقتصادية والسياسية الظالمة ، وأن يتركوا فى الأرض فى هذه الحقبة « ديناً » مادياً استطاع أن يستبد بكثير من قلوب البشر وعقولهم ويجندهم له ويحملهم على الاستشهاد فى سبيله بحرارة وإصرار . .

ولسنا نبحث الآن هنا هل هم على صواب أم على خطأ . . . وهل تستمر وتدوم آثار مذهبهم كما دامت آثار الأديان ؟ فلذلك بحثه المستقل فى بعض فصول هذا الكتاب .

والحق كذلك أن مذاهب الفكر والسياسة والاجتماع والاقتصاد لم تتأثر فى هذا العصر فى كل الأمم بمذهب من مذاهب العمل والجدل مثل ما تأثرت بالشيوعية المادية . . . مما جعل التفكير المادى يغزو جميع برامج الأحزاب والمدارس والدعوات والجماعات .

وحسبها أنها كونت من أمم الأرض أحد المعسكرين الكبيرين اللذين يقتسمان النفوذ فى العالم ويتصارعان على امتلاك قياده .

ولسنا نوافق على أن نجعل فى ميزان التقدير للشيوعية ما فاخر به الرئيس خروشوف وجعله عنوان امتيازها على غيرها ، وهو السبق العلمى فى ميدان غزو الفضاء والصواريخ

والأسلحة الذرية . . . وفى بعض ميادين الإنتاج . . . فإن هناك عوامل أخرى مرحلية وقتية لا صلة لها بالتفكير الشيوعى هى التى أنتجت ذلك السبق . . .

وحسبنا فى إحباط قيمة ما يستشهد به خروشوف أن نذكر أن هذا السبق الروسى وليد ست سنوات أو عشر على الأكثر حينما فاخر خروشوف ، وأن سببه الأكبر هو غفلة طارئة من المعسكر الآخر عن طبيعة السباق على الكشوف العلمية وتقلبه بين لحظة وأخرى ، مما قد يغير ميزان القوى فجأة ، وأنه لا صلة له بالتفكير الشيوعى أو الرأسمالى . . . وإلا لكان الحكم على نظم روسيا ليس فى صالحها ولا فى صالح نظرياتها قبل نحو اثنتين وعشرين سنة ، لأن فى سبق الولايات المتحدة إلى تفجير القنبلة الذرية الأولى شهادة ، باعتراف خروشوف ، بسبق التفكير الرأسمالى . . .

فلندَعْ إذن المفاخرة بالسبق فى هذا المجال ، فإنها مردودة من وجوه كثيرة كما لا يخفى .

وبعد ، فإننا ندرك بصدق وتحرر من كل تعصب وكل قيد ، أن ما عندنا من اتجاهات أصيلة قديمة وحديثة لحل مشكلات الفكر والاعتقاد والعيش وإنصاف الطبقة الكادحة وغيرها من القوى العاملة التى تُكَوِّن تحالف قوى الشعب ، أعظم امتيازاً مما عند الاشتراكيات الأخرى وأسرع تأثيراً فى جمع الناس على العدالة وأسباب السلام . . . بالإضافة إلى أننا لم نجتث الإنسان فى نظريتنا العربية الإسلامية من تاريخه النفسى والعقائدى وتاريخه الحضارى المطرد ، ولم نحاول أن نقمع غريزة قوية من غرائزه الدافعة إلى غزارة الإنتاج وكثرة الإنشاء والتعمير .

ونحن لسنا غافلين عما يحرزه الركب الإنسانى عموماً من تقدم علمى عظيم . . . ولكننا ندرك « بالانبعاثات الخاصة » لمنطقتنا — كما عبر الزعيم الرئيس جمال عبد الناصر فى خطابه عند ما وطئت قدماه لأول مرة أرض روسيا ، رداً على خطاب ترحيب المارشال فورشيلوف — أموراً لا يمكن للإنسان أن يحيا حياته كاملة إلا بها . . ونرثى للذين يغلقون عقولهم ونفوسهم دون إشعاعاتها . . ونعجب كيف يهمل الإنسان الملحد إحساسه المؤلم بالفراغات النفسية الناشئة من عدم طمأنينته على مصيره ومصير الكون كله ، مهما ضمن حل مشكلة عيشه المادى هنا فى الدنيا ! !

ونعتقد أنه لولا شدة دوران عجلة الزمان بالملحدين — شيوعيين ورأسماليين — دوراناً متلاحقاً لا تريث فيه ولا توقف فى معترك الإنتاج والعمل والصراع ، واستغراق كل تفكيرهم وجهدهم فى ذلك ، لأحسوا بهذا الفراغ النفسى حينما يتطلعون إلى السماوات العليا ، وإلى فضاء النفس البشرية الذى لم يَعْبُرُوه كما عَبَرُوا الفضاء الكونى !

أجل، لا بد من عبور فضاء النفس للوصول إلى الإدراك الشامل والرؤية الواضحة التى تنتظم الكون كله . . . وإلا تحولنا إلى آلات كالصواريخ تفعل العظائم ولا تتذوقها بعقل أو ضمير أو وجدان أو أشواق !!

ويبدو أن الإنسان الشيوعى المتطرف قد أدى دوره الذى أحدث تغييراً كبيراً سريعاً لدى جميع الشعوب فى ميزان الاعتراف والتقدير للطبقة الكادحة والطبقات المظلومة بوجه عام .

ويخيل إلى أن هذا الدور قد انتهى إلى أن يلتقطه ضمير الاشتراكية العربية الإسلامية العريقة فى هذا المجال ليزاوجه بالاعتدال وعدم التطرف وبالإيمان بالله ورسالاته ، وليدفعه بالحماس الدينى الذى هو (العنصر الفعال) فى تفجير الطاقات الإنسانية الروحية الهائلة التى يمتاز إنسان الشرق الأدنى بأنه يحملها من قديم . وهذا (العنصر الفعال) هو عَقْد الصلة الوثيقة بين العمل فى الأرض ونتائجه فى السماء فى يوم الجزاء . . . وهو سر الكلمة التاريخية الفاصلة التى جعلناها فى صدر هذا الفصل .

البعد الأول
بين الكون والخالق

١ ـ مادية علمية ربانية

٢ ـ عظمة البناء المادى للكون

٣ ـ أصل الأصول لدى الفكر الإسلامى .

٤ ـ القرآن القائد إلى فهم أعماق الكون .

٥ ـ سقوط تأليه الطبيعة .

٦ ـ الباب الواسع .

مادية علمية ربانية

من أسلحتنا التى ينبغى أن نستعملها فى المعركة الفكرية المعاصرة أن نبين أننا نعتنق نفس المذهب العلمى المادى الذى تقوم عليه الحضارة العلمية الحالية ، والذى تفتتن به المادية الإلحادية الشرقية والغربية ، لأن ذلك المذهب هو الدعامة الكبرى لديننا ، ولأنه أستاذ عقولنا ، وباب معرفة ربنا ، ودليلنا الهادى الذى يسوقه القرآن أمامنا فى بحثنا عن الله وأسراره وصفاته وعن علاقتنا نحن البشر به وبالكون المادى .

فالعلم عندنا دين ، وماديتنا « ربانية » مؤسسة على الإيمان «بالكائن الأكبر» الذى خلق الكون ويَعْمُره ويُديره ، ويُدَبّره وينسق جزئياته وكلياته ، ويجعل القانون الذى يسيّر الذرة الصغيرة فى الأرض هو نفس القانون الذى يسير المَجَرَّات الكبيرة فى السماء ذات ملايين الملايين من النجوم والأثقال والأبعاد والأسرار . . !

وماديتنا تجعلنا نقف على أساس ثابت مكين من الإيمان بالله والإيمان بالإنسان وقدرته على العلم والعمل لتسخير الطبيعة واختراق سدودها واقتحام أسوارها والحكم عليها حكماً علمياً مبنياً على المشاهدة والتجربة واليقين لا على أوهام الأمم وشطحات الشعوب وتهويماتها . . .

وربانيتنا تعقد بين النفس الفردية وذلك « الكائن الأكبر الخالق » أوثق الصلات من الرحمة والحب والصداقة والتجاوب والتفاهم ، فتملأ فراغها بالطمأنينة على مكانها فى الكون خلال الحياة الدنيا ، وعلى مصيرها فيه بعد الموت .

والصورة الفكرية لدينا عن « الكائن الخالق » صورة علمية مستمدة ألوانها وأصباغها من كلماته التى لا عدد لها فى الطبيعة ، إذ أن الطبيعة فى رأينا هى كتابه الصامت المكتوب بالأعمال والقوانين والبدائع ، وقرآننا هو كتابه الناطق المترجم عما فى ذلك الكتاب الصامت ، فلا يناقض ما فى الطبيعة ولا يكذبها . . . وليس فى العلم للآن حقيقة واحدة ثابتة تناقض ما ورد فى القرآن من نصوص فى خلق الكون والنفس والحياة . . . كما يقول : (قلْ أنزله الذى يَعلمُ السِّرَّ فى السموات

والأرض) ،(تنزيلًا مِمَّن خَلَق الأَرْضَ والسموات العُلَا) . فمن أين يأتى التناقض ؟ ومن أين يأتى التفاوت ومنزل الكتاب هو خالق الطبيعة ؟ !

والقرآن لم يتحدث عن ذات الله وكنهه ، وإنما تحدث عنه بصفاته المستنبطة من صنعه فى الطبيعة ، تمامًا كأسلوب العلم المبنى على الحس والتجربة فى وصفه الأشياء والكائنات واستنباط قوانينها وخصائصها .

فالله هو الحقيقة الفكرية الكبرى الأولى التى يستنتجها العقل من الطبيعة ويرتاح بالوصول إليها من ألم الفراغ والشك والجحود والإنكار .

ويترتب على إنكار هذه الحقيقة مشكلات فكرية وهموم ذهنية عدة لا تقاس بها المشكلات التى يثيرها بعض العقول المنحرفة حول إثبات تلك الحقيقة .

أجل إن إنكار الخالق يثير مشكلات لا عدد لها ! ولا يستقيم المنطق بها ، وتشعر النفس مع الإنكار بألم الفراغ الهائل فى الكون ، والضياع بين جبروت القوى العمياء الصماء الخرساء فى الطبيعة ، وفقدان الأمل فى أى شىء ، وجهل المصير فى ظلمات الكون .

والذين يخالطون الماديين الملحدين يعلمون منهم أنهم يشعرون بذلك الفراغ القاتل ، وفقدان الآمال والمعانى المسعدة التى يجدها المؤمنون حتى ولو لم تحل عندهم « مشكلة العيش » التى استأثرت باهتمام الإلحاديين .

فحل مشكلة العيش فى هذه الدنيا ليس كل شىء فى حياة الإنسان ذى الفكر الطليق والقلب العميق والنظر المتوثب المتطلع إلى ما وراء حدود العيش فى هذه الحياة .

وإننى دائمًا أتصور ، فرضًا ، أننا جميعًا فرغنا من هموم العيش المادى ، ويسرت لنا وسائله من الطعام واللباس والسكن والمتاع والصحة والعلم والعمل والمال والبنين والحرية والكرامة والأمن إلى آخر وسائل الحياة المادية . . . فهل نكون بذلك قد فرغنا من كل مطالبنا ورغباتنا ؟ وآمالنا ، هل تتحقق بذلك طمأنينتنا وسعادتنا ومقاصد نفوسنا فى الحياة . ؟

أقول : لا . . . وأعتقد أننى أعبر بها عن الفكر البشرى ذى الأشواق والأخيلة والحريات غير النهائية . . . الفكر الذى لا يجد فى تحقيق كل الوسائل المادية

المذكورة سابقاً أية إجابة على سؤاله الخالد من أين ؟ وإلى أين ؟ ومن نحن ؟ وما هو هذا الكون الكبير ؟ ولمن ملكه وملكوت كل شيء فيه ؟ ومن وراءه ؟ وما مصيره ؟ ما هو مصير النفس ومصير العلم والقدرة والصحة والغنى فيه ؟ أهو قبض ريح ؟ أهو خيال حالم فلا حقيقة له ؟ أهو عبث لا حكمة وراءه ؟ أهو باطل لا حق فيه ؟ أنحن حيوانات تحيا بالجسد وحده ، وكل مطالبها هو الرعى والسوم والشهوة ، ثم تمضى إلى الفناء بدون غد ؟! أنحن البشر كأسراب الطير والسمك والذباب أو كقطعان البقر والغنم ، أو كأهراء الحبوب وهبوات الذرات والقش ، « مليارات » تأتى ثم تذهب ، ثم يأتى مثلها فى دورات أبدية لا نهائية ؟ إذاً فما هى الغايات من خلق هذا الكون الكبير الذى تعمره الحكمة البالغة ، وتتجلى فيه الصنعة الرائعة ، وتحكمه القوانين الدقيقة الصارمة ، وتسوقه وتنسقه عصا حازمة ، وتمسكه من الزوال يد قادرة قاهرة ، وتترقرق فيه رحمة واسعة غامرة ؟ ما سره الخفى ؟ ما نبؤه العظيم لدى الفكر العظيم والقلب الكبير ؟

ولا شك أن ما وراء هذا التساؤل هو القيمة الحقيقية للإنسان* ، والوضع الأصيل له فى الطبيعة ، وأنه ما دام يتطلع إلى الإجابة على هذا التساؤل فلن تغنيه الوسائل المادية ولا حل مشكلة العيش هنا وحدها ، لأن مطلبه الحقيقى هو الطمأنينة على وضع هذا الكون العظيم وفهم غاياته ، وعلى وضعه هو ومصيره فيه . وإن فراغه من البحث عن وسائل عيشه المادى بعد تيسره له جدير أن يحمله على زيادة التساؤل عن هذا المطلب الأسمى الذى دوّخ فكره وشغل قلبه وأنتج أحسن ما عنده ، وهو الدين والفن والعلم .

وقد كان كدحه لتوفير وسائل عيشه المادى هو الذى عوق جهده وعطل سيره عن مطلبه الأسمى ونبئه العظيم وسره الكبير الذى ما خلق إلا من أجله .

وعلى هذا ، فالذى يجب أن يعنينا فى هذا المقام من المادية الإلحادية التى يقوم عليها بعض المذاهب المعاصرة من الناحية الفلسفية هو إنكارها وجود الخالق ، لأن حل « مشكلة الفكر والاعتقاد » ينبغى أن يكون أهم من حل « مشكلة العيش » إذ أن الأولى تتعلق بها قيم الإنسانية وحياتها الدنيوية والأبدية التى تشعر أنها خلقت

(*) انظر (أومن بالإنسان) للمؤلف .

لها ، والتى تبعد بها عن أفق السوائم والحيوانات التى لا يهمها إلا تأمين الحاجات الموقوتة المحدودة ، غافلة عن حاجات النفس الإنسانية وأشواقها العليا وبحثها عن الطمأنينة على مصيرها فى الكون وعلاقتها بخالقه الأكبر وسره الأعظم ، وخاصة بعد أن تبين للإنسان أنه عامل عظيم من عوامل التكوين والتخريب والانطلاق بين أجواز الفضاء الكونى ، لا فى الأرض وحدها .

فليؤمن الناس بالخالق الواحد على الصورة العلمية أو القرآنية ، ليحلوا بذلك الإيمان « مشكلة الفكر والاعتقاد » ثم ليذهبوا فى حل مشكلة العيش فى الأرض وإقامة العدالة الاجتماعية بينهم أى مذهب يرتضونه ما داموا يختارونه بطرق بعيدة عن الإرهاب والإكراه والإهدار لقيم الحرية الإنسانية .

عظمة البناء المادى للكون

المادية المحمودة والمادية المذمومة ــ عظمة البناء المادى للكون ــ تحويل المادة إلى روح ــ المادة مكان لقاء أيدينا بيد الله ــ إلى اقتحام سور الوهم القديم أيها المسلمون ــ إلى نقطة البدء والانطلاق ــ المذهب المادى يجتاح التفكير الإنسانى ــ علامات على الطريق إلى الله .

أسارع فأجرد كلمة المادية من المعنى المذموم الذى وقر فى أذهان الناس وصارت له مدلولات منفرة وسمات مقبوحة فى مجالات الفكر والأخلاق . . والمعنى المذموم المقبوح فى المادية هو ألا يؤمن عقل الإنسان بوجود شيء وراء البناء المادى للكون . . أو أن يتهالك طبع الإنسان على حب الأشياء المادية واقتنائها والاستئثار بمنافعها تهالكاً ينسى فيه الواجب والشرف والمروءة والأخوة ، وتستبد به شهواته ونوازع نفسه ، وينسى أن وراء هذه الحياة حياة أخرى ، إذا فاته شيء من متاع الأولى صار إلى عوض منه فى الثانية ، فيجب لذلك أن يكون صبوراً حمولاً عيوفاً لا يطمع ولا يجزع ولا يسف ولا يذل الحرص عنقه .

أما المادية المحمودة فهى التى تحتفل بصنع الخالق فى البناء المادى للكون ، وتكشف عن أسرار ذلك البناء وقوانينه وقواه الآلية وتنتفع بتسخيرها وترى يد الخالق فيه ، وتعلم أن الأشياء المادية هى أبجديات الحقائق العقلية الممهدة لإدراك الحقائق الروحية والقيم العليا التى وراء المادة .

والمادية المحمودة كذلك هى التى إذا اقتنت الأموال جعلتها وسيلة لا غاية ، وأداة لتحقيق المعانى الكريمة والمحامد الخلقية ، وتشعر أنها مالكة للمال لا مملوكة له ، وأنه فى يدها وليس فى قلبها ، ولا تهدر فى سبيل اقتنائه شرف النفس ومروءة الطبع وسماحة الخلق وحقوق الغير ، بل تؤثر وتقدم على نفسها ، ولا تستغرق الحس والإدراك وطاقة العمل فى المادة والتفكير فيها ، بل تجمع إلى ذلك تطلع النفس إلى المثل العليا واحتفالها بما وراء الطبيعة .

تلك هى المادية المحمودة التى يطلبها العقل والخلق الإسلاميان ، وهى أساس سعادة الكائن البشرى باتساقه مع منطق الكون ومنطق القرآن .

فينبغى ألا تكون المادة وعلاقاتنا بها شيئاً تافهاً لا يستحق الوقوف عنده بالفكر طويلا والتأمل فيه كثيراً كما يرى المتبرمون العازفون المتشائمون . . . وألا تكون هى الأمر الوحيد الذى نقف عنده غافلين عما وراءه من قيم ومثل يدركها العقل بأشواقه وتطلعه إلى الكمالات كما يفعل الماديون المغلقون المتكالبون .

ونُعيد القول مرة ثانية لنؤكد أن الماديات هى أبجديات ومفردات وكلمات تكون تجاربنا الحسية وتنتج الحقائق العقلية التى لولاها ما أدركنا شيئاً من الحقائق الروحية والقيم العليا التى وراء المادة .

وينبغى أن تتحول المادة فى عقولنا وأذواقنا إلى روح شفيف . . . وذلك حين تتحول لدينا إلى أداة دهشة وعجب وتفكير وبذل وتضحية وعبادة دائمة . . . غير أنها تحتاج حينئذ إلى علم غزير وفقه كبير بأسرار الله فيها .

وعلى هذا ينبغى ألا يضيق بها المتدينون وألا يذموها ويروها أقفالا ومغاليق على بصائرهم فيحاولوا الانسلاخ من منطقها وسننها وقوانينها الصارمة بالأحلام والأوهام والشطحات ، لأن الأعاجيب التى أودعها الخالق فى البناء المادى للكون لا عدد لها ولا حصر ، وهى تفوق بكثير عدد الأعاجيب التى قد يلمحها بعض العقول فى عالم ما وراء المادة . ولا يفرغ العقل والقلب فى أية لحظة من لحظات وعيهما من شعاع يسقط على عدستهما من أى أفق من آفاق المادة ، فيثير انتباههما وعجبهما وعبادتهما .

وطبيعى أن الإسلام لا يرى رأى هؤلاء المتشائمين المتبرمين بالمادة ، بل يدعو كما بينا إلى الاحتفاء بها وتعمق أسرارها ودراسة ظواهرها وتسخير قواها فى النفع العام وإلى أن يرى الإنسان يد الله فى كل شىء منها ... وبذلك تتحول المادة كما قلنا أمام إدراك الإنسان وذوقه الوجدانى إلى روح شفيف وسر لطيف يطالعه فى كل لمحة عين وخطرة ذهن وخَلْجة حس ، بآية من آيات الله وكلمة من كلماته تشير إليه وتدل عليه وتوجه القلب والفكر واللسان إلى قدس أقداسه فتمتلىء بالشعر والعلم والتأمل والحكمة والتعبد !

ومن موجبات الأسف أن أكثر المسلمين المعاصرين ما يزالون يصدُرُون فى تفكيرهم الدينى عن عوامل ومؤثرات ليست من منطق القرآن ، وليست من وحى

طبيعة هذا البناء العلمى المادى للكون . . . ولذلك لم ينطلقوا — برغم طول العهد على اتصالهم بالثقافة العلمية المادية المعاصرة — من تلك الأوهام التى قيدت عقولهم ووقفت بها على مقاطع نظر للكون المادى غريبة عن منطق العلم ومنطق القرآن .

وما لم يتحرروا من هذه الأوهام وينظروا إلى الكون نظرتهم الأولى عند ما فتح القرآن عيونهم على آيات الله وكلماته المكتوبة فى آفاق الطبيعة بآياته المقروءة غداة نزول القرآن ، وما لم يجعلوا عوامل يقظتهم واندفاعهم وقيادهم فى نهضتهم الحديثة منطلقة من منطق العقل القرآنى العلمى ، فإنهم سيظلون كما هم على بعد عن الموقف الصحيح فى الجمع بين الدين والعلم ، ينظرون نظرة مصروفة عن رؤية حقيقة الكون المادى وحقيقة النواميس التى تسيره ، مقيدين بآراء النظار الذين أخذهم الجدل القديم الموروث عن الأمم الأخرى أيام عجز الإنسان وتصوره . . . أو مأخوذين بآراء النظار والفلاسفة المُحدثين الماديين الملحدين بجهلهم نقطة البدء والصدور فى النظر القرآنى .

فلنُدعُ إلى اقتحام سور الوهم الذى حبس عقول المسلمين بعد عهد نزول القرآن وبعد اختلاطهم بالأمم وطغيان بعض فلسفات تلك الأمم على النظر القرآنى الذى ينظر إلى البناء المادى للكون وإلى قيم ذلك البناء كما ينظر إلى القيم والمثل الغيبية التى بنى الله عليها ما وراء الطبيعة المادية .

ولا يظنن ظانٌ أن الجهد الذى يبذل فى هذا السبيل تَرَفٌ ذهنى يدخل فى أبواب الفلسفات النظرية الجدلية العقيم بعيداً عن العمليات والواقعيات التى هى شعار أكثر العقول والمذاهب والفلسفات فى هذا العصر . . . كلا . . . فإن نقطة البدء والانطلاق فى نهضات الأمم واندفاعات الشعوب الواعية هى مصدر قوتها ومقياس نجاحها ، لأنها فلسفة رأيها وعقدة عقيدتها وقوة دفعها التى تحشد عزمها وتجمع أفرادها وتَحكُم عواطفها من أن تشرد أو تتفرق أو تضل .

لذلك يحسن بل يجب أن تقف أمتنا وقوفاً طويلا عند نقطة البدء والانطلاق فى حياتها العقلية ، لتقدم بين يدى ثورتها ونهضتها ونظمها وتشريعاتها السياسية والاجتماعية فلسفتها وعقيدتها التى تعمر رءوس أبنائها وتملك قلوبهم وتحكم آراءهم ونظرتهم إلى الكون والحياة . . . وبخاصة فى عهود افتراق المذاهب وتشعب الآراء

وكثرة الدعايات فى أسواق الفكر والرأى للمذاهب المادية الإلحادية الى تحبس نظر الإنسان على الآفاق المظلمة المطموسة المغلقة من البناء المادى للكون .

ولقد أخذ المذهب المادى فى العصور الأخيرة يجتاح التفكير الإنسانى اجتياحاً ترك آثاره الضخمة فى آفاق الفكر والاعتقاد والعمل والعيش ، وكان ذلك من نتائج الافتتان بآثار العلم بكثير من قوانين الطبيعة وطرق تسخير قواها واقتحام كثير من سدودها وقيودها ، واكتشاف كثير من مجهولاتها .

وقد نشأت من هذا الاجتياح المادى عقائد وآراء وسياسات سيطرت على المجتمعات البشرية بما لم تسيطر به من قبل ، فاستغرقت نزعات البشر وآمالهم ووجهت أعمالهم وحجبت نظرهم بغشاوتها عن كثير مما فى الكون من حقائق عقلية غير مادية وأذواق وجدانية تدركها الإنسانية فى جو التأمل فى العالم والإخلاد إلى النفس والخلوة بها والبحث فى طوايا ضميرها ، وفى جو الإيمان والتأويل لظواهر الكون والحياة .

وقد غلبت القيم المادية فى هذه العصور غيرها من القيم المعنوية وصارت هى الأساس للحكم فى أكثر المجالات ، يتهم الفرد بالقصور أو التخريف ، أو السذاجة إذا أغفلها أو أهدرها . وقد صارت مادية الكون ومادية العيش ومادية الأخلاق شغلا شاغلا لأكثر المجتمعات العصرية ورمت بأفكارهم المرامى البعيدة وصارت محور الصراع الأكبر فى ميادين العيش .

بل ربما كان هذا المذهب المادى هو مذهب أكثر الناس فى جميع العصور لا فى العصور الحديثة وحدها ، لأنه المذهب القريب إلى عقول الناس ، إذ كان تفكيرهم غالباً رهين الظواهر المادية ، وكان خلقهم رهين الضرورات المادية وثيق الصلة بها ، إذا رفع نبي أو فيلسوف نظرهم إلى عالم التجريد والمعانى والمثل والقيم لا يلبثون أن يعودوا بعد مضى عهد النبى مخلدين إلى الأرض بأهوائهم ونظرهم المحدود ونزوعهم للتجسيم حتى فى تصور آلهتهم ، فيمثلونها فى الحجارة والخشب نصباً وتماثيل وشخوصاً تلمسها أيديهم وتنظرها عيونهم التى لا تقوى على التحديق فى غير المتناهى .

طبيعة ثابتة وفطرة مسنونة وسبيل مطروقة من قديم ، ما كان للدين القيّم أن يُهدرها ولا يحسب حسابها فيما يوجهه إلى العقل من رسالات روعى فيها أنها

هدى للفطرة التى فطر الله الناس عليها فى جميع العصور ، وأنها لا بد أن تأخذ بقيادهم إلى التعرف إلى (الله الكائن الأكبر الخالق) بأيسر الوسائل وأهدى السبل .

وقد جعل القرآن لتبينات البناء المادى للكون ومشاهدها وأسرارها وقوانينها صُوًى وعلامات على طريق التعرف إلى الله الخالق ، وجعلها وسائل وأدوات لفهم ما عنده وعند الملأ الأعلى من عالم ما وراء المادة ، فتتدرج عقولنا على مستويات هذه الأبجديات وعلى إدراك النسب الكثيرة بين مفرداتها وكلماتها ، حتى إذا فرغت منها وامتلأت بعلومها وحذقت الصنعة فيها ورأت مواقع يد الخالق بها وتوقيعه على أشيائها ، وتتلمذت عليه فى تعلم ما يشاء أن يحيطوا بعلمه وفى تسخير ما يشاء أن يسخروه ويقدروا عليه من ملكوته . . . حين ذلك كله ، لعل عقولنا تكون قد صلحت لإدراك ما وراء البناء المادى للكون ، ولإدراك علم عقلى عن السر الأكبر الذى يَعْمُرُ ما وراءَه !

أصل الأصول لدى الفكر الإسلامى

دلالات من ثبات سنن الكون ــ الكون صورة مختارة ومرآة عاكسة لصفات الخالق ــ المقام المحمود الأعظم للعقل ــ استقبال القرآن للعقل بترحاب ــ كرامة لا يأباها إلا سفيه ــ الكائنات العليا والنبأ العظيم .

يجدر بنا ونحن نجادل « المادية الإلحادية » الواقفة عند حدود البناء المادى للكون ، والقاصرة عن إدراك المدى الواسع الذى يطلق القرآن العقل إليه وراء حدود ذلك البناء المادى ، ليريه قيمته وقدرته الحقيقية التى لا تتقوقع داخل الحدود المادية الضيقة لعالم المادة ، بل تنطلق وراء تلك الحدود ، لا انطلاق التخيلات الكاذبة والشطحات والأوهام ، بل انطلاق الحكم المبنى على القياس المنطقى البعيد الدقيق الذى لا يخطئ .

أقول .: يجدر بنا فى هذا المقام أن نبين فكرة هى أصل الأصول فى العقل الدينى الإسلامى ، وهى أن الله الخالق فى تصور ذلك العقل هو المنشئ للكون من لا شىء . . . أى من العدم ، وأنه هو واضع السنن والقوانين الكونية المطردة التى لا تتبدل ولا تتحول ، على الأقل بالنسبة لنا نحن المخلوقين وبالنسبة لواقع الكون .

ولكن ذلك العقل الدينى يرى أيضاً أن الله مع أنه جعل هذه السنن والقوانين تطّرد ولا تتبدل ولا تتحول إلا أنها لا سلطان لها على قدرته وإرادته ، فهو غير مقيد بتلك السنن والقوانين التى وضعها لسير الطبيعة ، ولا يعقل أنه لا يملك خرق تلك السنن والقوانين إذا أراد ؛ تمشياً مع الإطلاق فى قوله تعالى :

(إنما قَوْلُنا لشىءٍ إذا أردناه أن نقول له كُنْ فيكونُ) وقوله : (وما نحن بمسبوقين على أن نُبدِّل أمثالكم ونُنْشِئَكم فيما لا تعلمون) .

و (فيما لا تعلمون) هذه جملة وراءها من التصور والفرض والخيال ما لا قبل للعقل أن يبلغ مداه !

غير أن للعقل الدينى أن يستنتج من ثبات سنن الكون وقوانينه ، ومن أقوال القرآن عن ذلك الثبات والدوام ؛ وعن أنها ما وضعت إلا بالحق والقسط . وعن أن الكون

فى اتساعه ورحابته الهائلة من الأوج إلى الحضيض ، يسير بنظام واحد فى الذرات الصغيرة والمجرات الكبيرة ؛ بمليارات نجومه وأفلاكه ؛ هو الجد الذى لا لهو فيه ، والحق وموازين القسط . . . أقول : إن للعقل الدينى أن يستنتج من ذلك الثبات والإصرار على اتجاه واحد يتجه إليه الكون بدون تحويل وتبديل ، أن الخالق اختار للكون أبدع سنن الحق والخير والجمال وأقامه على صورة الكمال الدائم الذى يرتضيه وأنَّهُ « ليس فى الإمكان أبدع مما كان » وأنه جعله على صورة عكست صفاته وأسماءه الحسنى التى صدر الكون عنها .

أجل ، يرجح العقل الدينى القرآنى أن الصورة الراهنة للكون هى الصورة المختارة الثابتة العاكسة لصفات الله وكماله واتجاه إرادته . قال القرآن :

« ما تَرَى فى خَلْقِ الرحمن من تفاوت، فارْجع البصرَ هل ترى من فُطُور . ثم ارْجع البصر كَرَّتين ينقلبْ إليك البَصرُ خاسِئًا وهو حَسِير) ، (وما خلَقْنا السماءَ والأرض وما بينهما باطلًا ؛ ذلك ظنُّ الذين كفروا) ، (وما خَلقنا السمواتِ والأَرضَ وما بينهما لاعبين) ، (فماذا بَعْدَ الحق إلا الضلالُ) ، (الشمسُ والقمرُ بِحُسْبانٍ . والنجمُ والشَجرُ يسْجُدانِ . والسماءَ رَفَعَها وَوَضَع الميزان . . . والأَرضَ وَضَعها للأَنَام) ، (ثم استوَى إلى السماءِ وهى دُخَان فقال لها وللأَرضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَو كَرْهًا . قالتا أَتيْنا طائعين » ، (وأَوحَى فى كُلِّ سماءٍ أَمْرَها) ، (أَعطى كلَّ شىءٍ خَلْقَهُ ثم هَدَى) .

والعقل الدينى بكل طاقات التعجب التى فيه يحتفل حين يرى أى شىء فى أى أفق ، سواء أكانت أسباب وجود ذلك الشىء ظاهرة خاضعة للحس أم لم تكن .

وفرق كبير بين هذا العقل الذى يحيط هذه الإحاطة ، ويحكم هذه الأحكام ، ويتحرر من المنطق الحسى هذا التحرر ، ولا يتصور الإلٓه إلا حر الإرادة والقدرة ، وأنه كان ولا شىء معه ، ويبقى ولا شىء معه ، فهو الأول وهو الآخر ؛ وأن الكون كله صادر عن إرادته . . . أقول : فرق كبير بين هذا العقل وبين العقل الواقف عند حدود البناء المادى ؛ القاصر عن تخطى تلك الحدود بالتفكير الحر الذى

يتناول الكون قبل بدئه وبعد انتهائه ويصاحبه مرحلة مرحلة ، ويأبى أن يتصوره أزليًا وأن يتصوره أبديًا ، بل يحكم بأن الأزلية والأبدية للخالق وحده والوجود الحقيقى له وحده ، (هو الأولُ والآخِرُ والظاهرُ والباطنُ وهو بكل شيء عليمٌ) .

وإنه لمقامٌ سامٍ غاية السمو أن يكرم القرآن العقل الإنسانى هذا التكريم ! فيجعله يرى الكون هذه الرؤية ؛ ويزْوِيه بين عينيه ؛ ويضعه بين يديه ؛ ويقيمه فيه مقام الشهادة العظمى مع شهادة الله الخالق والملأ الأعلى على الحقيقة الأساسية الكبرى التى قام بها بناء الوجود وصلاح العالم ؛ وهى وحدانية الله وقيامه على الوجود بالرعاية والرحمة والعدل (شَهِدَ اللهُ أنَّه ، لا إله هو . والملائكةُ وأُولُو العلم ، قائمًا بالقِسْط) .

فماذا يطمح إليه الكائن الإنسانى أعظم من هذا المقام ؟ ! إنه فيما يبدو قد دخل الحياة بدون اختيار منه ولا إرادة ، ويخرج بدون اختيار منه كذلك ، ليس له من الأمر شىء ؛ وهو يرى بدء حياته من ماء مَهين ، وانتهاءها إلى حفرة ضيقة ؛ ويرى ضآلته بين أطباق السموات والأرض وسلطان القوى المادية ذات الهول والجبروت . . . ومع كل تلك الأسباب التى تشير إلى أنه فى ظاهر الأمر لا قيمة له ، يستقبله القرآن بترحاب وتكريم ؛ ويأخذ بيده ويزكيه ويوحى إليه ويهيب به : (إنى جاعلٌ فى الأرض خليفة) (وعَلَّم آدمَ الأسماءَ كُلَّها) ؛ (وإذ قلنا للملائكة اسْجُدوا لآدَمَ فَسَجَدُوا) ، (هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم ما فى الأرضِ جميعًا) ، (وسخر لكم ما فى السمواتِ وما فى الأرض جميعًا مِنْه) ، (ولقد كرَّمْنا بَنى آدم) ، (يا مَعْشَرَ الجنِّ والإنس إن اسْتَطعتم أن تَنْفَذوا من أقطارِ السمواتِ والأرضِ فانفُذُوا ، لا تَنْفُذُونَ إلا بسُلطانٍ) ، (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عن طَبَقٍ) ، (يا أيتُها النفسُ المطمئنة ارجعى إلى ربك راضيةً مَرْضيةً فادخلى فى عبادى وادخلى جَنَّتى) .

هكذا يستقبل القرآن العقل البشرى بأنس وترحاب ويضع أمامه مفاتيح علوم الأرض والسماء ، ويشجعه على بحث كل شىء ورفع أستاره ومعرفة أسراره ؛ ويخوله امتلاكه وتصريفه وتسخيره ؛ ويذهب عنه الروع والخوف القديم من القوى

المادية الجبارة ، ويفتح له أبواب الطبيعة ويركبه فيها طبقاً عن طبق فى أجواز الفضاء الكونى والفضاء النفسى !

فأية كرامة أعظم من هذه ؟ ! وأية نفس تأباها وترفض اليد التى تمتد بها إلا أن تكون قد سفهت نفسها وجانبت الرشد ، ورضيت بالضياع والوقوف موقف العجز والهوان على ذاتها وعلى العالم ؟ !

والذين يقفون عند الحدود المادية للكون ولا يرون بعقولهم من وراءه ، هم الذين يأبون هذه الكرامة والرشد ويرفضون تبوأ هذا المقام المحمود ؛ ويرضون لأنفسهم بالعجز وعدم التطلع إلى الكمال ، ويحجرون على عقولهم أن تنتفع بما فيها من طاقات تؤهلها أن تكون من موازين الحكم والرأى فى الكون ومن أدوات البحث عن النبأ العظيم والشأن الخطير الذى يعمره وينبث فيه ! ويحملونها على أن تعيش حياتها آلة صماء أو قوة عمياء كتلك الآلات والقوى المادية التى تقف هى عند حدودها ولا تتطلع إلى ما وراءها .

وهم مهما كشفوا واستخدموا من أسرار التكوين والتخريب والقدرة على التسخير واختزال الأبعاد ومواجهة عوامل الفناء ، ومهما صعدوا من أجواز الفضاء الكونى والكواكب ، أو نزلوا إلى أعماق الأرض والمحيطات ، فإنهم بموقفهم المتحجر الخائف الواقف عند حدود المادة ، قد برهنوا على أنهم ليسوا من الكائنات العليا ، بل من الأحياء الدنيا التى لا تعرف حق نفسها ولا حق الوجود ! بل تعيش بعقلية القطيع فى ذهول إلا عن الكلأ والسوم والرعى وعصا القهر التى تراها على رأسها . . . أما اليد التى أوجدتها وساقتها إلى ساحات رعيها وسعيها ، وخولتها ما هى فيه من حياة ومتاع ، وهى التى تحميها ، وتدفع عنها وتحاول أن ترفعها إلى مستوى الرشد والحكم والاختيار والكرامة وحرية التطلع إلى النبأ العظيم الذى ينبئ به هذا الكون . . . فهى لا تراها ولا تحاول أن تراها .

ومن هنا كان عماها عن رؤية اتساع الكون واتساع قدرة مالكه واكتشاف أعماقه ومدى طاقات عقل الإنسان وقدرته على رؤية ما وراء ذلك البناء المادى العظيم .

ومن العجيب أنه ترضى هذه العقول الواقفة عند حدود المادة لنفسها وحياتها

هذا الضيق والضنك بينما يناديها الكون بهواتفه التى لا عدد لها. ويدعوها القرآن بأنسه وترحيبه واحتفاله أن تنطلق وراء أشواقها الفطرية إلى المجهول الذى وراء حدود البناء المادى ، وأن تحاول التعرف إليه كشأنها ودأبها مع كل مجهول .

ولكن غمرات الحياة المادية اليومية أخذتها وألهتها وأذهلتها عما خلقت لمعرفته من النبأ العظيم الذى يعمر الكون العظيم ، وشغلتها بتزاويق التراب وقوانين الحياة فى التراب . . . كما يقول القرآن :

(ولكنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يعلمون. يَعْلَمُون ظَاهِرًا مِنَ الحَيَاةِ الدنيا وهم عَنِ الآخِرَة هُمْ غَافِلُون) .

القرآن القائد إلى فهم أعماق الكون

مواجهة حاضرة لمشكلات كل عصر — نجاح فذ فى إيجاد العقل المتكامل العصور المؤمنة — المادية الإلحادية تجهل نظرية الإسلام — زوال عقدة النقص بعد اكتشاف أنفسنا .

* * *

هل وراء أبعاد (المادية الإسلامية) التى يحددها القرآن ويرسمها ، مستقر آخر للعقل البشرى يستطيع أن يركن إليه ويرتكز عليه ؟

وهل وراء ما أخذنا القرآن إليه من أعماق الكون . عمق آخر يمكن أن نتعمق إليه ونستقر فيه ؟

وهل وراء ما أخذ به القرآنُ الفكرَ من مذاهب النظر فى الكون طريق آخر يمكن منه استيعاب مشاهد الطبيعة وإدراك ظواهرها وبواطنها ؟

إنه ليس هناك مذهب من مذاهب الفكر الخالص الصحيح يستطيع أن يأخذها إلى غير ما أخذنا إليه القرآن فى الطبيعة وما وراء الطبيعة .

إنه أحال إثبات قضايا ما وراء الطبيعة — الله وكمالاته والملأ الأعلى — إلى قوة الحكم العقلى ولم يخضعها للحس وما يستلزمه من نقص وقصور وضيق .

وإنه أحال قضايا الطبيعة ودراسة ظواهرها إلى قوة البداهة والحس . فلم يشرد من الطبيعة ولم ينكرها ولم يسلط عليها مقاييس التجريد ، ولم يختبر وجودها بغير الحواس .

وإنه اعترف بما وراء الطبيعة اعترافه بالطبيعة . وجعل المنطق الذى استفاده الإنسان من تجاربه فى الطبيعة هو أبجدية المنطق الذى يدرك به ما وراءها ، وجعل الإنسان يدرك وجود الله الخالق وكماله . من صفات الإبداع والإتقان التى وجدها فى الطبيعة . فلا انفصال بين المنطق المادى فى الكون كله وبين منطق العقل البشرى . فهناك معيار عقلى واحد بين الخالق والمخلوق .

وليس يستطيع العقل أكثر من هذا فى محاولة إدراك الوجود والحكم على ظواهره وبواطنه . . . ولن يفرض بينه وبين ما وراء الطبيعة هوة لا تعبر . . . فيعطل نفسه

عن إدراك صورة الوجود المطلق والكمال المطلق والدوام المطلق الذى لا يخضع لقانون الزوال .

وما دام منطق القرآن مستمداً هكذا من الوجود كله ، متسقاً مع الطبيعة وما وراءها ، ولم نجد فيه شذوذاً أو شروداً أو شطحاً عما تعودناه من إدراك فى حياتنا اليومية بالحس والعقل ، فمنطقنا إذاً هو منطق الكون كله ظاهره وباطنه ، وليس هناك بيننا وبين الله الخالق هوة لانستطيع عبورها ، ولن نكلف أنفسنا عناء التفكير فى منطق آخر يقعد بنا عن التعرف والتقرب والتعبد لله الخالق بناء على الزعم بوجود تلك الهوة .

إن منطق القرآن هذا منطق فاصل واضح فى وضع المؤمنين بما وراء المادة ووضع الواقفين عند حدودها ، وهو منطق يكشف النقص المعيب فى الفلسفات المادية الإلحادية الماضية والمعاصرة التى تزعم أنها وضعت العقل البشرى على مستقر ثابت ليس وراءه مستقر آخر .

ومن عجائب أمر القرآن أن يجد فيه المفكرون فى كل عصر ما يواجهون به مستحدثات الآراء التى تحاول حرمان العقل من مصادر اليقين والطمأنينة وموارد الحياة الفكرية الرشيدة فى رحاب الربانية والاعتزاز بالانتساب إليها ، والاستمداد من مواهب الله الخالق والأنس به وبالحياة معه ، ومعاملته بمنطق واحد هو المنطق الذى يقوم عليه بناء الوجود ، والإيمان بالمصير إليه وامتداد الحياة معه فيما بعد البعث على مدى الآباد ، والإيمان بعنايته واحتفائه بالإنسانية وتكريمها ، إذ أنه لم يلقها إلى الأرض ضائعة تسحقها أو تتخطفها قوى الطبيعة الجبارة ، ولم يتركها سدى بين المجهولات والصغارات ، تأخذها الحماقات والضلالات والشهوات وتصرفها عن طريقها الصحيح إلى المستقبل الذى تبدو تباشيره ومعالمه ، بل كان دائماً على صلة بها برسالاته التى أوضحت معالم الطبيعة المادية واحتفلت بالعلم بها وأوسعت من نظر الإنسانية إلى الكون وبشرت بما وراء الطبيعة من عوالم الغيب الذى وراء الحواس . مما يليق باتساع الكون واتساع قدرة خالقه ومالكه وارتباط الجميع به .

وقد نجح الإسلام نجاحاً منقطع النظير فى إيجاد العقل المتكامل الذى جمع بين الإيمان بمادية الطبيعة وقيمها ، والإيمان بما وراء الطبيعة والقيم التى تليق به ! حتى إننا لم نجد من فلاسفة الإسلام القدامى من يجنح به تفكيره إلى الخروج عن طريق

هذا الإيمان المزدوج بالمادة وبما وراءها وبالعناية الإلهية التى تسيطر على « عالم الخلق » و « عالم الأمر » .

فالكندى وابن سينا والفارابى وابن رشد والبيرونى وغيرهم من فلاسفة الإسلام العقليين المشارقة والمغاربة ، كلهم إن لم يكونوا من بناة الإسلام عن طريق العقل فلم يكونوا من محاولى هدمه . . . وقد اكتملت فيهم صورة الحلقة المفقودة ذات العقل الإنسانى المنشود الذى يؤمن بالدين علماً وبالعلم ديناً . . . وتلتقى فيه كفايات العقل الثلاث : التأمل والإثبات والاعتقاد .

وتعليل وجود ذلك النوع من العقل المتكامل، هو أن فلاسفة المسلمين كانت فى أذهانهم الصورة الكاملة للكون بماديته وما وراءها ، وقد وضعها القرآن فى أذهانهم بأسلوبه العلمى الاستقرائى أو الاستنباطى البليغ ، وجعلهم على فطرتهم التى تستجيب أول ما تستجيب للجانب المادى فى الكون وأعاجيبه وقيمه ، ثم تنتقل من هذا الجانب إلى الاستدلال به على وجود الخالق المنشئ وعلى علمه وقدرته وسائر صفاته التى تستنبط من الطبيعة .

وقد أباح القرآن للمسلمين العمل فى الطبيعة والتتلمذ على مشاهدها وعلومها وقوانينها ؛ بل أوجب عليهم ذلك ؛ ولم يغلق أى باب من أبواب الطبيعة دون جهودهم العلمية والعملية . بل جعل خصوصية الإنسان التى يتفرد بها عن غيره من المخلوقات هى النبش والبحث فى كل شىء واستخراج أسراره وتسميته وتسجيله فى عالم البيان والتعبير . . .

فكيف يجد هؤلاء الفلاسفة الإسلاميون فى عقولهم وأنفسهم حرجاً من منطق القرآن يجعلهم يخرجون عليه أو يشردون منه ؟ !

إنهم أيقنوا أن القرآن لو لم يكن ديناً موحى به من عالم الغيب لكان المذهب العقلى الوحيد الذى يفر إليه الفكر ويأنس به ويحتمى فيه من وطأة الفراغ والشك والإنكار والحرج والضيق .

وقد حولوا الفلسفة والمنطق اليونانيين إلى أدوات استخدموها فى بناء الفكر الإسلامى ، فنشأ علم الكلام والجدل عن مقولات الإسلام .

ولذلك مضى أكثر عصور المسلمين وأعظمها حضارة ومدنية وثقافة ، وهو مؤمنة تظلها الربانية وتخدمها المادية ، ولا يجد أهلها ما يجده أهل عصرنا هذا من

« مشكلات الفكر والاعتقاد » « ومشكلات العيش » ، تلك المشكلات التى تبلغ ذروتها من التعقيد والإظلام العنيف فى « المادية الإلحادية » الشرقية والغربية : تلك المادية التى لا تؤمن « بالثنائية » فى الوجود بين عالم المادة وعالم ما وراءها ، ولا تؤمن بقيم سوى قوانين القوى المادية العمياء ، ولا يرتبط ضميرها وعقلها بوجود أى كائن منفصل عن الطبيعة ، يأساً وإفلاساً من أصحاب تلك النظرية من التوفيق بين العقل العلمى المادى وبين ما درسته من أديان لم يكن من بينها الإسلام الذى يعتمد فى إثبات وجود « الكائن الأكبر الخالق » على أسلوب العقل العلمى ذاته الذى أدرك القوانين والأسرار التى تحكم البناء المادى للكون ولا تدرك بالحواس ؛ وإنما تدرك بالحكم العقلى ، كالرياضيات والقضايا التجريدية والعلاقات والنسب بين الأشياء التى من شأنها ألا تتجسد أو تخضع للإدراك الحسى .

ولو أن النظرية الإسلامية فى الطبيعة وما وراءها ، ولو أن طريقتها العلمية المبنية على الحكم العقلى الجازم فى التوصل إلى إثبات وجود خالق الطبيعة والاعتقاد به استنتاجاً من صنعه فى الطبيعة . . . لو أن هذا كان معلوماً ، لواضعى المادية الإلحادية ، لغيروا من نظرتهم للدين ، ولوجدوا أن لا ضرورة لتخريب قيم حياة التدين وشجبها والإزراء بها ، باعتبارها فى رأيهم مهدرة للعقل العلمى ومناقضة له ومخدرة للشعوب عن الكفاح لتحقيق « مطالب عيشها » فى الدنيا وحل مشكلاته ، وصارفة لجهد الجماعات عن السعى لنيل حقوقها فى سعادة الأرض قبل سعيها لنيل سعادة السماء .

ولكن مع الأسف الشديد ، لا تزال النظرية الإسلامية مجهولة لدى المدارس الفكرية المعاصرة بل لدى أكثر المشتغلين بالفلسفة من المسلمين ، امتداداً لموجة الإهمال الشامل لكل ما هو إسلامى فى عصور الاحتلال والانحطاط والتبعية السياسية والعقلية للمحتلين والافتتان بهم .

والمأمول أن ينحسر مد هذه الموجة ، بعد أن زال كابوس الاحتلال أو كاد . . . وبعد أن اكتشفنا أنفسنا ووجودنا وزالت عنا عقدة الشعور الكاذب بالنقص والتخلف ، ودخلنا النوادى العالمية فى السياسة والعلم والفلسفة ، وأدركنا دورنا التقليدى فى تحطيم حدة موجات التطرف والانحراف ومزجها جميعاً لإنتاج المذهب الوسط الذى تمتاز به أمة الوسط .

سقوط تأليه الطبيعة

جدل جديد حول قضايا الكون والألوهة — مدخل إلى تفسير النبأ العظيم — سقط تأليه الطبيعة — من يلقى بأسرار الطبيعة إلى العقل ؟ — العقل الإنسانى تفسير للعقل الأكبر — القرآن منطق الخالق والمخلوق — ما وراء الصعود إلى ذرى المادة والهبوط لأعماقها فى وقت واحد ؟ — القرآن وما ربط !

يجدر بالعقل الإنسانى فى هذا العصر، عصر الانطلاقات المادية الكبرى من إسار العجز والقصور القديم ، بعد أن وصلت يد الإنسان إلى مفاتيح القوى والطاقات الجبارة الكامنة فى وحدة البناء والتركيب المادى للكون — الذرة — وبعد أن استخدم تلك القوى والطاقات فى تحقيق تطلعه الدائم إلى الانطلاق من الأرض والصعود إلى السماء والرحلة بالجسم إلى الكواكب يسبر أغوارها ويكشف أسرارها كما سبر وكشف أغوار الأرض . . . أقول : يجدر به أن يغير من نظرته القديمة إلى الكون المادى والعلاقة بينه وبين الله الخالق وأن ينظر لذلك من خلال نظرته الجديدة إلى نفسه وعلاقته هو بهذا الكون المادى ، وأن يغير من منطقه فى الجدال عن قضايا الكون والألوهة والحياة ، بعد أن اتضح للعقل أن علاقته بالكون هى علاقة التفسير والتأويل لشئون الكائن الأكبر وصفاته ، وذلك بناء على دلالات منطق هذه القدرة الجديدة التى وجدها فى نفسه ، ووجد الكون المادى يستجيب لها ويطاوعها .

ويجب أن يكون واضحاً للعقل أن عمله الجديد فى التكوين والتحطيم وفى التحرك إلى كل اتجاه ، وفى الحرية والاختيار والإرادة التى يرى أنه يتمتع بها وحده دون غيره من المخلوقات ، هو المدخل إلى منطق جديد عصرى لتفسير النبأ العظيم لهذا الكون العظيم !

فكل شأن من الشئون التى أثبتها للخالق المنطق التجريدى القديم والفلسفة النظرية والحكم العقلى وعلوم الكلام والجدل عن مقولات الدين فى الألوهة وعلاقة

الكون بها ، قد وجد الآن تفسيره في عمل الإنسان بعد أن اتسع علمه وقدرته وزال عنه عجزه وقصوره عن إدراك أسرار التكوين المادى واستخدام القوى والطاقات .

فالقضية الأولى فى الدين والفلسفة ، وهى قضية وجود الخالق ، قد ثبت بالدليل المادى لدى العقل أنها ضرورة حتمية للنظم والقوانين الكثيرة المعقدة المتوازنة التى تحكم البناء المادى للكون ، والتى لا يصح بالبداهة أن تكون قد أوجدت نفسها وأوجدت التوافق والتناسق وعدم التضارب فيما بينها ، حتى نتج عنها هذا الكون المادى الهائل العجيب ، لأنها كما ثبت لنا بالمشاهدة الحسية فى الأوج والحضيض مسيرة فاقدةللحرية والإدراك والاختيار عاجزة خاضعة ، قد خضعت لنا نحن العاجزين بذواتنا القادرين عليها بالعلم . وخضوعها لنا ولو جزئيًّا يثبت أنها مألوهة مخلوقة ، فلا يجوز أن تكون لها صفات الدوام والكمال المطلق التى لا يستريح العقل ويقتنع إلا إذا وجدها فى تصوره لصفات الخالق ، وإلا إذا شعر أنها نطاق وحد فاصل بين الخالق والمخلوق ، بين من هو وراء الطبيعة بكمالاته المطلقة التى لا يرضى العقل بأن تتناهى ، وبين الطبيعة بعجزها ونقصها وقيودها وخضوعها لعوامل الزوال ولقدرة الإنسان المخلوق بعد أن صار يغزوها ويخضعها ويسخرها ويركبها طبقًا عن طبق . . . فكيف يتخذها إلها يتعبدله ويخشاه ويدعوه مع أنه يسخره ولا يجد فيه ذلك الكمال المطلق والعلم والحرية والإراده ؟ !

إذن فقد سقطت فكرة تأليه الطبيعة ، حتى ولو أن الإنسان ما يزال ضعيفًا ضئيلا بين أحجامها وثوراتها ، بعد أن سقطت أقنعة الرهبة التى كانت على وجوهها فى عصور جهل الإنسان وعجزه . . . أسقطها علم العقل بالأسرار الكامنة فى تكوينها وتحطيم خرافة تأليهها كلها أو بعضها أمام عابديها وراهبيها من بقايا الوثنيين ، ولم يعد الناس فى جملتهم يجدون فى أنفسهم رهبة العبادة لأى شىء مادى فى الأرض أو فى السماء ، فلا الشمس ولا القمر ولا ملايين النجوم والكواكب بما تزخر به أفلاكها من قوى صاعقة ، وبما يَمُور به عُبَابها من أمواج وطاقات وانفجارات . . . لا شىء من كل أولئك صار يستطيع أن يحرك فى العقل البشرى قدر شعرة من رهبة العبادة والاعتقاد فى هذه القوى والكائنات .

ثم ، مَنْ الذى ألقى بأسرار الطبيعة إلى العقل الإنسانى وحده ؟ ومن الذى مكن له وحده أن يبلغ هذا المبلغ العظيم من تسخير قواها واستخدامها ؟ ولماذا يبلغ وحده هذا المقام المرموق ؟

لماذا كان وحده هو محل الدفع إلى قمة التطور الحيوى ، والمظهر الوحيد للحركة الحية الحرة الإرادية النامية دون سائر ما فى الطبيعة ؟ أليس هنا قصد إلى غاية كونية وراء هذا التفرد ؟ وما دلالة هذا القصد الثابت إلى دفع الإنسان إلى الأمام دائمًا ؟ ألا تكون دلالة هذا القصد الثابت من اختيار الإنسان وحده لهذه المهمة هى أن عمل الإنسان فى الطبيعة — كما سبقت الإشارة — ما هو إلا تفسير وتقريب يتجدد لصفات (الكائن الخالق الأكمل) ولمعانى قصده وغايته فى الطبيعة ؟ أليس الإنسان بهذا مرآة عاكسة مقربة مجهرة لصفات الكائن الأكمل الذى يحكم العقل ويوقن بوجوده ، ويكاد أن يصيبه الجنون إذا اتبع منطق الإنكار والجحود والإلحاد فى وجوده وفى قصده الثابت الحكيم الواضح وراء كل شىء ووراء ثبات السنن والنظم والقوانين الطبيعية ؟ !

أجل لا وجود للعقل الإنسانى ولا تفسير للكون وللنبأ العظيم الذى ينبثُّ فيه إذا أخلينا البناء المادى للكون من العقل الأكبر الذى يدبره ويحكمه ويجعل سننه بهذا الثبات والإحكام والدوام ! ولكن العقل الإنسانى موجود بحكم الشئون العليا من حياة الإنسان ، وقد صار يدرك علوم الطبيعة وأسرارها وقوانينها ويستخدمها ويسخر كثيراً من قواها وطاقاتها ويتصف بالعلم والحكمة والبصر والسمع والإرادة والقدرة والبيان ، وهو الضئيل الضعيف العاجز بذاته كما يقول القرآن :

(هل أَتَى على الإِنسان حِينٌ من الدهر لم يكن شيئًا مذكورا ! إنَّا خلقْنا الإِنسانَ من نُطْفةٍ أَمْشَاجٍ نَبتليه فجعلْناه سميعًا بصيرا) ، (الرحمنُ عَلَّمَ القرآنَ ، خلَق الإِنسانَ علَّمَه البيانَ ، الشمسُ والقمرُ بِحُسْبانٍ ، والنجمُ والشجرُ يسجدانِ . والسماءَ رفَعَها وَوَضَع الميزان أَن لا تَطْغوا فى الميزان . وأَقيموا الوزنَ بالقسط. ولا تُخْسِروا الميزان ، والأَرضَ وَضَعها للأَنام) .

ولا يستطيع أى منكر أن ينكر وجود عقله هو الذى يجادل به ويرتب على الأقل

منطقه الذى ينكر به وجود الخالق ، فكيف ينكر وجود العقل الأكبر الذى رتب هذا الكون ووضع سننه وقوانينه وأصر على ثباتها لتنتج النتائج المادية الثابتة الحكيمة المتناسقة غير المتعارضة التى نراها فى السماء وفى الأرض ؟ !

إذن فقد ثبت أن العقل الإنسانى ، باختياره أو برغمه ، ما هو إلا تفسير للعقل الأكبر الذى أراد الكون وخلقه وحكمه ودبره وقام عليه بالقسط . . . ما هو إلا تفسير مادى قريب واضح الدلالة على وجود الخالق ، مقرب وموضح لصفاته التى يتحدث عنها الكون المادى والقرآن .

(فَوَرَبِّ السماء والأرض إنه لَحَقٌّ مِثْلَما أنَّكم تنطقون) . فوجود الله وحياته وإرادته وعلمه وقدرته يفسرها ويثبتها وجود العقل الإنسانى وحياته وعلمه وقدرته ومنطقه .

وقيمة القرآن تتضح فى إثبات أن منطق العقل الأكبر الذى يحكم الكون هو منطق الكون كله ومنطق العقل الإنسانى ، وفى إثبات أن موازين الحق والباطل والخير والشر فى الضمير البشرى هى نفسها لدى الخالق ولدى الكون كله . . . ولا يخفى ما فى ذلك من دلالة على التناسق ووحدة الاتجاه والمقاييس فى الكون كله . وما فيه من هداية إلى أن يجد العقل الإنسانى نفسه ويحترم وجوده ويقيم حياته وموازينه على الحق الذى يقيم جنبات الكون . . . وفى هذا مالا بد منه من طمأنينة النفس وشعورها بالسعادة الغامرة حين تجد نفسها وقد صارت وحدة من وحدات الميزان الأكبر الذى يوازن جنبات الكون ، ومحوراً من محاور الحق ، ومرآة لأشعة نور الله الساطع بالرحمة والعلم والحب والسلام والكمال !

وكل هذا يحمل العقل على الإخلاص لنفسه والاحترام لقوانينه — التأمل والتعليل والتمييز والحكم — ولقوانين الكون ، بعد أن صار يلقى إليه بما فيه من أسرار التكوين والتسخير والتصريف ، مما يدل على أن العقل الأكبر الذى يحكم الكون آذنٌ بإلقاء هذه الأسرار إلى العقل الإنسانى ، راض بما صار يفعله من استخدام تلك الأسرار فى التسخير والتكوين والمحاكاة والانطلاق إلى الفضاء الكونى .

وهذا الانطلاق من إسار الأرض ، والصعود إلى الأوج والدوران فى أفلاك السماء ، وهذا الهبوط إلى أعماق الحضيض فى فلك الذرة فى وقت واحد ، يشير إلى

أن وراء إلقاء هذه الأسرار إلينا قصداً وتوقيتًا وهدفًا هو فيما يبدو تفسير النبأ العظيم لهذا الكون العظيم عن طريق عقل الإنسان وعمله بعد تفسيره عن طريق القرآن .

وقد تفرد القرآن بأنه حديث مباشر إلى الإنسان من الله الخالق عن ذاته العليا وصفاته وغاياته وملائكته الأعلى، وعن الكون المادى وما فيه من أسرار ومشاهد وعن النفس البشرية ووضعها فى الكون وصلتها بما وراءه وعملها فيه ومصيرها معه .

وقد قام الدليل التاريخى والدليل العملى والدليل العلمى على أن القرآن حديث عظيم صحيح معجز متفرد إلى العقل الإنسانى عن الطبيعة وخالقها وعن مصيرها ومصير الإنسان معها . . . وقد كان نزول الوحى بالقرآن على قلب رجل من البشر أمراً لازمًا لا بد منه للربط بين الطبيعة وما وراءها ، لكى يحصل العقل الإنسانى فى عهد رشده على اليقين حتى بالمشاهدة الحسية لما وراء الطبيعة وعلى معاناة هذه التجربة بكل قوى الوعى والإدراك والوجدان ، بعد حصوله سابقاً على الحكم العقلى التجريدى بوجود ذلك العالم الأعلى .

ولننظر فى مفتتح سورة (النجم) إلى مثل من ذلك الربط بين المشاهد الكونية المادية واليقين الحسى بها فى رؤية (النجم إذا هوى) بالعين الباصرة، وبين الرؤية الحسية بها كذلك لمصدر الوحى بالقرآن وللملأ الأعلى فى قول القرآن :

(ما كَذَبَ الفؤادُ ما رآى . . . ما زاغ البصرُ وما طغى . . لقد رآى من آيات ربِّه الكبرى) .

إذن هو كون واحد ، لخالق واحد ، بمنطق واحد ، وميزان واحد ، ورقابة واحدة كما يقول القرآن فى بيان مدى سلطان الله وعلمه بالإنسان وشئونه والكون وشئونه :

(وما تكونُ فى شأنٍ وما تَتْلُو منه من قرآنٍ ولا تعملونَ من عمل إلا كنا عليكم شُهودًا إذ تُفِيضون فيه ، وما يَعْزُبُ عن ربِّك من مِثْقال ذَرَّةٍ فى الأرض ولا فى السماءِ ولا أصغرَ من ذلك ولا أكبرَ إلا فى كتابٍ مبين) ، (وهو الذى فى السماءِ إلَهٌ وفى الأرض إلَهٌ وهو الحكيم العليم) .

ولهذا الوضع المتفرد للقرآن أثره البالغ فى الربط الدائم بين العقل الإنسانى وبين كتاب الله الصامت وهو الكون المادى وما وراءه ، إذ أن القرآن قد أثبت حقائق

الكون المادى وأقام عليها حقائق ما وراءه من وجود الخالق وصفاته وكمالاته ، ومن ترتيب المسئولية والجزاء للنفس الإنسانية إزاء الحق والباطل والخير والشر حسب المقاييس الثابتة والموازين التى قام بها بناء الكون وتكوين العقل والضمير ، ومن استمرار الحياة وتفتحها وتجددها وخلودها فى دار الجزاء مع تجدد الكون ودوام الخالق .

الباب الواسع

من المقرر المعروف فى الإسلام أن باب رب الطبيعة واسع ، والدخول منه غاية فى اليسر والسهولة ، فلا مراسم ولا وسطاء ولا شفاعات ، ولا أحساب ولا أنساب ، لأن الله أقرب إلى الإنسان من نفسه وأرحم به من أهله وفكره وقلبه :

(واعلموا أن اللهَ يَحُولُ بين المرءِ وقلبه) ، (ونحن أقربُ إليه من حبل الوَرِيد) .

و « جواز » الدخول من هذا الباب شيء واحد هو الاعتراف بوحدانية ذلك الرب !

وهذا أمر طبيعى ، فى المنطق الإنسانى لدى كل الدول ، إذ تهدر كل دولة قيمة أى فرد لا يعترف بنظامها الأساسى أو برئيسها :

(إن الله لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ به ويَغْفِرُ ما دُونَ ذلك لِمَنْ يَشاءُ) ، (ومَنْ يُشْرِكْ باللهِ فكأَنما خَرَّ مِنَ السماءِ فتَخْطَفُهُ الطيرُ أَو تَهْوِى به الريحُ فى مكانٍ سَحِيقٍ) .

إهدار بإهدار ! من يهدر قيمة حكومة الكون الكبير تهدر قيمته وتسلمه للضياع ، ولو أتى بملء الأرض والسماء ذكاء ونفعاً دنيوياً . . . كما تهدر كل حكومة قيم الخارجين عليها بالغين ما بلغوا علماً ونفعاً :

(وَقَدِمْنا إلى ما عَمِلوا من عَملٍ فجعلْناه هَباءً منثورًا) (والذين كفروا أعمالُهم كسرابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُه الظمآنُ ماءً حتى إذا جاءَه لم يَجِدْه شيئاً) مثل الذين كفروا بربهم أعمالُهم كرمادٍ اشتدت به الريحُ فى يومٍ عاصفٍ لا يَقْدِرُون مما كَسَبُوا على شيءٍ) .

فإذا دخلنا من هذا الباب الواسع ، بجواز المرور ، إلى رحاب الله سيد الكون ، كان علينا أن نتبع آداب هذا الرحاب وتقاليده ونظام الحياة فيه ، فنوجه وجوهنا وضمائرنا إلى سيده لنتعرف إليه ونسير على سننه التى بثها فى ذلك

الرحاب ، ولا نخرب أى شىء فيه إلا بإذنه وتوجيهه ، وأن نعمل على نماء ما فيه من قوى الخير والنفع والجمال والصلاح لذلك الرحاب وأهله .

وليس فى ذلك الرحاب امتياز لأحد على أحد إلا بتلك الصفة الجامعة لكل معانى الحق والخير والجمال ، وهى (التقوى) ، وليس هناك احتكار من أحد لفضل الله ، لأنه إله الجميع ، وميزان حسابهم لديه واحد .

(وقالت اليهودُ والنصارَى نحن أبناءُ الله وأحباؤُه . قل فَلِمَ يُعذِّبُكم بذنوبكم ؟ بل أنتم بشرٌ ممن خَلَق) ، (ليس بأمانيِّكم ولا أمانىِّ أهلِ الكتاب ، مَن يعملْ سُوءًا يُجْزَ به ولا يجدْ له من دونِ اللهِ وليًّا ولا نصيرا) ، (وقالوا لن يدخلَ الجنةَ إلا من كان هُودًا أو نصارَى ،تلك أمانيُّهم ،قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . بلىٰ من أسلمَ وجهَه لِلهِ وهو محسن فله أجرُه عند ربِّه ولا خوفٌ عليهم ولا هم يَحزنون) ، (إن الذين آمنوا والذين هَادُوا والنصارَى والصابئين من آمنَ باللهِ واليومِ الآخِرِ وعَمِل صالحًا فلا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون) .

وفى هذا الرحاب الواسع سلام نفسى وسعادة غامرة ، لأن الأخوة فى ظلاله شاملة بين جميع المؤمنين ، وليس فيه شعب مختار ، وشعب غير مختار ، ولا نظر فيه للألوان والدماء واللغات ، وإنما هناك أخوة عامة ومساواة عامة وعدالة عامة :

(يا أيها الناس إنَّا خَلَقْنَاكُمْ من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شُعوبًا وقبائلَ لتَعَارَفُوا . . إن أكْرَمَكُم عند الله أتقاكم) ، (فإذا نُفِخ فى الصُّور فلا أنْسَابَ بينهم يومئذٍ ولا يَتَسَاءلون) .

وهذا الباب الواسع دخل منه المؤمنون بالله الواحد ، المسلمون وجوههم إليه من جميع الأجناس فى جميع العصور ، ويدخل منه المؤمنون المسلمون فى الحاضر والمستقبل ، لا يضيق بأحد ، والداخلون إليه طابعهم واحد واسمهم واحد :

(إن الدين عند الله الإسلامُ) ، (مِلَّةَ أبيكم إبراهيمَ هو سمَّاكُمُ

المسلمين من قبلُ ، وفى هذا) ، ويقول القرآن عن قرية قوم لوط : (فما وجَدْنَا فيها غيرَ بيتٍ من المسلمين) ومن قبل قال نوح : (وأُمِرْتُ أن أكونَ من المسلمين) ، ويقول موسى : (سُبْحَانَك تُبْت إليك وأنا أولُ المسلمين) ، ويقول حَوَارِيُّو عيسى : (واشهدْ بأنَّا مسلمون) .

إذاً فالرسالة واحدة خالدة على مدى العصور، وطابعها واحد، ومتبعوها أمة واحدة وإن اختلفت لغاتهم وألوانهم وأمكنتهم وأزمنتهم (ما يقالُ لك إلا ما قد قيلَ للرُّسل من قَبْلك) ، (قل ما كنتُ بِدْعًا من الرسل) ، (شَرعَ لكم من الدِّين ما وصَّى به نُوحًا والذى أوحيْنا إليك ، وما وصيْنَا به إبراهيمَ وموسَى وعيسَى ، أن أقيموا الدينَ ولا تتفرقُوا فيه ، كَبُر على المشركين ما تَدْعُوهم إليه) .

فأية عالمية وأية إنسانية بعد هذه ! وأى لقاء للبشرية كلها أعظم من لقاء هذا الرحاب ! وأى علاج أنجع من هذا اللقاء لصراع الأجناس والمذاهب والألوان وحرب الطبقات الذى ملأ الأرض شقاء وأحال الحياة من نعمة إلى مأساة !

وأية «أخوة فى السلاح» أقوى من الأخوة فى سلاح الإيمان، لمقاومة أدوات الشقاء والدمار بالمحبة والطمأنينة والسعادة النفسية ، والتلاقى والتعاون على صراع قوى الشر والعدوان والإلحاد والانحلال وعلى كشف قوى الطبيعة وتسخيرها لخدمة الإنسان وغزو المجهول !

وأية عدالة أكثر ضمانًا للعدو والصديق من عدالة تقول (كُونُوا قَوَّامِين بالقسْطِ شُهَداءَ لله ولو على أنْفسِكم أو الوالِدَيْن والأقربين) ، وتقول : (ولا يَجْرِمَنَّكُم شنآنُ قوم على ألا تَعْدِلُوا ، اعْدِلُوا هو أقربُ للتقوى) .

ألا ما أوضح وأعمق النداء القرآنى فى هذا الرحاب الإلهى الواسع !

(يا أيها الرسلُ كلوا من الطيباتِ واعملُوا صالحًا إنِّى بما تعملون عليم. وإن هذه أُمتُكم أُمةً واحدةً وأنا رَبُّكم فاتقونِ) .

* * *

«وبعد» فإننا لا نعرض الإسلام فى هذا المجال معتزين به تدينا وتعبداً

بدون تفكير واقتناع عقلي ، والتماساً للثواب أو خوفاً من العقاب . . . وإنما نفعل ذلك لأننا وجدنا فيه بكامل عقولنا وثقافتنا الدواء الناجع لكل ما تعانيه الإنسانية من أمراض وأخطاء ومشكلات ، ولأنه كما قلنا مراراً ، لو لم يكن ديناً موحى به لكان المذهب العقلي الوحيد الموصل إلى الأهداف التي يطلبها الإنسان المعاصر في أزمته الخانقة لعقله وضميره ومنافذ عيشه ! !

وأخرى مهمة جداً للغاية ! هي أننا نعتز بالإسلام ونبذل الجهد في عرضه على الإنسانية المعاصرة ، لأننا ندرك ما فيه وحده من الضمانات لحرياتها وحقوقها ، ولحمايتها من غضبات التعصب وضيق الأفق ! إذ لو لم يحل الإسلام بين المسلمين في عهود قوتهم وفتح جيوشهم أرجاء الأرض في الماضي وبين المخالفين لهم ، ما بقي على وجه أرض الإسلام غير مسلم ! وبقاء الأقليات الدينية للآن في أرض الإسلام أكبر شاهد في هذه القضية ، وزوال المسلمين من أسبانيا والبرتغال مثلا شاهد بعكس الحال عند غير المسلمين .

ويجب ألا يغيب عن بال الناس لحظة واحدة في هذه المناسبة ، ما واجه به شيخ الإسلام السلطان سليماً العثماني من الإنكار على ما كان يريد السلطان أن ينفذه ، من حمل غير المسلمين في دولته على اعتناق الإسلام بالقوة ؛ وما زال الشيخ يعارض السلطان حتى رجع عن عزمه .

وكيف يسمح شيخ الإسلام في أي عهد بمثل هذا الفعل الجائر المخالف لقول القرآن : (لا إكراهَ في الدين قد تبيَّن الرُّشْد من الغَيّ) وقوله : (ما على الرسول إلا البلاغُ) ، (فَذكِّرْ إنما أنت مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عليهم بِمُسَيْطِرٍ) ، (أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ الناس حتى يكونُوا مؤمنين!) ، (ولو شاء الله لجمعهم على الهُدَى ، فلا تَكُونَنَّ من الجاهلين !) .

وبهذا الفهم لسعة باب الله وبساطة مراسم الدخول منه وسماحة رحابه واحترام حرية العقيدة في ظلاله وعدم إكراه أحد على الدخول منه ، يقف الإسلام متفرداً في جميع العصور .

البعد الثانى

بين مادة الإنسان وروحه

١ ــ وضوح رؤية الكون والنفس فى ضوء القرآن .

٢ ــ الروح صاعدة من المادة لا هابطة إليها .

٣ ــ مزيد من القرآن فى نشوء الروح من المادة .

٤ ــ روح . نفْس . نسَمة .

ألفاظ عربية ذات دلالات مادية

٥ ــ زوال الحدود المصطنعة بين الإيمان عن طريق المادة والإيمان عن طريق الروح .

٦ ــ من حديث القرآن عن أبعاد النفس الإنسانية .

وضوح رؤية الكون
والنفس فى ضوء القرآن

جناية التهويم الأجنبى على صحو العقل العربى — وضوح رؤية الكون فى ضوء القرآن — توجيه العقل إلى منطق القرآن وحده — رأى القرآن فى المادة والروح — المادة أكثر إثارة للعجب من الروح — العالم المادى هو مجلى ظهور الله وصفاته — العقل بين عالم الخلق وعالم الأمر.

* * *

انتهينا من الحديث عن « البعد الأول » للمادية الإسلامية ، وهو التصور العقلى الإسلامى للبناء المادى للكون وصلته بالخالق المنشئ ، ودلالته على وجوده وإرادته وعلمه وحكمته وقدرته ورحمته وكمالاته التى لا تتناهى ، وعلى وحدة المعايير والمقاييس للحق والباطل والخير والشر ، ووحدة الاتجاه وثبات السنن فى الكون كله ، وعلى الصلة بين العقل الأكبر الذى يحكم الكون ويدبره وعقل الإنسان ، وعلى الارتباط والتطابق بين كلمات الكون وكلمات القرآن ، وأثر ذلك فى إدراك الوحدة بين منطق الخالق ومنطق المخلوق .

والآن ننتقل إلى الحديث عن « البعد الثانى » من أبعاد المادية الإسلامية ، وهو إدراك تكوين الكائن الإنسانى وتركيبه فى ضوء هذه النظرة الإسلامية .

ويطالعنا حديث القرآن عن نشأة الإنسان وتكوينه بالعجب العجاب الذى يجعل العقل العلمى العصرى يقف مبهوراً مقراً بسبق هذا الكتاب وتبكيره إلى ما وصل إليه العلم أخيراً بجهده وأسلوبه وأدواته وأحكامه .

وهذا الحديث عن تكوين الإنسان وتركيبه يقتحم نطاق الوهم العجيب الذى ظل يسيطر على عقول المسلمين طوال القرون الماضية ، منذ أن تغيرت البداهة العربية التى تلقت القرآن بفطرتها السليمة ، وأدركت مفاهيمه بعيداً عن المفاهيم الأجنبية التى وردت إليها فيما بعد من الإسرائيليات والصوفيات الهندية والخيالات والتهويمات البعيدة عن الصحو العقلى الذى يمتاز به الطبع العربى .

وأنا أقدر أن هذا الحديث سيثير جدلا ولغطاً من الذين سيفاجئهم فهمنا لحديث القرآن عن النشأة الإنسانية . . . أولئك الذين يعيشون على جدليات وفروض ما نزل بها القرآن ولا رضى عنها العلم بمعناه العصرى المحدد المؤسس على المشاهدة وإدراك القوانين المادية .

وما كان أولى هؤلاء أن يأخذوا القرآن وحده ويعقلوه ويتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم لا ما تنزلت به أوهام الأمم وشطحات الشعوب . . . إذن لكان المسلمون قد وفروا من عمرهم بل من عمر الناس جميعاً الذى ضاع فى تلك الشطحات والجدليات الفرضية والأوهام ، ولكانوا قد سلكوا الطريق العلمية الصحيحة قبل غيرهم من الأمم بمئات السنين ، ولكان فى أيديهم الآن قياد الحضارة والثقافة المؤمنة غير الملحدة ولا المنكرة للصلة الواضحة بين الطبيعة وخالقها وما وراءها من عالم الأمر والسر . . .

وإنى ، أحاول كما قلت ، أن أقتحم بهذا الحديث معقل المادية الإلحادية الشرقية والغربية . . . أقتحمه بالمادية الربانية القرآنية العلمية البصيرة التى ترى الكون المادى رؤية واضحة ، وتحتفل به وتدرك أعماقه وتتذوق أسراره ، وترى الأدلة والآيات البينة المتحدثة بما فيه من كلمات تستمد وحيها وتتلقى علمها من عبابه الزاخر وهى ترى يد الله البارىء المصور وقد وقفت وراء كل شىء وكل شأن فيه ، قائمة عليه هادية له . . . لا كتلك المادية العمياء التى تقف عند حدود المادية الصماء وقواها وطاقاتها ، ولا ترى تلك اليد التى كونتها وبثت فيها القيم التى تقوّم وتوزن بها .

وأحاول كذلك التنبيه إلى وجوب تحرير العقل الإسلامى من النظرات القاصرة عن مدى ما فى القرآن من تقرير وتقدير للبناء المادى للكون ، وما فيه من أسرار وعجائب . . . تلك النظرات التى ظلت مسيطرة على عقول المسلمين المتأخرين وخدعتهم وجرجرتهم إلى آفاق السراب ، وأخذتهم بعيداً عن الفكر العلمى والعمل المادى لبناء الحضارة والثقافة ، وعن بناء تفكيرهم وفلسفتهم على القيم التى بنى الله الطبيعة عليها ، بجانب القيم الغيبية التى بنى عليها ما وراء الطبيعة ، على نحو ما يوحى به القرآن فى مثل قوله :

(وعندهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لا يَعلَمُها إلا هو، ويعلمُ ما فى البرّ والبحْر ،

وما تَسقُطُ من ورقةٍ إلا يَعلَمُها ، ولا حَبّةٍ فى ظلماتِ الأَرض ، ولا رَطْبٍ ولا يابِسٍ إلا فى كتابٍ مُبِين) .

فهكذا كان يجب أن يكون تكيف العقل الإسلامى على نمط ما يشير إليه القرآن ويستعرضه فى مثل هذه الآية ، من علم الله واحتفاله بمفاتح الغيب ، مما يسمو فوق عالم الطبيعة والشهادة ، ومن علمه واحتفاله بكل ما وسعته مادة الأرض من أشياء وأحوال وأسرار وأعراض وأطوار ، صغرت أو كبرت ، أقبلت بها الحياة أو أدبرت . . . وكل أولئك قد سجل وصنف ورتب فى وضوح وإبانة تنبئ عن عناية الخالق به .

فكيف يحيط علم الله هكذا ويحتفل بكل صغيرة وكبيرة فى مادة الطبيعة : و (لا يَسْتَحْيِى أَن يَضْرِبَ مَثَلًا ما بعوضةً فَمَا فَوْقَها) . . . وكيف يتابع بعلمه وتدبيره كل شىء فيها ، ولو كان ورقة ساقطة ، أو حبة نامية تدب بالحياة فى ظلمات الأرض ، أو شيئًا رطبًا لينًا تقبل به الحياة ، أو شيئًا تدبر عنه وتتركه يابسًا جامداً . . . ثم بعد هذه الإحاطة الآلهية بكل شىء فى المادة يترك العقل البشرى كل هذا ويدبر عنه ولا يسعى للإحاطة والاحتفال به وتلقى ما فيه من أسرار وتتبع ماله من أحوال . ! !

أجل ، على هذا النمط من الإيحاء القرآنى كان يجب أن ينشأ ويربى العقل الإسلامى ، وأن يتلقى عن الخالق ذى العلم والطول وحى سننه فى الكون وأسلوبه العلمى واحتفاله بالمادة وعنايته بتخليقها وتنويعها ومتابعة أطوارها .

ولكن مع الأسف ، كما سبق القول ، لايزال أكثر المسلمين المعاصرين يصدرون فى تفكيرهم عن أفكار ليست من وحى القرآن ، وليست من طبيعة إيحاء هذا البناء المادى للكون ، ولذلك لم ينطلقوا برغم طول العهد على بدء اتصالهم بالعلم العصرى من تلك الأوهام التى قيدت أنظارهم وحبستها على مقاطع نظر خادعة .

ولا بأس أن نعود فنستطرد إلى التنويه بصحو العقل العربى الفطرى وعدم تهريمه وانسلاخه كثيراً وراء البداوات والخرافات التى سادت عقول الشعوب الأخرى . وخاصة فى عصور ما قبل الإسلام ، كالهند والفرس واليونان والرومان ، وجعلتها تعيش فى عالم وهمى ، تمتزج فيه الأساطير والخرافات والأوهام حول آلهة مزعومة

فيها طيش البشر ونزقهم وحقدهم وضغينتهم وصغاراتهم وشهواتهم وعلاقاتهم المختلفة فى الحب والبغض والخطأ والنسيان ، ولها بطولاتهم التى لا تبلغ حدود ما يوحى به الكون من عظمة وكمالات لا تتناهى فى الذات الإلهية الواحدة .

وأحسب أن صحو العقل العربى وعدم شروده كثيراً إلى عالم التهاويل والتكاذيب والخرافات كان أكبر ميزة رشحته لأن ينزل عليه القرآن بذلك النسق الإثباتى الجميل الذى أثبت حقائق الكون ووضح معالمه وجعل العقل البشرى يرى كل شىء فيه بوضوح كما وضعه علم الله الخالق وتنظيمه .

ولئن كان بعض النقاد المحدثين يعيبون على العقل العربى فى مجال الشعر والفن أنه محدود الخيال ضعيف الجناح ضيق التصور للأوهام الجميلة والأشباح المستحيلة التى تبدو فى أكثر « الميثولوجى » والأساطير الشعبية فى الأمم الأخرى ، والتى هى مادة خصبة لنسج الأدب والفنون ، فإننا نرى أن تلك الظاهرة جعلت العقل العربى أقرب إلى أن يكون عقلاً علمياً رشيداً صالحاً لأن يتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ، فيواجه به عصر العلم والرشد ، ويؤهل الناس للعيش فيه والوصول بمنطقه وأسلوبه إلى إدراك أسرار الله فى التكوين المادى وإلى تأويل ما لم يحيطوا بعلمه .

والآن ننقل القول إلى الحديث عن تكوين الكائن الإنسانى :

يقال : إن الإنسان مكون من مادة وروح . فما هى المادة وما هى الروح أولا ؟

إن المادة هى تلك العناصر المائة والثلاثة التى تكون فى حالة جمادية أو سائلة أو غازية ، وتتكون منها الأجسام منفردة أو مجتمعة بنسب متفاوتة .

ولم يكن القدماء يدركون المادة ومنشأها كما يدركها المحدثون الآن ، إذ لم تكن عناصرها قد ميزت وحددت بخصائصها هذا التحديد العلمى الدقيق ، ولم تكن القوى والطاقات الجبارة التى تنبثق منها أو تتعلق بها كالكهرباء والمغناطيسية والجاذبية والطاقة النووية ، قد كشفت وحددت وميزت ودرست الدراسة المستوعبة .

ولم تكن الحدود بين العلم والدين والفلسفة قد وضحت كذلك ، بل كانت خليطاً ، فكانت الفلسفة تدخل مداخل العلم ومداخل الدين ، وكان طالبو المعرفة يجمعون ما يعثرون عليه سواء كان شيئا حسياً أم حكماً عقلياً أم تأملا فلسفياً أم مذهباً أخلاقياً أم عقيدة دينية أم أمراً علمياً .

ومما ورثناه عن الأقدمين مختلطاً كذلك كلمتا « روح ونفس » ، وقد تناولتهما بالبحث الفلسفة والدين والعلم .

وينبغي أن ندرك في مبدأ القول أن الروح الإنساني سواء كان جوهراً مستقلا بذاته قبل اتصاله بالجسم ، أم كان عرضاً من أعراض الجسم والتركيب المادي الإنساني ، هو أمر عجيب حقاً على كلا الحالين ، وليس يذهب بالعجب منه أنه ناشئ من الجسم الإنساني كنتيجة لتركيبه المادي وتطوره وكونه في قمة الحياة العليا ، بل على العكس أرى أن انبثاقه من التركيب المادي للجسم الإنساني هو أشد إثارة للعجب من كونه جوهراً مستقلا متنزلا من العالم العلوي الذي نؤمن بأن له قدرات لا حدود لها ، فلا يستغرب أي شيء يصدر عنه مباشرة .

كما ينبغي كذلك أن ندرك أن القرآن يقرر أن الآيات والأعاجيب التي في خلق البناء المادي للكون ، أكثر إثارة للفكر ولدواعي إيمانه ، من أعجوبة روح الإنسان الذي حارت في إدراكه الأفهام ، على نحو ما يقول أبو العلاء :

والذي حارت البرية فيه حيوان مستحدث من جماد !

فتلك الآيات والأعاجيب المادية التي في مادة الكون هي من الكثرة بحيث يعد جاهلا بحق وبليداً بحق من لا يرى فيها أسباباً مقنعة ودواعي للإيمان واليقين بما وراءها من عقل وتدبير وحكمة وعلم وبصر وقدرة وإحاطة .

ولنقرأ هذه الآية من سورة غافر (لَخَلْقُ السموات والأَرضِ أكبرُ من خَلق الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون) لندرك على الفور ، أن أمر العجب في الروح الإنساني هين بالنسبة للآيات والأعاجيب التي يكاد التفكير فيها يصعق العقل مما تحمله السموات والأرض وما بينهما ! !

ونشوء المادة ذاتها لا يقل العجب منه عن العجب من نشوء الروح ، لذلك قال (ميلكَن) أحد كبار علماء الكهرباء في عصرنا هذا ، حينما سئل عن الروح : «خبروني ما هي المادة أخبركم ما هي الروح . »

والواقع البين أن ما في التركيب المادي للعالم من مدارات الأفلاك والنجوم والكواكب والأقمار والنيازك والمشاهد والقوانين والقوى والطاقات والأحجام والأثقال ، والحياة والموت ، والجواهر والأعراض ، والتركيب والإفراد ، والجمود والميوعة ،

سيولة وغازية ، والأضواء والظلال والإشعاعات والظلمات ، والغيوم والأصوات ، والحركات والسكنات والهياج والقرار . . . كل أولئك وغيره ، مما لا يمكن تعداده واستيعابه ، كان يجب أن يقنع العقل بدلالاته على أن ما وراءه من أمور مجهولة لا يجوز أن يحول دون التسليم بأن ذلك المجهول الذى لم يدركه العقل والعلم هو أمر واحد عجيب من أمور عجيبة كثيرة لا عدد لها قد أدركها العقل ، وأنه لا يجوز اتخاذه سبباً للشك أو التوقف والتردد أو الإنكار والانغلاق وعدم التفتح للإيمان المطلق بالله الخالق وما عنده من اقتدار .

والعالم المادى هو مجلى ظهور الله وعلمه وقدرته وحكمته ورحمته للعقل البشرى ، لأنه مجال عمليات الخلق والتقدير والتكوين والتشكيل التى تبدو فى « عالم الخلق » للإدراك الحسى لدى الإنسان ، وعمليات الخلق والتكوين هذه تصدر عن « عالم الأمر » ويشير إلى هذين العالمين معاً قول القرآن : (أَلَا لَهُ الخَلْقُ والأَمْرُ » ويشير إلى عالم الخلق وحده قوله : « وخَلَق كلَّ شىءٍ فقَدَّرَهُ تقديرًا) ، وقوله : (أَعْطَى كلَّ شَىْءٍ خَلْقَه ثم هَدى) ويشير إلى عالم الأمر وحده قوله : (إنَّما أمرُه إذا أَراد شيئًا أن يقولَ له كن فيكون » ، وقوله : « إنما قولُنا لشىءٍ إذا أردْناه أن نقول له كن فيكون) .

الروح صاعدة من المادة لا هابطة إليها

مقالة القرآن فى خلق الكائن الإنسانى بجسمه وروحه من طين الأرض وعناصرها وأخلاطها . مقالة واضحة صريحة لا لبس فيها ولا غموض . . . ومع ذلك قد مضى هذا الدهر ، الطويل على العقل الإسلامى بعد بداهته الفطرية وصحوه العربى وقت نزول القرآن وقبل أن تلحقه تهويمات الأمم وشطحات الشعوب الأخرى ، وهو غافل عن تلك الحقيقة الواضحة التى يقررها القرآن . تاركًا للعقل العلمى الحديث أن يصل إلى ما كان يجب أن يصل إليه هو قديمًا قبل غيره ، فيزيل أسباب الشك والجدل الطويل الذى ثار بين العقل الدينى بوجه عام والعقل العلمى ؛ جدلا قد ينتهى بالثانى إلى الإلحاد والإنكار لأصول المعتقدات الدينية بجملتها بحجة أن ذلك الرأى المزعوم للدين فى الروح ووجودها المستقل قبل اتصالها بالجسم ، رأى يخالف رأى العلم ولا يتفق مع سنن التركيب المادى لأجسام الأحياء ، والنشأة الفطرية الظاهرة لها ، ولا مع طبيعة نشوء الإنسان ونموه وخروجه من ذهول الطفولة وجهل الصبا وطيش الشباب وعقل الرجولة إلى الدور الأخير من حياته ، دور الهرم والتهدم والارتداد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم بعد علم شيئا .

فهو رأى يزيد فى الهوة المصطنعة بين العلم والدين الصحيح فضلا على أنه يضيف إلى نطاق الغيبيات مالا ضرورة لدخوله فيه ، وما لم يأت به علم أو كتاب وحى إلهى مبين . . . إذ أن نشأة الإنسان والحيوان والنبات هى من عالم المشاهدة والصحو العقلى الذى اعتمد عليه القرآن فى إثبات علاقة الآيات والعجائب الظاهرة التى تملأ جنبات الحياة بالخالق المنشىء ، وفى إثبات دلالتها القطعية على وجوده وعلمه وقدرته وإرادته . . .

ومنشأ هذا الرأى أن العقل العربى ، بعد أن تسربت إليه أوهام الأمم والشعوب الأخرى فى العصر العباسى ، أخذ يفقد هذه الميزة الكبرى ميزة الصحو العقلى ورشد الإدراك لظواهر الطبيعة ، ويقول مقالات تلك الشعوب فى أمور خطيرة ، كخساسة المادة وشرف الروح ، واستقلال جوهرها ، ووجودها القديم ، وعلمها وحكمتها وطهارتها ، وهبوطها من العالم الأعلى ، وانطلاقها منفصلة من ذات الله

وحلولها فى الأجسام، وتناسخها وتنقلها فى درجات الإنسانية والحيوانية مرة بعد مرة ، على نحو ما ذهب إليه بعض الفلسفات والصوفيات ، مما أدخل العقل العربى والعقل الإسلامى فى « جحور الضباب الحربة » المظلمة التى ليس فيها ذلك الوضوح فى رؤية معالم الكون وحدوده كما يجليها القرآن للعقل الصاحى والفؤاد اليقظان . . . فإذا أبو العلاء المعرى ، مع أنه من العقليين ، يقول :

تجاور هذا الجسم والروح برهة فما برحت تأذى بذاك وتَصْدَأُ

وإذا بشيخ الفلاسفة والأطباء الإسلاميين (ابن سينا) يرسل رأيه فى الروح وجوهرها واستقلالها وإدراكها وعلاقتها بالجسم وسجنها فيه وتبرمها به ، فى تلك القصيدة العينية المشهورة :

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاءُ ذات تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف وهى التى سفرت ولم تتبرقع
وصلت على كُرْهٍ إليك وربما كرهت فراقك وهى ذات تفجع
أنفت وما أنست فلما واصلت ألفت مجاورة الخراب البلقع
وأظنها نسيت عهودًا بالحمى ومنازلا بفراقها لم تقنع
حتى إذا اتصلت بهاء هبوطها فى ميم مركزها بذات الأجرع
علقت بها ثاء الثقيل فأصبحت بين المعالم والطلول الخضع
تبكى إذا ذكرت عهودا بالحمى بمدامع تهمى ولما تقطع
وتظل ساجعة على الدمن التى درست بتكرار الرياح الأربع
اذعاقها الشَّرَكُ الكثيف وصدَّها قفص عن الأوج الفسيح المربع

إلى آخر تلك القصيدة التى هى أوضح تعبير عن الفكر الذى شاع بين المسلمين عن « الروح » فى العصور التى تلت عصر الفطرة والبداهة التى نزل عليها القرآن ، والذى ظل مسيطراً على أغلب الأفكار منذ تلك العصور للآن .

وأمثال معانى هذه القصيدة تسربت إلى العقل الإسلامى من فلسفة أفلاطون والإشراقية الحديثة عن وجود « عالم المثل » ومن الآراء الهندية الهائمة التائهة فى

الوثنيات ، والتى صاحبها اختلاط التفكير وغيام الذهن من أثر الرياضة العنيفة التى تلجأ إليها سعياً وراء الخلاص والانطلاق من منطق المادة .

وقد ظل العقل الإسلامى أسير هذه التخليطات البعيدة عن منطق العلم ومنطق القرآن ، وذهبت عقول كثيرة ضحايا لهذه التخليطات ، كعقل « الحلاج » الذى هو أوضح مثل لاختلاط العقل حين يعتنق مذهب (الحلول) وكعقل(محي الدين ابن عربى) فى القديم وعقل (معروف الرصافى) فى الحديث وهما من أمثلة الاختلاط الذى يصيب عقل من يعتنق مذهب « وحدة الوجود » .

وقد كان مبعث هذه الأوهام التى تسربت إلى عقل الإنسان فى جميع العصور فصرفته عن الفطرة ومنطلق العلم فى إدراك شأن الروح ، هو ذلك الشعور بالفارق العظيم ومدى الانتقال بين حالة المادة وجمودها وكثافتها وعماها وعدم إدراكها ، وبين حالة الإنسان الحى مثلا بعد أن تلبسه الحياة فتجعله ينمو ويتحرك ويتنفس ويشعر ويدرك ويتفتح عن كائن معنوى عاقل خصيم مبين ، يتطلع إلى ما وراء عالمه المادى ويتناول المادة بالتنقيح والتهذيب والتوليد ، بما أودع فيه من قوة الخلق والابتكار واكتشاف المجهول واكتناه الأسرار ، مما جعل عقل الإنسان نفسه يحار ويتساءل عن نفسه وعن الحياة وكيف استُحْدِث الروح والعقل من هذه المادة الجامدة الصماء العمياء ! !

وحق للعقل أن يقف هذا الموقف ويحار هذه الحيرة ويتلمس أسباب التفسير لهذه الظاهرة العجيبة ويرتمى فى سبيل الوصول إلى ذلك فى مرامى الظنون والفروض البعيدة والغريبة بين فلسفة اليونان وصوفية الهنود . . . فإن العقل ما خلق إلا لهذا التساؤل والاستهداء وتلمس تأويل قصة الحياة وقصة منشئها ! وحتى العقل العلمى الحديث لا يزال واقفاً أمام لغز الحياة ونشوئها نفس موقف التساؤل والحيرة وتلمس أسباب نشوئها ، على طريقته وأسلوبه . . . ولا يزال عاجزاً عن تفسير هذا اللغز ، وقد ذهب بعضه فى تعليل ظهور الحياة على الأرض إلى أن جرثومة الحياة ربما تكون قد سقطت إلى الأرض عالقة بجسم قد هوى إليها من السماء ، ثم نمت وتكاثرت وتعقدت فى أطوار النشوء والترقى حتى وصلت إلى الحيوانات العليا .

وهكذا عدنا إلى هبوط للحياة والروح من عالم أعلى ، ولكنه هبوط من نوع آخر غير ذلك الذى ذهب إليه أفلاطون وابن سينا ، وكأن مادة السماء لم يثبت العلم

ذاته أنها هى نفس مادة الأرض بعناصرها وخصائصها، فنشوء الحياة منها هو أيضاً يحتاج إلى مثل هذا العناء والفروض التى ذهب إليها العلم والفلسفة والتصوف . . .

وإن هذا الأمر فى غاية البساطة إذا اهتدينا بضوء الحقيقة التى سبق أن وجهنا الأنظار إليها ، وهى أن ظهور الحياة والروح ليس أعجب من ظهور المادة ، وأن خلق الإنسان والحيوان ليس أكبر من خلق السموات والأرض، حتى نحار فيه وحده، وإذا ما اهتدينا كذلك بضوء حقيقة أخرى هى أيسر الوسائل للوصول إلى حل جميع ما نلاقيه فى الحياة من ألغاز وأسرار ، ألا وهى تصوير القرآن لقدرة الله الخالق تصويراً مأخوذاً عن المدى اللا نهائى للصنع الدقيق والجليل والهائل فى التركيب المادى للكون ، وأن ليس شيء أمام قدرة الله بمستحيل إذا أراده وقال له كن !

وحسبنا أن نذكر من القرآن هذه الآيات : (لَخَلْقُ السموات والأَرضِ أَكبرُ من خَلْقِ الناسِ ولكنَّ أكثرَ الناس لا يعلمون) ، (أَوَ لم يَرَوْا أَن الله الذى خَلق السموات والأَرضَ قادرٌ على أَن يَخْلُقَ مِثْلَهم ؟ !) ، (فاسْتَفْتِهِمْ : أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَنْ خَلَقْنَا ؟ إنا خلقناهم من طِينٍ لازِبٍ) ، (أَأَنتم أَشَدُّ خَلْقًا أَم السماءُ بَنَاهَا ؟ !) ، (إنما قَوْلُنا لشىءٍ إذا أَرَدْنَاهُ أَن نقولَ له كُنْ فيكون) ، وما (أَمْرُنا إلا واحدةٌ كَلَمْحٍ بالبصَرِ) ، (ما خَلْقكُم ولا بَعْثُكُم إلا كَنَفْسٍ واحدةٍ) ، (فإنَّما هى زَجْرَةٌ واحدةٌ فإذا هم بالسَّاهِرَة) ، (ونُفخ فى الصُّورِ فَصَعِقَ من فى السمواتِ ومن فى الأَرض إلا من شاءَ الله) ، (ثم نُفِخَ فيه أُخْرَى فإذا هُمْ قِيامٌ ينظرون) ، (وما قَدَرُوا اللهَ حقَّ قَدْرِه ! والأَرضُ جميعًا قَبْضَتُه يومَ القيامة ،والسمواتُ مَطْوِيَّاتٌ بيمينه) ، (وَسِعَ كُرْسِيُّه السمواتِ والأَرضَ) .

فلا داعى إذن لتوقف العقل الدينى المنحرف عن منطق القرآن ، ولا لتوقف العقل العلمى هذا التوقف الطويل للتساؤل عن المعبر الذى عبرت عليه الحياة إلى المادة فكان النبات والحيوان والإنسان ، بعد أن علمنا أن أى وجود مهما عظم لا يعدو

أن يكون استجابة حتمية « لأمر » من الله الخالق يصدره إليه أن يكون فيكون . . . وبعد أن علمنا كذلك أن نشوء الكائن الإنسانى بجسمه وروحه من المادة وحدها لا يجوز أن يُزْرى بقيمته أو يقلل من شأن الصنعة فيه ، بل على العكس إن نشوءه من المادة هو أعظم ما يثير العجب ويأخذ بالألباب إلى التساؤل والاستغراق فى التفكير والإسراع إلى الإقرار بقدرة الخالق التى تخرج من الطين اللازب والحمأ المسنون والماء المهين هذا الكائن السميع البصير الخصيم المبين الذى علمه الله الأسماء كلها لما فى غيب السموات والأرض ، وأسجد له الملائكة تكريماً وتشريفاً ، وفتح له أبواب الطبيعة ومغاليق أسرارها !

فيجب أن يزول من الأذهان ذلك الوهم والزعم القديم بأن عالم المادة عالم خسيس ، لا يليق بشرف الروح أن ينبثق من ظلماته وكثافاته وأمشاجه وأخلاطه ، وذلك الزعم بأن الروح جوهر مستقل عن الجسم قد هبط إليه من العالم الأعلى ليسجن فيه ويتعذب ويشقى بجواره برهة من الزمن ، ثم يتناسخ بعدها ويتقمص أجساماً أخرى إنسانية وحيوانية . . . إلى آخر تلك الشطحات . . .

والأمر قبل ذلك وبعده أمر نصوص قرآنية صريحة متواترة فى تكوين الإنسان وإنشائه من طين الأرض وحدها . وللعلم بعد ذلك أن يحاول بأسلوبه وأدواته تفسير ذلك النشوء باجتماع حالات كيمائية وحيوية (بيولوجية) وعضوية (فسيولوجية) ومناخية ، وبترتيبها ترتيباً بتوجيه و«أمر» من الخالق الذى (أعطى كُلَّ شيءٍ خَلْقَهُ ثُم هَدى) .

مزيد من القرآن
فى نشوء الروح من المادة

قلنا إن نشوء الكائن الإنسانى فى رأى القرآن كنشوء النبات والحيوان ، وروح الحياة واحدة فى الجميع ، والعجب منها واحد ، لأنها ظاهرة كبرى من ظواهر الطبيعة تستلفت النظر وتثير التأمل وتستحق الانبهار ! لأن هنا حداً فاصلا واضحاً فجائياً بين الجماد الذى لا يتحرك ولا يحس ولا يتنفس ولا ينمو وبين النبات والحيوان والإنسان الذى لابسته الحياة فتحرك ونما وأحس وتنفس .

وظهور الحياة والروح من هذا الطين الميت عملية لا يختلف تقدير سر الصنعة فيها ، لأن التحول والصيرورة من الجماد والموات الذى فى المادة إلى الحياة وحركتها ونموها ، أمر واحد حاسم .

وقد وقف العقل الدينى والعقل العلمى المادى ، كما سبق القول ، أمام ظاهرة الحياة الوقفة الواجبة ، ولكنهما افترقا فى طريقة تقبلها وتعليلها .

أما العقل الدينى فعنده القدرة على عبور كل فجوة لا يستطيع عبورها بأدوات « العلم » ، وكل سر لا يستطيع تفسيره وتعليله حسب التجارب المادية ، وذلك بإحالته إلى قدرة الله وقوله للشىء كن فيكون . . . وليس شىء عند العقل الدينى القرآنى أعجب من شىء آخر فى حقيقة الأمر ، فليس ظهور الروح أعجب من ظهور المادة ، كما سبق القول .

والذى أخرج المادة ذات التعاجيب والتهاويل والأسرار التى تتمثل فى السموات والأرض ، لا يقف العقل الرشيد أمام خلقه للروح وقفة حيرة وتردد أشد من وقفته أمام خلق المادة ، بل الأولى أن تكون الوقفة أمام المادة أشد حيرة وانبهاراً ، لأنها ظهرت من عدم ، أما الروح فقد ظهرت بعدها منبثقة منها ، فهى مسبوقة بشىء أعظم منها وأوسع رحباً وامتلاء بملايين الأسرار والظواهر . . . شىء هو فى قانون التطور والتدرج مُنبثِق لها ، وهى نتاج من تجمع بعض عناصره وأخلاطه وأسراره ، ومن تركيبها بنسب معينة .

وأما العقل العلمى المادى فقدلجأ إلى إلحاحه وبلجاجه وإصراره على تعليل وجود كل شيء تعليلا مستقلا عن إرادة الله وقوله له : كن . . . ولذلك لا يزال هذا العقل المادى واقفاً لا يَـريم أمام الروح والحياة ولم يصل إلى حل لسرهما ، وأغلب الظن أنه لن يصل فى تعليل ظهور الروح والحياة إلى أكثر مما وصل إليه العقل الدينى القرآنى واستراح . . . لأن الموقف كما قلنا على حد فاصل واضح بين الجماد والحياة ، والتحول والصيرورة من الجماد إلى الحياة لا يمكن تعليله إلا بإسناده إلى إرادة الله .

وثبوت تلك الإرادة العليا وعلاقتها بالتركيب المادى للكون قد تناولناه فى الأبحاث السابقة فى « البعد الأول » من أبعاد المادية الإسلامية .

وكما قنع العقل العلمى بوقوفه أمام الحدود الفاصلة بين عناصر المادة وظواهرها ، وأسرارها وأوضاعها وقوانينها من غير أن يرى فى ذلك غضاضة عليه وقصوراً منه ، لأن تلك الحدود هى من طبيعة الكون التى وجد عليها ولا يمكن تعليلها إلا بإرادة الخالق أن تكون هكذا ؛ كذلك يقتضيه الإنصاف والاحترام لنفسه أن يقنع بأن الحياة أو الروح ، هي من أمر الخالق ، وأمرها يدرك بالبداهة كدليل آخر على وجود إرادة عالمة قادرة توسع من رحاب الكون المادى الجامد بتوليده وتشقيقه وكشف كوامن علومه وأسراره ، وبإضافة أبعاد الحياة والروح ، وخاصة الروح الإنسانى الذى جعل الأكوان كأنها بعدد العقول . . . وصار عاملا عظيماً من عوامل التكوين والتخريب والزيادة والتنقيح واختزال الأبعاد والمسافات والتطلع والتفتح الدائم والتغيير والخروج عن الدورات الأبدية والرتابة التى فى الكون . . . فلا داعى إذن إلى التوقف الطويل الحائر المرتاب ، بحثاً عن المعبر الذى عبرت عليه الحياة إلى المادة ، فكان النبات والحيوان والإنسان .

وبما أن عملية الخلق والتنويع فى الكون واحدة فى الواقع . . . فقد قرن القرآن دائماً وجوه التماثل فى خلق النبات والحيوان والإنسان ، بل إنه قرن جميع الكائنات ، سواء أكانت مادة جامدة أم مادة لابستها روح الحياة فيقول :

(ما ترى فى خَلْقِ الرحمٰنِ من تَفَاوُتٍ) .

بل هناك ما هو أعجب من هذا . . . إنه يقرن بين الوجود والعدم ، ويرى فى كل منهما نفس الدلالة على إرادة الخالق وحكمته فيقول :

(الذى خلق الموتَ والحياة ليبلوَكُم أيُّكم أحسنُ عملًا) ، (وجعل الظلماتِ والنورَ) . . .

فالموت والظلام وغيرهما من العدميات والسلبيات « مخلوقة » أيضاً لله ، أخرجتها إرادته وجعلتها أطرافًا « سالبة » مع الأطراف « الموجبة » فى الوجود ! !

أما ماذا قبل الظلام والموت ، فالله وحده يعلم ! لأن العقل البشرى لا يستطيع أن يرى شيئًا فى هذا العماء . . لأنه لا يملك أداة للخوض فيه .

ونمضى الآن إلى استعراض فيض من القرآن يبين أن الإنسان بجسْمه وروحه ناشئٌ من طين الأرض ، شأنه شأن النبات والحيوان ، وأن الروح صاعدة منه وليست هابطة من عالم آخر .

يقول القرآن :

(والله أنبتكم من الأَرضَ نَباتًا) ، (هو أَنشأَكم من الأَرض واستعمركم فيها) ، (وترى الأَرضَ هامدةً فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزتْ وَرَبتْ ، إن الذى أحياها لمُحيى الموتَى) ، (وضربَ لنا مثلًا ونَسِىَ خَلْقَهُ ، قال : من يُحْيِى العظامَ وهِى رَميم ؟ قل يُحييها الذى أَنشأَها أَولَ مَرَّةٍ وهُو بكل خَلْقٍ عليمٌ . الذى جعل لكم من الشجر الأَخضرِ نارًا فإذا أنتم منه تُوقِدُون . أَوليس الذى خلقَ السمواتِ والأَرضَ بقادر على أن يخلُق مِثْلَهم ؟ بلىٰ وهو الخلاق العليم إنما أَمرُه إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون ، فسبحان الذى بيده مَلَكُوتُ كلِّ شىءٍ وإليه تُرجعون) ، (فانظر إلى آثار رحمةِ الله : كيف يُحْيِى الأَرضَ بعد موتها ! إن ذلك لمُحيِى الموتَى وهو على كل شى قدير) ، (ما خَلْقُكم ولا بَعْثُكم إلا كنفسٍ واحدة) ، (فلْيَنظُرْ الإنسانُ مِمَّ خُلق . خُلِق من ماءٍ دافقٍ) ، (قُتِلَ الإنسانُ ما أَكفَره ! من أَىّ شىءٍ خَلَقه ؟ من نُطْفةٍ خَلَقَه فقدَّره » ، « فلْينظر الإنسانُ إلى طعامِه . أَنَّا صَبَبْنَا الماءَ صبًّا . ثم شَقَقْنَا الأَرضَ شقًّا . فأَنبَتْنَا فيها حَبًّا وعِنبًا وقَضْبًا . وزيتونًا ونخلًا .

وحدائقَ غُلْبا . وفاكهةً وأبًّا) ، (ومِنْ آياته أن خَلَقَكُم من ترابٍ ثم إذا أنتم بشَرٌ تَنْتَشِرُون) ، (وبدأ خلقَ الإنسانِ من طينٍ ، ثم جعل نَسْلَه من سُلَالَةٍ من ما مَهِينٍ . ثم سَوّاهُ ونَفَخَ فيه من رُوحِه) ، (واللهُ خَلق كلَّ دابةٍ من ماءٍ) ، (وهو الذى خلق من الماء بَشَرًا فجَعَلَهُ نَسَبًا وصِهْرًا) ، (إنى خالقٌ بَشَرًا من طين) ، (إنى خالقٌ بشرا من صَلْصَال من حمإٍ مَسْنون) (خَلق الإنسانَ من نطفة فإذا هو خَصِيمٌ مُبينُ) ، (واللهُ أخرجكم من بطون أمهاتِكم لا تَعْلمونَ شيئًا) ، (منها خلقناكم وفيها نُعِيدُكم ومنها نُخرجكم تارةً أخرى) ، (يا أيها الناسُ إن كنتم فى رَيْبٍ من البَعْثِ فإنَّا خلقناكُم من ترابٍ ثم من نطفةٍ) إلى قوله تعالى : (وترى الأرْضَ هامدةً ، فإذا أنزلناعليهاالماءَ اهتزتْ وَرَبَتْ وأنبتتْ من كل زَوْجٍ بهيجٍ . ذلك بأن الله هو الحقُّ وأنه يُحْيِى الموتَى) ، (أَو لم يَرَوْا كيف يُبْدِئُ الخَلْقَ ثم يُعيدُه؟ ! إن ذلك على اللهَ يسيرٌ . قلْ سِيرُوا فى الأرْضِ فانظُرُوا كيف بدأ الخلقَ ثم اللهُ يُنْشِئُ النشأةَ الآخرَةَ) .

وهكذا يمضى القرآن فى استعراض عام لعملية الخلق بدءاً وإعادة ليوضح أن عملية خلق الحياة وبث الروح فى النبات والحيوان والإنسان واحدة ، وأنها عملية مادية تركيبية لابسها « أمر » من الله الذى يصدره للأشياء فتكون ، فانبثق منها الروح وسارت فى نطاق السنن والقوانين التى وضعها الخالق لنمو حياتها وحفظها وتسلسلها .

وهذا التواتر من آيات القرآن على معنى خلق الإنسان من طين الأرض ، لا يدع مجالا للشك فى أنه بظاهره وباطنه هو من آثار صنع الله فى مادة الأرض ، لإبراز ما فيها من أعاجيب وأسرار ، وأنه ليس هناك شىء من عالم آخر فى هذا الكائن إلا « أمر » الله إليه أن يكون .

وعلى هذا لا تكون روح الحياة فى الإنسان جوهراً مستقلا هابطًا من عالم آخر كما كان الزعم القديم الذى أوضحنا بطلانه ، وإنما هى « نتيجة » نشأت من اجتماع

حالات كيميائية وحيوية وعضوية خاضعة لعوامل وأسرار تكوينية فى التركيب المادى رتبها الخالق المنشئ لتنتج هذه النتيجة الطبيعية : روح الحياة .

وهذا الترتيب لمقدمات هذه النتيجة هو معنى من معانى « الأمر » الذى يجرى عمليات الخلق والتكوين فتستجيب له الكائنات كما يريد الخالق .

وما يَدِق ويخفى سره وتعليله بأسباب ظاهرة، يحيله القرآن دائمًا إلى عالم « الأمر » (قالت يا ويلتا ! أألِدُ وأنا عجوزٌ وهذا بَعْلِي شَيْخًا ؟ ! إن هذا لشىء عجيبٌ ! قالوا : أتعجبين من أَمْر الله؟) . (قل الروحُ من أمر ربى) ، وجميع أسرار التكوين وقوانينه صدرت من علم الخالق وإرادته « وأمره » . . . وحينئذ يجب ألا يكون لدى العقول تكلف ولا معاناة فى تلمس أسباب ظهور الكائنات وكيفيات خلقها، ولا تَوَقُّفٌ بشك أو ريب . . . وإنما هنا لَمْحٌ بالبداهة وتسليم بقدرة الخالق وإدراك بصير مطمئن لاستجابة كل كائن ليده و« أمره » .

أما ما يظهر سره للحواس والتفكير التعليلى فيجعله القرآن فى عالم الخلق والتكوين .

وبالإجمال : عالم الأمر هو الذى صدرت عنه قوانين التكوين وتصميماته وتخطيطاته ، وعالم الخلق هو الذى تصدر إليه إرادة التكوين وتسيره قوانينه ؛ فعالم الأمر لا تعليل معه ولا تكلف ولا معاناة لاستدلال أمامه ، بل تسليم وإدراك بالبداهة .

وعند لمح يد الخالق وأمره وراء كل شىء لا يلبث خلق كل شىء مهما عظم وجل سره أن يبدو هينا عاديًا لا يدعو إلى التوقف المرتاب المستنكر أو الساخر المستهين، وإن كان يدعو إلى التوقف المتعجب المتفتح (بل عَجِبْتَ ويَسْخرون!) ، (وهو الذى يبدأُ الخلقَ ثم يُعيده وهو أَهْوَنُ عليه) ، (قال رب أنَّى يكونُ لى غلامٌ وقد بلغنى الكبرُ وامرأتى عاقر ؟ ! قال كذلك قال ربُّكَ هو عَلَىَّ هَيِّنٌ ، وقد خلقتُكَ من قبلُ ولم تَكُ شيئًا) .

(إن مَثَلَ عيسى عندَ اللهِ كَمَثَلِ آدمَ خَلَقَهُ من ترابٍ ثم قال له كن فيكون) .

إذن فلا سدود ولا قيود أمام إرادة الخالق وأمره . ولا حدود لقدرته ، ولا قوالب محدودة لصنعته وإنما هو (يَزِيد فى الخَلْق ما يشاءُ) . (يمحو الله ما يشاءُ ويُثْبِتُ ، وعندَهُ أُمُّ الكتابِ) .

ولا ضير على الروح ولا تحقير لها أن تكون منبثقة صاعدة من المادة بأمر الله ، لاهابطة إليها من عالم آخر . . . بل إنه ، كما سبق القول . يكون صعود الروح من المادة أعجب من هبوطها إليها .

« وبعد » فحين يكتشف العقل اليوم رأى القرآن فى نشوء الروح من المادة بدليل كذا وكذا من الآيات ، يكون مقرراً لحقيقة علمية أساسية غفل عنها المسلمون بعد عهد صحوهم الأول ، وأخطأوا الطريق إليها دهراً طويلا ، فضلوا فى متاهات الفروض والظنون والشطحات ، وحرموا الإنسانية من معرفة تلك الحقيقة مبكراً على أيديهم ، وجعلوا العقل المادى يمضى فى إلحاده بعيداً عن الربانية ، وتشقى نفسه فى تعليل ظهور الحياة والروح ، ويتوقف أمامها هذا التوقف الطويل المرتاب ، ويقيم على ذلك التوقف والارتياب أساساً من أسس إلحاده وإنكاره للخالق . وذلك حين يسمع قصة ما نزل بها وحى ولا علم ، هى أن الروح جوهر مستقل عاقل حكيم مخلوق قبل الجسم ، هابط إليه من عالم آخر ليسجن فيه ويتأذى ويتعذب ويكابد الشقاء ، على نحو ما تضمنته قصيدة (ابن سينا) العينية التى سبق ذكرها .

وإقامة الحجة على بطلان المادية الإلحادية التى تتهم العقل الدينى باعتماده فى فهم الكون والحياة على مثل هذه الأوهام والخرافات والأساطير ، لا تكون فى هذا العصر إلا بتقديم رأى القرآن فى البناء المادى للكون ، وفى النفس والحياة بنصوصه القاطعة الصريحة المجردة من غيوم الوهم الإنسانى الشارد مع فروض الفلسفات ، والصوفيات المغالية والآراء التى كان العقل يتخبط بينها قبل نزول القرآن .

ذلك لأن حديث القرآن قد أوضح معالم الكون والنفس والحياة ، وجعل العقل يراها رؤية واضحة ويندفع اندفاعات قوية إلى عهد « العلم » بمعناه العصرى المحدد الذى صارت له وحده الآن الهيمنة والسلطان على حياة الإنسان وتفكيره وعمله ، وانتصر به انتصاراته الهائلة ، مما يخيل إليه أنه صار مستغنياً بنفسه وعلمه عن التفكير فى الخالق والتعرف إليه والتعبد له ، فيمضى فى حياته فى ذهول عن تذوقها

تذوقًا حقيقيًّا وتعليل وجودها وموتها تعليلا صحيحًا، وفى غرور وإفلك واعراض عن منشئها وسيدها . . على نحو ما قال (تيتوف) أحد رواد الفضاء الروس : « إنه خلال رحلته حول الأرض لم ير شيئاً يجعله يعتقد فى وجود الله » وقال : « إننى لا أعتقد فى وجود الله . . . إننى أومن بالإنسان . . . بقوته وإمكانياته . . . » وعلى نحو ما قال من قبله الرائد السوفييتى الآخر (نيكولاييف) حينما سألته امرأة هل رأيت الله فوق ؟ فأجابها : « إننى لم أر غير نيكولاييف ! » .

وهذان القولان يكشفان عن مقدار الطفولة والقصور فى العقل غير الدينى ، وخاصة غير القرآنى ، عن التصور الواجب للخالق ، وكأن ارتفاع بضعة آلاف من الأميال أو ملايين الأميال سيقرب رؤية الإنسان لله بعينيه! وكأن هناك شيئًا غير العقل والبصيرة يمكن أن يدرك الله ويحكم بوجوده هنا فى الأرض أو عبر الفضاء الكرنى وإن لم يره بعينيه! وكأن ما فى الأرض من آيات وأعاجيب لا يكفى للإيمان بوجود الخالق ! وكأن الإنسان قد خلق نفسه وخلق إمكاناته وقدراته التى اغتر بها تيتوف ! وكأن إمكانيات الإنسان وقوته هى التى خلقت هذا الكون الكبير وما فيه حتى جعلت (تيتوف) يؤمن بها وحدها ولا يؤمن بالله ! وكأن الإنسان يعيش وحده فى هذا الكون الهائل ! وكأنه فرغ من حل كل ألغازه وأسراره وخرج من أقطار سماواته وبحث فى جميع زواياه عن الله فلم يره !

وصدق القرآن . . وكأنما كان يخاطب هؤلاء المنكرين العصريين أيضًا : (الذى خلق الإنسانَ من نُطْفةٍ فإذَا هو خَصِيمٌ مبين) ، (أَمْ خُلِقُوا من غيرِ شىء ؟ أَم هم الخالقون ؟ أَم خَلَقوا السموات والأَرضَ ؟ بل لا يُوقِنُون أَم عندهم خَزائِنُ رَبِّك ؟ أَم هم المُسَيْطِرُون) .

ألا إنها طفولة عقلية مسكينة . . . نشأت فى كنف « المادية الجدلية » التى كان تقصير المسلمين فى إبلاغ المنهج القرآنى فى التذكير والاستدلال على وجود الخالق سببًا فى حرمانها من رؤية معالم الكون والنفس والحياة رؤية واضحة، وفى معرفة الله الخالق والإيمان به عن طريقها بيسر وسهولة وفطرة سليمة ما كان ليصدر عنها مثل قول (نيكولاييف) و (تيتوف) ومثل قول الرئيس (خروشوف) لبعض الصحفيين الغربيين فى احتفال سفارة بولندا فى موسكو سنة ١٩٦١ أو ١٩٦٢ بعيد

استقلالها : « إذا كان إلهكم موجوداً فلماذا لاينزل و يكنس أعداءكم بمكنسته ؟! » .

وهذا قول يكشف هو الآخر عن مدى الفراغ والضحالة والسطحية ، حتى لدى بعض رؤساء المذهب الشيوعى ، فى تصور الله الخالق وإدراك ما يجب له من صفات وكمالات !

وكأن (خروشوف) يتصور أن يكون الخالق هكذا ضيق الصدر ، ضيق الأفق ، غضوباً جباراً باطشاً بمخالفيه ومنكريه . . . يعجل عقوبته وانتقامه بمجرد اقترافهم المخالفة والإنكار ، على غرار ما يفعل الشيوعيون وغيرهم بمخالفيهم . . . وكأن الإله لايزيد على أن يكون شيخ خفراء أو « عمدة » فى قرية . . . أو رئيس شرطة فى « نقطة » . . . ومن نوع ردىء جداً لا يفهم مهمة الحاكم وما يجب أن يتصف به من حلم على المواطنين واحترام لحرياتهم وإنسانيتهم ، ورحمة وحكم بسطوة الحب لا بسيف الجلاد وسوطه ... حتى يجمع الشارد ويرد الآبق ويمسح بيد أبوته وطيبته على صدور الأعداء من رعيته فيشفيها من عداوتها وحقدها عليه ، ويرجع بها إلى رحاب الاعتراف والإيمان به ، وينجيها من الضياع والإهدار والطرد واللعن وسوء المنقلب !

روح . نفس . نسمة
ألفاظ عربية ذات دلالات مادية

من أوضح الدلالات على أن روح الإنسان ، صاعدة من المادة لا هابطة إليها ، أن كلمة (رُوح) أوكلمة (نفْس) أوكلمة (نسَمة) مشتقات من أصول ذات دلالات مادية فى اللغة العربية .

فكلمة (روح) مشتقة من الرَّوْح أو الرِّيح بمعنى الهواء الذى يتردد فى صدر الحى شهيقًا وزفيراً عند التنفس ، ويموت وتنقضى حياته إذا منع عنه .

وبما أن أوضح مظهر لحياة الحى هو ذلك الرَّوْح أو الريح والهواء الذى يدخل ويخرج من صدره ، فقد ربط الذهن العربى الرشيد بين الحياة وبين أوضح مظاهرها فسماها باسم ذلك المظهر . . . وهو الريح أو الرَّوْح . . .

وما يقال فى اشتقاق كلمة (الروح) يقال مثله فى اشتقاق كلمتى (نفْس) و (نسَمة) .

فكلمة (نفْس) مأخوذة من كلمة (نفَس) وهو دخول الهواء إلى صدر الحى وخروجه منه عند (التنفس) لأن أبرز مظاهر الحياة للنفْس هو النفَس .

وكلمة (النفْس) فى العربية تطلق على الإنسان بجسمه وروحه (هو الذى خلقكم من نفْسٍ واحدةٍ وجَعَلَ منها زَوْجَها) ، (كلُّ نَفْسٍ ذائقةُ الموت) ، (وما كان لنفْسٍ أن تَمُوتَ إلا بإذنِ الله) ، (ونفْسٍ وما سَوَّاها فألْهَمهَا فُجُورَهَا وتَقْوَاهَا) .

كما تطلق النفْس على الدم كما فى تعبيرات الفقه الإسلامى « وما لا نَفْسَ له سائلة إذا وقع فى الإناء ومات فيه فإنه لا ينجسه » أى وما لا دم له سائل .

ومنه (النُّفَساء) وهى الأنثى عند ما يسيل منها دم الولادة فى مدة (النِّفاس) .

وسر تسمية الدم بالنفْس أن الذهن العربى وجد أن حياة الإنسان والحيوان تنتهى ويموت بنزف دمه ، فربط العرب بين الأمرين واشتقوا بفطرتهم السليمة وذهنهم

الدقيق الرشيد اسمًا للحياة من اسم مظهر واضح من مظاهرها وهو الدم . . . كما فعلوا فى اشتقاق كلمة روح من الريح .

وكذلك كلمة (نسَمة) وهى كل كائن حى ، أخذت من (النسيم) وهو الريح اللينة الرقيقة لأن الحى يتنسمها عند التنفس والاسترواح .

وبما أن سر الحياة سر شديد الخفاء لا يُحَسّ ولا يُرَى ، وإنما تحس وترى آثاره ومظاهره ، فقد لحظ الذهن العربى أن يكون اسم هذا السر الخفى مشتقًا من اسم ألطف شىء مادى وأشده خفاء ، وهو الرَّوْح أو الريح أو النفَس أو النسيم الذى لم يدرك ذلك الذهن كنهه أيضًا ، ولكنه أدرك آثاره ومظاهره . . .

وعلى ذلك تكون لكلمات (رُوح) و (نفْس) و (نسَمة) دلالات مادية فى اللغة العربية ، لأن الريح والنفَس والنسيم هى أجسام مادية غازية ، والغاز هو ألطف أنواع المادة وأشدها خفاء .

ومن هنا ندرك سرًّا من أسرار نزول القرآن باللغة العربية التى لأذهان أصحابها هذه الدقة العلمية فى مراعاة اشتقاق الألفاظ ووضعها حسب العلاقات المادية ، وترجمتها المعبرة عن ظواهر الطبيعة .

ومن الملحوظ أنه لم يكن الحديث عن النفس أو الروح الذى به الحياة ، يدور عنهما فى عهد نزول القرآن باعتبارهما كائنين منفصلين عن الجسم ، لهما حياة مستقلة سابقة عليه أو لاحقة به كما حدث فيما بعد عهد صدر الإسلام ، حينما اختلط العرب بغيرهم من الأمم التى ليس لها رشد الذهن العربى وسلامة فطرته . . . ودقة تعبيره ، وقد دخلت فى الإسلام بكثير من شطحاتها وتهويماتها وتأويلاتها الصوفية والشاعرية للظواهر المادية . . . وحينئذ نشأ حديث انفصال الروح والنفس عن الجسم ، وأنها هبطت إليه من عالم المثل لتسجن فيه وتعذب مدة ثم تطلق لتعود إلى مصدرها .

وليس فى الأدب العربى الجاهلى فيما أعلم شىء من حديث الانفصال بين الجسم والروح أو النفس ، لأن البداهة العربية كانت تدرك أن مدلول كلمة الإنسان أو كلمة النفس يشمل الجسم وسرّ حياته ، وأنه لا انفكاك بينهما .

وكذلك القرآن لا حديث فيه إلا عن الإنسان أو النفس ونشأتهما من طين

الأرض أو من سلالة من الطين . ثم يموت ثم يبعث بكل ما فيه من الخصائص المادية ليعيش فى دور الحياة الثانية . ليمتع فى الجنة أو يعذب فى النار .

(وبدأ خَلْقَ الإنسانِ من طينٍ ، ثم جَعَلَ نَسْلَهُ من سُلالَةٍ من ماءٍ مَهِينٍ) ، (يا أيُّها الناسُ اتَّقُوا ربَّكم الذى خَلَقَكم من نفسٍ واحدةٍ وخَلَقَ منها زَوْجَها وَبَثَّ منهما رجالا كثيراً ونساءً) ، (ما خلقُكم ولا بعثُكم إلا كنفْسٍ واحدةٍ) ، (كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ وإنما تُوفَّوْنَ أُجورَكم يومَ القيامة فَمَن زُحْزِح عن النار وأُدْخِلَ الجنةَ فقد فاز) ، (وقال الذين كفروا : هل نَدُلُّكُم على رجلٍ يُنَبِّئُكُم إذا مُزِّقْتُم كُلَّ مُمَزَّقٍ إنكم لفى خَلْقٍ جديدٍ ! ؟) ، (وقالوا أئِذا كنا عظامًا ورُفَاتًا أئِنَّا لمبعوثون خَلْقًا جديدًا ؟ ! قل كونوا حجارةً أوحَديدًا أو خَلْقًا مما يَكْبُرُ فى صدوركم ، فَسَيقُولُون مَن يُعيدُنا؟ قل الذى فَطَرَكَم أولَ مَرَّة) ، (كما بَدَأَكُم تعودون) .

* * *

إذاً فالحياة واحدة هنا وهناك فى الآخرة بعد البعث من الموت ، حيث تبعث الأجسام مع سر حياتها الذى عاشت به فى دنياها ، وهذا السر صاعد من مادة أجسامها بأمر ربها الخالق وتدبيره .

وصعود هذا السر وظهوره من مادة الأجسام أشد إثارة للعجب والدهشة مما لو كان قد هبط من عالم الملأ الأعلى ، كما سبق القول .

وهذه الدورة الثانية لحياة الإنسان يقول عنها القرآن إنها دورة أبدية (ذلك يوم الخلود) ، (خالدين فيها ما دامت السموات والأرض) .

* * *

هذا ويمكن حصر المعانى التى لكلمة (روح) بالقرآن فى المعانى الآتية . وهى معان يجمع بينها جامع الخفاء والسرية واللطف وبث الحياة الحيوانية أو المعنوية :

فهناك (الروح) بمعنى سر الحياة الناشئ بأمر الله وتدبيره من تركيبات المادة وقواها وطاقاتها كما تبدو فى الحيوان والإنسان بل والنبات . . . على نحو ما بينا فى هذا الفصل وفى فصل « الروح صاعدة من المادة » . . . وقد عبر القرآن عن عملية

بتشها وبعثها فى مادة الحيوان والإنسان « بالنفخ» وذلك للتناسب الملحوظ بين النفخ وانبعاث « الريح » أو « الرَّوْح» من فم النافخ ودخوله فى الجسم المنفوخ وامتلائه منه ثم ارتداده وخروجه بالنفَس .

ومن هذا المعنى قول القرآن : (فإذا سَوَّيتُه ونَفختُ فيه من رُوحِى فقعُوا له ساجدين) ، وقولُه :(وإذ تَخْلُقُ من الطين كهَيْئَةِ الطَّيْرِ بإذنى فتنفخ فيها فتكونُ طَيرًا بإذنى) ، وقوله :(ثم سوّاه ونَفخ فيه من رُوحه) ، (والتى أَحْصَنَتْ فَرْجَها فنفخنا فيها من رُوحنا) .

فعملية خلقِ الحياة فى الجسم يعبر عنها القرآن بالنفخ ، للمناسبة التى ذكرناها .

وهناك « الرُّوح» بمعنى « الوحى» كما فى آيات القرآن الآتية :

(ويسألونك عن الرُّوح قل الروح من أمْرِ رَبِّى وما أُوتِيتمْ من العلم إلا قليلا. ولئن شئْنا لَنَذهَبَنَّ بالذى أوحينا إليك ، ثم لا تَجِدُ لك به علينا وكِيلا) ، (وكذلك أوحينا إليك رُوحًا من أمْرِنا) ، (يُلْقِى الرُّوح من أمْرِه على مَن يشاءُ من عباده ليُنْذرَ يوم التَّلاقِ) ، (يُنَزِّلُ الملائكةَ بالرُّوح من أمره على مَن يشاءُ من عباده : أن أنذرُوا أنه لا إلّه إلا أنا فاتقون) .

فالروح فى هذه المواضع كما هو واضح بمعنى الوحى بالقرآن والنبوات والرسالات .

وهناك « الرُّوح» بمعنى المَلَك « جبريل» الذى يحمل الوحى بالنبوة إلى رسل الله وأنبيائه . . . كما فى الآيات التالية

(نَزَل به الرُّوحُ الأَمين . على قلبك لتكون من المُنذرين . بلسان عربىٍّ مُبين) .

وهناك « الرُّوح» بمعنى « جبريل» أو بمعنى مَلَك آخر أكبر منه درجة وقدرة وسُلطة وهو أقرب الملائكة إلى الله كما فى قول القرآن :

(تَنَزَّلُ الملائكة والرُّوح فيها بإذن ربِّهم منْ كُلِّ أمْرٍ) ، وقوله : (تَعْرُجُ الملائكةُ والرُّوح إليه فى يوم كان مقدارُه خمسين ألف سنة) ، (يوم يقوم الرُّوح والملائكة صفًّا لا يتكلمون) ، (فأَرسلنا إليها رُوحَنا فَتَمَثَّل لها بَشَرًا سَويًّا) ،

وهناك(روح القدس) وهو (جبريل) أو الملك الأكبر كما فى قوله : (قل نَزَّلَهُ رُوح القُدُس من رَبِّك بالْحَق) ، (وآتينا عيسى بنَ مريمَ البينَاتِ وأَيَّدْناهُ برُوح القُدُس) ، (اذْكُرْ نعمتِى عليك وعلى والدتك إذ أَيَّدْتُكَ برُوح القُدُس) .

وهناك (الرُّوح) بمعنى القوى المعنوية المستمدة من الإيمان بالله وعِلْمِهِم قدسه وكمالاته وقدرته ورحمته كما فى قوله :

(أُولئك كَتَب فى قلوبِهم الإيمانَ وأَيَّدهُم برُوحٍ منه) ،(ولا تيأَسوا من رَوْحِ الله ، إنه لا ييأَس من رَوْحِ الله إلاَّ القومُ الكافرون) .

زوال الحدود المصطنعة بين الإيمان عن طريق المادة والإيمان عن طريق الروح

فى هذا العصر ، عصر سلطان العلم وظهور أسرار الكون المادى للعقل الإنسانى ، ووضوح رؤية معالمه ، وبناء كثير من المذاهب والمبادئ ، والآراء على الأسس العلمية ، ينبغى للدعوة الإسلامية الجديدة أن تلتزم خط التعريف بنفسها عن طريق العقل والعلم لأنه هو نفسه طريق القرآن .

وقد وضح واستعلن استعلانَ النهار أن القرآن أعظم سِفْرٍ دينى أقام دعوته على العقل والعلم وجعل الدين علمًا والعلم دينًا . . . فكانت أولى آياته نزولا صادعة آمرة بالدين ومعرفة الله الخالق عن طريق التأمل فى أسرار علمه التى أودعها فى خلق الكون والإنسان . وعن طريق التنويه والتوجيه إلى القلم : صانع أرصاد العلوم وخزائنها ، ومفتاح كنوزها وطلاسمها !

(اقرأْ باسم ربِّكَ الذى خَلَق . خَلَقَ الإنسانَ من عَلَق . اقرأْ وربُّكَ الأكرمُ . الذى عَلَّمَ بالقَلَم . عَلَّمَ الإنسانَ ما لمْ يَعْلَم) .

وبذلك جعل القرآن العلم طريق معرفة الله وجلاله والتعبد له ، بتتبع صنع يده القادرة وحكمته الباهرة ورحمته الغامرة .

ومن الكثرة الهائلة فى آيات القرآن الكريم التى توجه الأنظار والأفكار دائمًا إلى بدائع صنع الله فى التركيب المادى للكون ، نعرف مقدار اعتزاز الله واحتفاله بما صنع فى ذلك العالم ، ومقدار عنايته ببناء العقيدة الدينية على أساس العلم بذلك الصنع البديع .

وقد بنى الله الخالق تكريمه للإنسان وأمره الملائكة بالسجود له على اختصاصه بعلم جميع الأشياء وأسمائها كلها مما فى غيب السموات والأرض ، وهى تلك الأسماء التى وضعها الإنسان لآيات الله وكلماته الصامتة فى الكون ، وترجمها إلى عالم التعبير والبيان ، (خلق الإنسانَ . عَلَّمه البيانَ) ، (وعلَّم آدمَ الأسماءَ كلَّها) .

وحينما يرتد الإنسان عن نهج هذا العلم المادى الموصول بالله ، يسقط عنه تاج الكرامة والقدرة وتأكله الطريق وتضيعه الجهالات والتهويمات والشطحات والخرافات ، ويفسر الحياة والكون تفسيراً غير علمي ولاقرآنى ، ويتَرَوَّحُ يبحث عن عوالم أخرى وراء الكون المادى ، يلتمس منها الإيمان ؛ كأن ما فى السموات والأرض والنفس من آيات بينات لا تكفى فى التعريف بالله والإيمان به وبالمصير إليه !

وفى رأيى أن من أعظم أسباب تعويق العقول العلمية المادية المعاصرة وتعطيلها عن أخذ الوجهة الصادقة فى العقيدة الدينية ، هو هذا التفريق الذى يقدمه الدينيون المتأخرون بين ظواهر الحياة الإنسانية والكونية مادة وروحًا ، فيهدرون قيم مادة الأجسام أو يحتقرونها أو يمرون بها مروراً عابراً معرضًا لا يرى ما تضمه من عجائب وأسرار ، ويتطلعون إلى ما وراء ها من آيات الروح وعجائبها ، ثم يذهبون فى عالم التخيل السابح الحالم المنطلق وراء بَدَوَات الأوهام وشطحات الذهول ، تاركين عالم الصحو والواقع والإدراك القائم على حقائق التكوين المادى للكون والنفس والحياة ؛ تلك الحقائق التى هى طريق العلم واليقين وطريق القرآن فى استدلاله على الله الخالق وما عنده فى الملأ الأعلى .

وإنى أتساءل : هل لو رجعنا كل خصائص وجود الكون والإنسان — ما عدا وحى الله برسالاته وإلقاء أوامر التكوين إليهما —ظواهر وقوانين مادية لا صلة لها بغير المادة ؛ أكان ذلك يغض من قيمة الكون والإنسان ؟

وبعبارة أخرى : هل لو جعلنا الإنسان بظاهره المادى وباطنه الخفى المعنوى نتيجة لالتقاء مجموعة عناصر من المادة وقوانينها وتركيبها وتعقيدها ، وعرفنا أن حياته واهتزازه وتفتحه ونموه وإدراكه ، ما هى إلا نتيجة لاجتماع تلك القوانين والعوامل المادية التى وجدت والتقت بأمر الخالق وتدبيره وترتيبه ؛ أكان ذلك ينقص من قيمة العجب الذى يقف به العقل مبهوراً أمامها ؟

وهل ليس هناك ما يفسر له هذه العجائب والأسرار ويذهب عنه الدهش إلا أن يرى هذا كله هابطًا من عالم آخر ؟

إن الذى يثير اللوم والاعتراض على هذا الطراز من التفكير هو هذا التنقيص من قيم الظواهر والقوانين المادية وعدم الاقتناع بها عند الاستدلال على الله ، وهو

هذا التطلع الشره إلى كل ما هو غائب عن تلك العقول وراء التركيب المادى للكون قبل الفراغ من إدراكه هو واستيعابه . وهو هذا الإزراء والتقليل من شأن هذه الظواهر المادية التى لا تعد ولا تحصى ، والتى هى أعلام دائمة منصوبة لكلمات الله ، ومحاريب قائمة لإقامة صلوات الفكر وإثارة أشواق النفس له ! لأنها معجزات دائمة تُدْرَكُ بالحس والبداهة ، وهو أيضًا ذلك الإلحاح فى مطالب طفولية ، وعدمُ الاكتفاء فى الحياة بآيات كثيرات واضحات لا لبس فيها ، وانتظار عجائب من ورائها تتنزل من الملأ الأعلى أو حتى تنبثق من الأرض ، كما يحكى القرآن :

(وقالوا لن نؤْمنَ لك حتى تَفْجُرَ لنا من الأَرض ينبوعًا) إلى قوله : (أَو تأْتىَ بالله والملائكة قبيلا) وكما يقول : (وقال الذين لا يعلمون لولَا يكلمُنا الله أَو تأْتينا آيةٌ . كذلك قال الذين من قبلِهم مثْلَ قولِهم ، تشابهت قلوبُهم ، قد بيَّنَّا الآياتِ لقوم يوقنون) ويقول : (هل ينظرون إلا أن يأْتيَهُم اللهُ فى ظُلَلٍ من الغمامِ والملائكة) ، ويقول : (وقالوا لولا أُنْزِلَ علينا الملائكةُ أَو نَرَى رَبَّنا) .

وهكذا تمضى طفولية بعض العقول وتعنتها ووقاحتها وشرهها وملَلُها إلى استعراض سخيف لمطالب وظواهر تَرَى ملايينَ مثلها تملأ الحياة ، ولكنها لا تقتنع بها .

إن التركيب المادى للكون ما هو إلا مَعْرِضٌ دائم للآيات والبدائع ذات الدلالات الواضحة للعقول غير المؤوفة بآفات العمى والإعراض والعجلة والملل والسأم والتعنت ... وصدق القرآن :

(وكأَيِّنْ من آيةٍ فى السموات والأَرض يَمُرُّونَ عليها وهم عنها معرضون) ، (قل انظرُوا ماذا فى السمواتِ والأَرض ، وما تُغْنِى الآياتُ والنُّذُرُ عن قومٍ لا يؤْمنون) .

ومن أشد الوقاحات وقلة الذوق أن يدخل داخلٌ إلى رحاب مَعْرِضٍ أو مُتْحف حافل بالعجائب والبدائع الرائعة ، وقد دعاه إليه صاحبه وصانع روائعه ، فإذا به يسرع فى العبور بمعروضاته واجتياز ردهاته ، ولا يرى فيه شيئًا يعجبه ويقنعه ، بل يبدو عليه

الملل والسأم وعدم الارتياح لما فيه ، ويسرع إلى الخروج منه . . . ويروح يلتمس أسبابًا أخرى لتقدير صاحب المتحف أو المعرض خارج حدودهما . . .

ذلك شأن من يسرع فى اجتياز عالم الخَلْق ولا يرى فيه مقنعًا يقنعه ، ويبحث عما وراءه فى عالم « الأمر » والسر .

وإن التبرم بالكون المادى والزهد فى أسراره قبل الفراغ من إدراك الخلق والفن والعلم الإلهى فيه قلة ذوق ، بل وقاحة ترتفع إلى نوع من أنواع الكفر .

وفى ظنى أن ذلك أعظم مكايد ما يسميه الدين بالشيطان عدو الحياة والإنسان ، الذى يعلم أن عرش الإنسان الحقيقى الذى أجلسه عليه الخالق غداة يوم النشأة عندما علمه أسماء ذلك العرش وأسراره وكلماته وأمر الملائكة بالسجود له من أجل ذلك العلم ، هو عالم الخَلْق . . . عالم التركيب والتشكيل المادى للكون وأسراره وقوانين التكوين والتخريب فيه ، مما جعل الإنسان جديراً حقًّا بخلافة الله الخالق فيه .

إننا إذا وصلنا فى تنشئة العقول وتربيتها إلى أن نجعلها تدرك بتعمق وتذوق قيم الظواهر والقوانين والأسرار المادية فى الطبيعة والإنسان خاصة ، وربطنا بين رؤية تلك الظواهر والقوانين ورؤية يد الخالق وراءها دائمًا ، نكون قد هيأنا للعقل العلمى المادى وسائله الفعالة الحاضرة التى لا تحتاج فى حمله على الإيمان الكامل المستنير إلى غيبيات ومعجزات وكرامات ، ونكون بذلك قد جعلنا سبيل الدين والعلم واحدة كما جعلها القرآن ، وطمأنا العقول العلمية على التزامنا للمنهج العلمى وتقديره ، لأنه هو المنهج القرآنى ذاته .

وصفوة القول فى هذا الباب أن يكون تفكيرنا وإيماننا مبنيين على هذه الحقيقة الثابتة التى تمحو من أذهاننا صورة الحدود المصطنعة بين الإيمان عن طريق المادة والإيمان عن طريق الروح ، وأن نستحضر دائمًا أن مصدر كل شىء هو أمر الله إليه أن يكون ، سواء أكان ماديًّا أم غير مادى .

وصفوة الصفوة من هذا القول : إن المادة لا تقل إثارة للعجب عن الروح ، وأن آفة بعض العقول أنها لا تلتمس الإيمان إلا عن طريق خوارق العادات ، ولا تلتمسه مما التمسه منه القرآن وهو تلك الكثرة الهائلة التى لا تحصى من عجائب الكون المادى الدائمة . . . حتى إذا رأت معجزة خارقة لنبى أو كرامة لولى ، استيقظ

ما فيها من الإدراك والشعور ، ورأت أن هذا الخارق غير المألوف هو العجيب الوحيد الذى يحملها على الإيمان والتسليم . . . مع أن هذا العجيب الخارق للعادة فى رأى القرآن وفى رأى العقل البصير لا يقيم الحجة دائماً مثلما ما تقيمها العجائب المستمرة الدائمة فى الكون المادى الكبير .

من حديث القرآن عن أبعاد النفس الإنسانية

حديث القرآن عن الإنسان وأبعاد نفسه ، جانب كبير من مادته وبيانه . ونقتصر هنا على عرض بعض حديثه عن أبعاد فكر الإنسان وضميره ، لنثبت أكبر قضية أساسية فى بناء التفكير الدينى والفلسفة الإثباتية النظرية والعملية والقيم الخلقية ، لمواجهة مذاهب الهدم والشك التى لا ترى فى الوجود حقيقة واحدة ثابتة ، ولا قيمة ثابتة . ولا تدين إلا بالشك فى كل شىء ، ولمواجهة المذاهب المادية الملحدة التى لا ترى فى الوجود نور الله الخالق وأفعال يديه ولمعات علمه وفيوض روحه الأعلى على عقل الإنسان وضميره ، حتى جعل العقل شاهداً معه ومع ملائكته على الوجود وعلى إثبات حقائقه العليا كما قال القرآن : « شَهِد اللهُ أنه لا إلَه إلا هو والملائكةُ وأُولو العلم ، قائمًا بالقسْط ، لا إلَه إلاهو العزيز الحكيم » . وحتى جعل « الضمير » ميزانًا لقيم الخير والجمال والطهر :

(ولا أُقْسِمُ بالنفْس اللَّوَّامة) ، (بَلْ الإنسانُ على نفسه بصيرةٌ . ولو أَلْقَى مَعاذِيرَه) . . .

وحقًّا إننا لا نستطيع أن نثبت أية قضية دينية أو عقلية أو خلقية ، إلا إذا أثبتنا قيمة الإنسان ، لأنه عن طريق نفوس الأنبياء الذين هم خلاصة النوع ، وصلنا وحى الله وإرشاده ، وعن طريق نفوس العلماء وصلتنا أسرار الله فى خلق الكون وصنعه وتدبيره . فإذا أهدرنا قيمة الإنسان كما يهدرها الماديون الملحدون وأهل الشك فسنهدر نفسه وعقله وضميره ، وبالتالى سنهدر النبوة والقيم الخلقية التى وصلتنا عن طريق الأنبياء ، ونهدر العلوم والحقائق التى وصلتنا عن طريق العلماء والمفكرين ، وحينئذ لا يبقى أمامنا شىء نستطيع أن نؤمن بوجوده ، بل نعيش فى عالم من الشكوك والأوهام ليست فيه حقيقة ثابتة !

ومن هنا رأيت أن قيمة الإنسان هى القضية الفكرية الأولى التى لا بد من تقديم إثباتها وإقامتها أولا فى فكر الناس ووجدانهم ، ليتأتى بعدها بناء التفكير الدينى والعلمى بناء راسخًا لا يؤثر فيه جدل مكابر أو شك هدام . . .

لأنه إذا كان بعض الناس ينكر وجود الله لأنه لا يراه ، فكيف ينكر وجود نفسه ولا يؤمن بها وهو يعيشها ويحسها ملء شعوره وفكره ،ويراها رأىَ العين تملأ الأرض تكوينًا وتخريبًا وتكتشف وتخترع وتسخر قوى الطبيعة ؟! وإذا كان هذا النوع من الناس مضطرًّا إلى الإيمان بالإنسان وقدرته وعلمه برغم أنه يراه مخلوقًا يعتريه الحدوث والموت والعجز والنقص ، فكيف لا يرى أن خالق الإنسان والكون جدير بالإيمان بوجوده وعلمه وقدرته وتنزهه عن وجوه النقص والعجز التى فى الإنسان المخلوق ؟!

أو بعبارة أخرى : كيف لا يرى أن الكون الكبير وما يزخر به من آيات العلم والقدرة والحكمة والرحمة جدير بأن يثبت أن له إلهًا خالقًا وأن يلزم العقل الإنسانى بالاعتراف به ، مع أنه اضطر إلى الاعتراف والإيمان بالإنسان على ما فيه من نقص وعجز وجهل وفناء !؟ .

وسنوضح الآن موقف القرآن من هذه القضية الأساسية من ثنايا قصة خلق الإنسان واستخلافه فى الأرض كما أوردتها الآيات التالية :

(وإذ قال رَبُّك للملائكة إنِّى جاعلٌ فى الأَرض خَليفَةً ، قالوا أتجعلُ فيها من يُفسِدُ فيها ويَسْفِكُ الدماءَ ونحنُ نُسَبِّحُ بحمْدك ونُقدِّسُ لك ؟! قال إنى أَعلمُ مالا تعلمون. وعلَّم آدَمَ الأَسماءَ كلَّها ثم عَرَضَهُمْ على الملائكة فقال أَنْبِئُونِى بأَسماءِ هؤُلاءِ إن كنتم صادقين. قالوا سُبْحَانَك لا علم لنا إلا ما علَّمْتَنا إنك أَنتَ العليمُ الحكيم . قال يا آدمُ أَنْبِئْهُم بأَسمائهم ، فلما أَنبأَهم بأَسمائهم ، قال أَلَمْ أَقُلْ لكم إنى أَعلمُ غَيْبَ السمواتِ والأَرض وأَعْلَمُ ما تُبْدُون وما كُنْتم تكتمون. وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ،فسَجَدُوا إلا إبليسَ أَبى واستكبَرَ وكان من الكافرين) .

ومن هذه القصة العجيبة — التى لم ترد بتفاصيلها وجلالها ودقتها ولمحاتها ورموزها فى كتاب أى دين آخر — يثبت القرآن قيمة الإنسان وأثره فى إثبات حقائق الوجود وأسمائها ، كما يثبت شرف الإنسان وكرامته وفضله بين جميع الكائنات ، حتى الملائكة ، عن طريق العلم بما فى السموات والأرض من مشاهد وغيوب . . . وهو علم اختص الله به الإنسان وأظهره عليه وأخضع له به القوى العمياء والمبصرة ، إذ أمرها بالسجود له وطاعته فيما يصل إليه بعلمه وطهره .

وبذلك العلم أثبت الخالق جميع الكائنات الظاهرة والخفية أمام الملائكة ، حين جعلها تمر بعقل الإنسان ، فيمارس بحثها ويظهر خصائصها وأسرار تكوينها ، ويخلع عليها أسماءها ويبرزها إلى عالم الفكر الخالد والبيان الذى لعله خلاصة حياة الإنسان ، لأنه القوالب التى تعبأ فيها كل المعانى التى يصل إليها حسه ووعيه ، ثم يرفعها إلى الملأ الأعلى كلمات تطلعهم على أسرار من علم الله فى غيب السموات والأرض لم يعلموها وعلمها الإنسان .

ولذلك امْتَنَّ القرآن بتعليم الإنسان البيان فى قوله : (الرحمنُ علَّم القرآن . خَلَق الإنسانَ ، علَّمَهُ البيانَ) . . وفى قوله : ن . والقَلَم وما يَسْطُرونَ) . . . (اقرأْ وربُّكَ الأكرمُ الذىَ عَلَّم بالقلم علَّم الإنسانَ ما لم يعلم) . . .

وقد نظر الله الخالق ، كما تبين القصة ، نظرة سماح واغتفار لما تستلزمه حياة الإنسان بالجسم من الشرور والآثام ، إذ قد علم ما وراء فتوحه فى غيب السموات والأرض من آثار علمية ترجح على ما يقترفه من شرور وفساد وسفك دماء ، ولذلك قال للملائكة : « إنى أعلمُ ما لا تعلمون » حينما قالو « أتجعلُ فيها من يُفْسدُ فيها ويَسْفك الدماء ونحن نسبّح بحمدك ونُقَدِّس لك » . . .

وقد أشار القرآن بهذه القصة إلى أن علم أسرار الله فى المادة والنفس هو الخصوصية التى اختص الله الإنسان بها : فإذا تخلى عن ذلك العلم ضاعت قيمته وفقد مبررات وجوده ، وذلك كما فى قول القرآن : (ولقد ذَرَأْنا لجهَنَّم كثيرًا من الجِن والإِنسِ لهم قلوب لا يَفْقَهون بها . ولهم أَعْينٌ لا يُبْصرون بها ، ولهم آذانٌ لا يَسْمعون بها . أُولَئك كالأَنعام بل هم أَضلُّ أُولَئك هم الغافلون) . .

ولذلك كان العلم أساس تفضيل بعض الناس على بعض فى معايير القرآن فقال :
(قال إن اللهَ اصْطَفَاهُ عليكم وزادَهُ بَسْطَةً فى العلمِ والجِسْم) . .(يرفعْ الله الذين آمنوا منكم والذين أُوتو العلْمَ دَرَجَاتٍ) . . (وقال الذى عنده عِلْمٌ من الكتاب أنا آتيك به قبلَ أن يَرْتَدَّ إليك طَرْفكَ) ، (هل يستوِى الذين يعلَمُون والذين لا يعلمون » . . وهكذا

ولم يفهم المسلمون المتخلفون هذه الحقيقة الكبرى التى لم يعط الله أحداً خلافته فى الأرض إلا عن سبيلها ، حتى أضاعوا دولة الإسلام وسيادته .

والعلم يهدى إلى الفضيلة وإلى القوة ، وثالوث العلم والفضيلة والقوة هو صولجان السلطان والمكانة فى الحياة . . .

وكان العلم أساس التفضيل فى القرآن لأنه أداة الإثبات لحقائق الوجود ، وأداة إقامة الحجة على الجاحدين المتشككين الهدامين الذين يدخلون إلى الدنيا المليئة بالعجائب فلا يرون فيها حقيقة واحدة تستحق الإيمان ، حتى حقيقة الحقائق وهى الله ووجوده !

فعن طريق العلم أثبت الإنسان قيمة نفسه ثم أثبت به وبها ربه وجميع حقائق الكون وجميع القيم العليا الفكرية والخلقية . . .

هذه هى القضية الفكرية الكبرى الأساسية ، وهذا هو دليلها من القرآن واضحًا لا لبس فيه ولا غموض ، ونستطيع أن نبنى عليها جميع حقائق الدين وحقائق العلم مطمئنين .

ثم هناك مصداق لها من الدليل الواقعى ، هو ما وصل إليه الإنسان فى هذا العصر من الكشف عن أسرار لا عدد لها ، ومن القدرة على تسخير كثير من القوى الطبيعية ، حتى وصل إلى منبع القوة وهو تفجير الذرة ، وهى وحدة البناء المادى للكون ، وإلى تشكيلها كما يشاء واستخدام قواها الجبارة المختزنة فيها استخدامًا قاهراً ، ربما يكون هو وسيلة الوصول إلى السلطان الذى أشارت إليه الآيات: « يا معشرَ الجنِّ والإِنس إن استطعتمُ أن تَنْفُذُوا من أقطارِ السموات والأَرضِ فانْفُذُوا ، لا تَنْفُذُون إلا بِسُلْطان) . . (فلا أُقْسمُ بالشَّفَقِ ! والليل وما وَسَقَ.والقمرِ

إذا اتَّسَق . لتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عن طَبَقٍ) وقد بدأ فعلا استخدام الإنسان لسلطان العلم فى غزو الفضاء والتطلع إلى ركوب طباق السماء .

وهناك مصداق آخر لهذه القضية هو هذا الإعلان القرآنى عن تخويل الإنسان جميع وجوه الانتفاع بما خلق الله فى السموات والإرض فى مثل قوله : (هو الذى خَلق لكم ما فى الأَرضِ جميعاً) . . (وسَخَّر لكم ما فى السموات وما فى الأَرض جميعاً منه) . . (ولقد زَيَّنَّا السماءَ الدنيا بمصابيح) . . (ولقد كَرَّمْنا بَنِى آدم وحَمَلْناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفَضَّلْنَاهم على كثير ممن خَلَقْنا تَفْضيلاً » . .

وهذا تخويل يستوى فى أساسيات الحياة فى جميع الشعوب والأزمان والأمكنة فهو مع الإنسان البدائى ، ومع الإنسان الذى هو فى قمة العلم والحضارة ، فالجميع يسخر لهم ما فى الأرض وما فى السماء ، ولكن كل ينتفع حسب قدرته واحتياله .

أما مصداق هذه القضية فى المجال الخلقى فهو اعتماد القرآن على مقاييس الضمير البشرى وإحساسه بالخير والشر والحُسْن والقبح ، ولذلك أقسم به وجعله ميزان الحساب الداخلى والنقد الذاتى ، فقال : (لا أُقسِمُ بيوم القيامة . ولا أُقْسِمُ بالنفس اللوَّامة !) . . ثم أَتْبع ذلك فى نفس السورة بقوله :(بل الإِنسانُ على نفسه بَصيرةٌ ولو أَلْقَى مَعاذِيرَه . .)

فى هذه الآيات يبين القرآن أنه فى يوم القيامة والبعث لحساب الإنسان على ما عمله فى الدنيا ، يكون ميزان « النفس اللوامة »، أو « الضمير » بلغة هذا العصر ، أداة إثبات أمام الله الديان فى حسابه للنفس ، لأن الحساب السابق من الضمير للإنسان فى الدنيا حساب دقيق عسير لا يفلت منه شىء ولا يقبل المغالطة فى قليل أو كثير . ويصور القرآن ذلك فى قوله

« بل الإنسان على نفسه بصيرة . ولو ألقى معاذيره !»

أى أن صوت الضمير لا يمكن أن تسكته أو تخنقه الأعذار المنتحلة عن سيئة أو خطيئة ارتكبها صاحبه . . . مهما ألقى بها أمام نفسه أو الناس . فكل عذر منتحل ينهار ويتهافت أمام حساب الإنسان لنفسه فى ميزان ضميره و بصيرته المستمدة

من ضمير الوجود لتكون نبراساً يكشف الخير والشر كما حددهما الله فى الطبيعة والشريعة .

وسيكون حساب يوم القيامة فى موازين الله الديان مستشهداً بحساسية ضمائر الناس ودقة حسابها فى إدانتها لأصحابها .

فالضمير هو أداة ذوق المعانى والأفعال ووزن آثارها ، كما أن العقل هو أداة وزن الحقائق والعلوم .

وبما أن كل شىء فى الوجود مخلوق لغاية ، وليس أمر الحياة مصادفة واعتباطاً كان وجود موازين الحساب فى الدنيا ويوم القيامة حتمية حيوية وعقلية . . . وإلى هذا المعنى تشير الآيات التالية التى جاءت فى ختام نفس السورة التى افتتحت بالقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة :

« أَيحسَبُ الإنسانُ أن يُتْرَكَ سُدًى؟ ! أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى. ثم كان عَلَقَةً فخلَق فسوَّى . فجعل منه الزَّوْجَين الذكَر والأنثَى . أليس ذلك بقادرٍ على أن يُحْيِيَ الموتى ! »

أى أن الذى ينتج هذه الحقائق والمعانى العلمية والخلقية والاجتماعية التى تزخر بها النفس الإنسانية المخلوقة من نطفة مهينة ، وعلقة دموية ضئيلة ، لا يصح مطلقاً فى حكم العقل أن يكون قد خلق كل أولئك عبثا ولغير غاية ستتضح كاملة فى يوم مشهود مجموع له الناس للحساب والجزاء .

وقد اتضح فى الدنيا جانب من تلك الغاية فى تأويل القصة السابقة ، قصة خلق الإنسان لإظهار أسرار من غيب السموات والأرض عن طريق عقل الإنسان وعلمه وضميره ، ولتسخير قوى الطبيعة والانطلاق بسلطان العلم من قيود الأرض .

إذاً فالله قد خلق الإنسان للعلم والكرامة فى الحياة الدنيا ، وللخلود فى الحياة الأخرى . فآدم أبو البشر خلق فى أحسن تقويم ، وأعطى الكرامة أمام الملائكة وأسكن الجنة وقيل له : (إن لك ألاَّ تَجُوعَ فيها ولا تَعْرَى . وأنك لا تَظْمأُ فيها ولا تَضْحَى) ثم أَزلَّتْه قوةُ الشر عنها وأخرجته مما كان فيه . ثم أكرمه ربه فتاب عليه وهداه : (فتلَقَّى آدمُ من ربه كلماتٍ فتاب عليه) . ثم تركه للأرض وقوانينها يصارع

فيها الضرورات ويستخرج العبر والعظات ، ويكشف عن أسرار علم الله فى الطبيعة فى فيض من العرق والدمع والدم، ولكنه يسير إلى الأمام دائماً فى نور من ذلك الهدى الذى أشار إليه القرآن بقوله : (فإما يأتينّكُم منّى هُدًى فمن اتّبَع هُداى فلا يَضِلُّ ولا يَشْقَى . ومن أعرض عَن ذِكْرِى فإن له معيشةً ضَنْكاً ونحشُره يوم القيامة أعمى) .

(وبعد) فينبغى أن نشير فى ختام هذا الفصل إلى أمور مهمة هى مثار جدل حول رأى القرآن فى الإنسان فى الآيات التى تكشف الجانب السيء فى طبعه .

إن القرآن حين ينحى على الإنسان باللائمة ويقرعه بلواذع التقريعات ، على شره وإثمه وجهله وكفره فى مثل قوله :

(إن الإنسان لَظَلُومٌ كفّارٌ) . . (إن الإنسانَ لربِّه لَكَنُودٌ) (إنه كان ظَلُوماً جَهُولا) . (قُتل الإنسانُ ما أكفره !) (وكان الإنسان أكثرَ شىء جدلا) (وكان الإنسان قَتُورًا) (أم تَحْسَبُ أنَّ أكثرَهُم يَسْمعون أو يعْقِلون إن هم إلا كالأنعام بل هم أضلُّ سبيلا) . إلى آخره . . . إنما يكشف بتلك الأقوال عن جانب لا بد من كشفه والاعتراف بوطأته فى طبع الإنسان الكلىّ ليحذره الإنسان الفرد ويهذبه ويفر منه إلى الله وإلى هداه ، ويحاول أن يستعلى عليه ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وما كان الله ليريد أن يلعن هذا النوع كله ويطرده من رحمته وهو الذى خلقه وسواه على هذه الغرائز والطباع المختلطة الخيرة والشريرة ليبتليه كما يقول القرآن : (وهَدَيْناهُ النَّجْدَيْنِ) . . (هل أتَى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكورًا . إنَّا خلقنا الإنسانَ من نطفة أمشاجٍ نبتليه فجعلناه سميعاً بصيرًا . إنَّا هديناه السبيلَ إما شاكرًا وإما كَفُورا) . .

فاحتدام عناصر المادة العمياء واختلاطها وتفاعلها فى نطفة الإنسان وفى تكوينه هو سبب شروره وانحطاطه إلى الأرض، بما نفسه من طبيعة الطين وثقله وكثافته وظلمته (لولا فَضْلُ الله عليكم ورحْمَتُهُ ما زَكَى منكم من أحد أبدًا ولكن اللهَ يُزَكِّى من يشاء) . . (أيطمعُ كلُّ امرىء منهم أن يُدْخَلَ جنةَ نَعيم . كلاَّ إنَّا

خلقناهم مما يعلمون !) . . (أَلَمْ نَخْلُقْكُم من ماءٍ مَهينٍ » . . (يَخْلُقُكم في بطون أُمهاتكم خَلْقاً من بعد خَلْقٍ في ظلماتٍ ثلاثٍ) .

فالإنسان يعاني من أخلاط نطفته وحدة عناصرها وكثافتها ومن ظلمات الأرض، ومن غرائزه الحيوانية العارمة ، محنة وابتلاء شديدين لا ينجيه منهما إلا مجاهدته وتزكية الله ورحمته . . .

وقد حمل الأَمانة التي (عُرضت على السموات والأَرضِ والجبالِ فأَبينَ أن يَحْمِلْنَهَا وأَشْفَقْنَ منها وحَمَلها الإنسان) لظلمه نفسه وغروره وجهله بمقدار أعباء تلك الأمانة .

ولقد اعترف القرآن بأَن الإنسان خلق ضعيفاً في مشقة ونَصَبٍ وكَبَد فقال : «وخُلِق الإنسانُ ضعيفاً) . . (لقد خلقْنا الإنسانَ في كَبَدٍ) . . (يا أَيها الإنسان إنك كادحٌ إلى ربك كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ » . .

فهل للمسلمين في هذا العصر أن يحملوا رسالة الدعوة إلى الإيمان بالإنسان والثقة به وإنصافه وإقرار حياته على العدالة والسلام . فإنها رسالة مستمدة من قرآنهم : كتاب الله الناطق ، ومن الطبيعة كتابه الصامت . . .

وإنها لنظرة جديدة إلى الكون من خلال تلك النظرة الجديدة إلى الإنسان . . . ذلك الكائن العجيب الصاعد من طين الأرض . . . ! !

البعد الثالث

بين الناس فى نطاق الاقتصاد والسياسة والاجتماع

١ ــ معركة مبكرة بين الإسلام وطغاة المال .

٢ ــ الاشتراكية كلمة إسلامية لفظاً ومضموناً .

٣ ــ الأسس النفسية لبناء الاشتراكية الإسلامية .

(ا) المشاركة الوجدانية .

(ب) المشاركة العملية ، أو التكافل الاجتماعى .

(حـ) المسئولية التضامنية والقيادة الجماعية .

(د) الحرية المتكاملة للفرد .

(هـ) كرامة الفرد وسلطة الدولة .

(و) الحصانة الخلقية للنظم والمبادىء .

٤ ــ المال فى موازين الإسلام .

٥ ــ المبادئ العامة لاشتراكية الإسلام فى المال .

٦ ــ بين الفكر والعقيدة والعمل .

(ا) قيم العمل .

(ب) إتقان العمل .

(حـ) العمل أساس الجزاء .

(د) الترف والتعطل بالوراثة .

معركة مبكرة بين الإسلام وطغاة المال

إن المعركة بين الإسلام وطغاة المال وكبريائهم وترفهم وإسرافهم وبوارهم وإعراضهم عن دعوات الحق والإصلاح ومقاومتهم إياها ، بدأت منذ بدأ نزول القرآن . وكانت على أشدها فى السور الأولى نزولا ، وكانت لا تخلو منها سورة منزلة ، بل كانت تشارك الدعوة إلى الإيمان بالله ووحدانيته فى حيز تلك السور . وكأنما كانت الرسالة نازلة لتحطيم طغاة المال وتحرير الناس من سلطانهم كما كانت لإقرار الوحدانية و بيان الشئون الإلهية واليوم الآخر .

وقد كشفت المقاومة التى بدأها طغاة المال نحو الإسلام ، أن أشد العقبات فى طريق دعوات الإيمان والتحرير والإصلاح ونقل المجتمعات من طور انحطاط إلى طور رقى ، هم المترفون أولو النعمة المكذبون .

وهذا شىء يبدو منطقياً ، لأن سادة المجتمعات الضالة الفاسدة لا يريدون التغيير والتبديل لما استقرت عليه أوضاع حياتهم ، خشية ذهاب سلطانهم أو ثرواتهم وجاههم .

ومن هنا كان أول أتباع رسل الدين ودعاة الإصلاح والتحرير والكرامة الإنسانية ، هم المستضعفون والمعذبون والمحرومون ، من العبيد والفقراء والمستضعفين ، لأنهم هم الذين من مصلحتهم تغيير الحال ، لعل وعسى أن يأتى التغيير لهم بخير .

تلك سنة مطردة يشير إليها تاريخ كل حركة دينية أو إصلاحية فى جميع الأمكنة والأزمنة ، ولا حاجة بنا إلى ضرب الأمثلة . وحسبنا هذا القول المطلق من القرآن : (كَذلك ما أَرْسَلْنَا فى قريةٍ من نذير إلا قال مُتْرَفُوها إنَّا بما أُرْسِلْتُم به كافرون) .

وقد سجل القرآن ذلك بسوره وآياته فى عهده الأول الذى يكشف بل يثبت هذه الظاهرة التاريخية وتكرارها مع قصة كل نبى و رسول .

وسترون أنه لم يحطم كبرياء المال وسلطان طغاته فى نفوس جميع الأمم مثل دعوة القرآن ، حينما ألغى من معايير قيم الشخصية الفردية معيار الغنى والجاه ، وجعل المعيار هو التقوى (إن أكرَمَكم عند الله أتقاكم) .

وما أظن معركة معنوية شنت على الطغيان المالى مثل هذه المعركة التى شنها القرآن من أول نزوله ، وجعلها مصاحبة لفرض نظامه فى العدالة الاجتماعية المتمثل فى الزكاة والصدقات .

وإذا علمنا أن عصر نزول القرآن لم يكن يتوقع فيه ، أن يجرؤ مجترئ على التفكير فى المبادئ الاشتراكية ومبادئ الحرية والمساواة والعدالة الاجتماعية ، أدركنا أن الإسلام لا يجوز مطلقاً أن يعد من الأديان التى تخدّر معتنقيها ، وتصرفهم عن المطالبة بالعدالة الاجتماعية والاشتراكية المعقولة . . . بل على العكس يجب أن يعد أعظم ثورة مبكرة ضد الطغيان بجميع أشكاله ، وأول نظام اشتراكى معقول جمع بين كفالة حقوق الملكية الفردية ليحتفظ بالحوافز التى يزيد بها العمران والنشاط والإنتاج ، وبين حقوق المحرومين والكادحين وذوى الحاجة وتساوى الناس وتكافؤ الفرص أمامهم جميعًا .

ولنستعرض كل السور القرآنية الأولى نزولا لنرى هجوم القرآن على طغاة المال المترفين المكذبين . . . فنى أول سورة أنزلت بيان عام لطبيعة النفس البشرية ، وأنها تطغى إذا رأت نفسها قد استغنت . كما أن فيها تهديداً لطغاة المال بالحساب العسير وبالزبانية يوم الرجعى إلى الله ، و إهداراً وتحقيراً لمن اعتز بماله وأهل ناديه وقومه فى محاربة دعوة الحق والصلاح والتعرف والتقرب إلى الله . واقرأوا : (إن الإنسانَ لَيطْغَى آن رآهُ استغنى) إلى آخر سورة العلق .

وفى ثانية السور نزولا ، مواجهةٌ بالتهديد لذوى النعمة المترفين المكذبين ، وتخلية بينهم وبين سيد الوجود وواضع نظم العدالة فيه ، الذى يعلم كيف يقتص منهم : (ذَرْنِى والمكذِّبين أُولِى النَّعْمَة ومَهِّلْهُم قليلا . إن لَدَيْنَا أَنْكَالاً وجحيما وطعاماً ذَا غُصَّةٍ وعَذَابا أليما . .)

وفى ثالثة السور نزولا تهديد بنفس الأسلوب السابق : (ذَرْنِى ومن خلقتُ وحيدا ، وجعلتُ له مالاً مَمْدُودا . وبنين شهُودًا . ومَهَّدْتُ له تمهيدا . ثم يَطْمَع أن أزيدَ . كلاّ ! إنه كان لآياتنا عنيدا . سأُرهقُه صَعُودًا . .)

إلى آخره . . .

وفى الآيات التالية عرض لنموذج فريد من كبرياء هؤلاء الطغاة ونمط غرورهم وتفكيرهم وتدبيرهم ؛ (ثم نَظَرَ. ثم عَبَس وبَسَر . ثم أَدْبَر واستكبر. فقال إنْ هذا إلا سحرٌ يُؤْثَرُ. إنْ هذا إلا قولُ البَشَر . سأُصْليه سَقَرَ . .)

ثم تتابعت السور نزولا على هذا النسق العجيب المحطم للشخصيات المترفة المكذبة الطاغية بالمال ، والتى كانت تحول بين الناس وتلبية دعوة الحق والإصلاح المبنى على العدالة والحرية والمساواة . . . فنجد سورة أخرى ترينا صورة لنفسية صغيرة حقيرة من صور أخلاق المكذبين المغرورين بما جمعوه من مال : (ويلٌ لكل هُمَزةٍ لُمَزةٍ ! الذى جَمَع مالاً وعَدَّدهُ . يَحْسَبُ أَنَّ مالَه أَخْلَدَه . كلاّ ُ لَيُنْبَذَنَّ فى الحُطَمَة . وما أدراك ما الحُطَمةُ ، نارُ الله الْمُوقَدَة . .)

ثم سورة أخرى تتناول نموذجاً حقيراً آخر من هؤلاء تناولا قاسياً محقراً لكبريائه ومحطماً لجاهه : (ولا تُطعْ كلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ ، همّازٍ مَشّاءٍ بِنَمِيمٍ .مَنّاعٍ للخير مُعْتدٍ أثيمٍ .عُتُلٍّ بعد ذلك زَنيمٍ . أَنْ كان ذا مال وبَنِينَ).

ثم نجد فى سورة أخرى حديثاً عاماً لطبيعة المكذبين بالدين وقسوتهم على الضعفاء والمحتاجين للعطف والمعونة ، مع بيان أنه لا قيمة لشكليات الدين مع فقدان جوهره :

(أرأيتَ الذى يكذِّبُ بالدِّينِ فذلك الذى يَدُعُّ اليَتِيمَ . ولا يحُضُّ على طَعامِ المسْكين . فويْلٌ للمصلِّينَ الذينَ هُمْ عن صَلاتِهِمْ ساهُونَ . الَّذينَ هُم يُراءُونَ ويَمْنَعُون المَاعُونَ)

وإن هذه السورة لجديرة بأن تطبع فى ذهن كل مؤمن ليتذكر دائماً أن جوهر الدين ولبابه بعد العقيدة هو انشغال فكره وجهده بحاجات الضعفاء والمحرومين ومعونة المحتاجين .

ثم لننظر فى سورة أخرى كيف قرن القرآن اليسر والسهولة والطمأنينة والسعادة بحياة البذل والعطاء والتكافل والإحسان والحذر من عواقب احتجاز المال عن المحتاجين ، وكيف قرن العُسْر والضيق والقلق والشقاء بحياة البخل والشح فى المال ومنعه عن معونات الناس ، وذلك فى قوله :

(فأما من أعْطَى واتقَى وصدَّق بالحُسنَى . فَسَنُيَسِّرُه لليُسْرَى . وأما مَنْ بَخِلَ واستغنَى وكذَّب بالحُسْنى فسنيسرُه للعُسْرَى . وما يُغْنِى عنه مالُه إذَا تَردَّى).

ثم يحطم القرآن الظنون الجاهلية فى توهم أن هناك علاقة بين كرامة الإنسان لدى سيد الوجود وبين المركز المالى ، مبينًا أن كرامة الإنسان لدى الله شىء آخر ، متعلق بتحرير الرقاب وبالتواصى والحض على إكرام اليتيم والضعيف وإطعام المسكين ، ومبينًا كذلك أن المهانة والمشأمة فى حياة المجتمع ناشئتان من عدم اقتحام العقبة الكبرى وهى عقبة اختلال الأوضاع المالية بين الناس ، بأكل التراث الطبيعى الذى وضعه الله لهم جميعًا ، أكلا لمًّا شرهاً نهماً ، وحب جمع المال والاغترار به والإسراف فيه مع نسيان حقوق المجتمع: (فأَمَّا الإنسانُ إذا ما ابْتَلاَه ربُّه فأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَه . .) إلى آخر الآيات فى سورة الفجر . . .)

وقد بينت سورة البلد أن حياة الإنسان حياة كَبَد وتعب ومشقة من معاناة فساد الأوضاع الاقتصادية بين الناس واختلالها بطغيان المسرفين والمترفين المقترن بما يملكون وينفقون من مال : (أيحسبُ أنْ لَنْ يَقْدرَ عليه أحدٌ. يقول أهلكتُ مالاً لُبدا. .) وهو قول يمثل غرور الإنسان بالقدرة المالية وفساد تصوره لوجوه إنفاقه .

كما بينت السورة أن اقتحام عقبة الحياة الاجتماعية لا يكون إلا بتحرير رقاب الناس من أنواع العبودية وبتعاطف الطبقات وترابطها برباط المرحمة وتواصيها بها ، ومراعاتها إحساس غيرها وشعوره وتطلع نظره وفكره لما يتمتع به غيره ، وذلك حتى لا تصاب الحياة الاجتماعية بالتفكك والانحلال والعداوة والبغضاء التى تجلب على الناس المشأمة والدمار . . .

والقرآن دائمًا يذكر الناس بالوضع الصحيح للمال ، وهو أنه ، مال الله ، وأن الله استخلفنا فيه وخولنا التصرف به (لَهُ مُلْكُ السموات والأَرضِ) ، (آمنُوا بالله ورسولهِ وأَنْفِقُوا ممّا جعلكم مُسْتَخْلَفين فيه) : (وآتُوهم من مالِ الله الذى آتاكم) .

والقرآن فى سبيل تربية الوجدان اليقظ المدرك لحقوق الله والناس فى المال الخاص، يستعمل مختلف الأساليب ، ويذكر الوقائع ويقص القصص .

فهو يذكر فى سورة الكهف صورة من صور غرور النفس وفخرها بمالها وحسبانها أن قيمتها متعلقة بما تملك منه ، وذلك فى قصة صاحب الحديقتين ومحاورته لصاحبه الفقير وفخره عليه بكثرة ماله وولده . . . وتبين القصة مقدار الصلف والغرور الذى أصاب نفسه من نجاحه فى إنشاء الجنتين وأنه أكثر مالا وأعز نفرا ، وعن ظنه خلود جنتيه واستعصاءهما على عوامل الفناء ونسيانه ضعفه وأنه خلق من تراب وأنه سائر إلى يوم الحساب ، وأنه هو وجنته لم يخرجا عن ملك الله الذى يقدر على إهلاكهما .

ثم تبين القصة ما أصاب الحديقة من إهلاك ثمرها وتحطيم جشع صاحبها وغروره حين وقف: (فأصبح يُقَلِّبُ كَفَّيْه على ما أنفقَ فيها وهِى خاوِيةٌ على عُرُوشها)

كما يذكر القرآن قصة أخرى فى سورة « ن والقلم» وهى قصة أصحاب حديقة أخرى تآمروا على حق المساكين فى محصولها ، وأرادوا أن يغتالوه ولا يؤدوه ، حين عزموا على أن يتوجهوا فى غبش الصباح لجنى المحصول خلسة وهم يتهامسون ويتخافتون خوفًا من أن يسمعهم المساكين فيستيقظوا ويتبعوهم لأخذ نصيبهم . . . فإذا بيد الله ترسل عليها طائفًا يحرقها ويهلك محصولها ، عقابًا لمالكيها على نيتهم السيئة نحو حق الفقراء .

وهاتان القصتان تعرضان صورتين من طغيان حب المال على النفوس وتخريبه لوجدانها ، وتعلنان حربًا على وساوس الجشع والشح والغرور ومنع حق المحرومين وذوى الحقوق ، وتقيمان أمام صاحب الضمير حرسًا ورصداً يخيفه ويهدده بتخريب أمواله وسحقها إذا ما عنّ له أن يغتال حقوق الفقراء فيها أو يختلسها فى غفلة من الرقباء أو يفترس بها الضعفاء .

وحرب التخريب والمحق هذه تتولاها يد الله وتشنها على المفترسين المستغلين للناس بالطرق الربوية . . : (يمحقُ اللهُ الرِّبَا ويُرْبِى الصدقات)

وهى تطلق سلطان الدولة فى محقها أو مصادرتها

(فإن لم تفعلُوا فَأْذَنُوا بحربٍ من الله ورسوله ا وان تُبْتُمْ فلكم رءُوس أموالِكُم لا تَظْلِمُون ولا تُظْلَمُون) .

الاشتراكية كلمة إسلامية لفظاً ومضموناً

ينفر بعض المسلمين الحَرْفيين من استعمال كلمة (الاشتراكية) بدلا من كلمة (العدالة الاجتماعية) أو (التكافل) الاجتماعى) مثلا ، لأن كلمة الاشتراكية قد استعملت فى هذه العصر اسما لبعض المذاهب والدعوات التى لا عهد للمسلمين بها فى رأى هؤلاء الحَرْفيين ، ولأنها فى بعض استعمالاتها تشمل مفاهيم وعقائد ونظماً وشرائع وأخلاقاً مثل شمول كلمة (الإسلام) . كما أن استعمالها لدى بعض الأقوام يعطى مفاهيم تناقض الإسلام ، كإنكار وجود الله، والتحلل من الدين ، أوكالشيوعية المطلقة فى الأموال والأعراض

وحينئذ يكون فى استبدالها بالاسم الذى اختاره الله لدينه وشريعته وهو (الإسلام) خروج على اختيار الله . . . وفى هذا ما فيه من سوء الرأى وسوء الأدب ، على الأقل ، حينما نستبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير . . .

فأما أن كلمة (الاشتراكية)قد استعملت لترجمة دعوة مستوردَة من الغرب أو الشرق ، فذلك غير صحيح ، لأنها كلمة عربية إسلامية لفظاً ومضموناً ، قد أخذت واشتقت من لفظ عربى استعمله نبى الإسلام والمسلمون من بعده فى المعنى الذى يريده من نفس التسمية الغربيون والشرقيون فى المجال الاقتصادى ، وهذا المعنى هو « الملكية المشتركة » بين الناس جميعاً للمصادر الأساسية للأموال والأرزاق الضرورية ، وذلك فى قول رسول الإسلام باللفظ الصريح : «الناس شركاء فى ثلاثة : الماء والكلاء والنار» وفى مضمون قول عمر بن الخطاب « ما أحد من المسلمين إلا وله فى هذا المال حق أُعطيَه ، أو مُنِعَه « وفى قول أبى عبيد صاحب كتاب الأموال باللفظ الصريح فى التمهيد لقول عمر السابق « إن عمر رحمه الله رأى أن كل المسلمين فى هذا المال شركاء » وفى قوله الصريح كذلك : « وقال آخرون بل المسلمون فى هذا المال شركاء فيه كلهم » .

يضاف إلى ذلك ، بل هو الأصل فيه فى الواقع ، أن مضمون قول القرآن : (وفى أَمْوالهم حقٌّ للسائل والمحروم) وقوله (هو الذى خَلَق لكم ما فى

الأَرضِ جميعاً) : (وآتُوا حَقَّهُ يوم حَصَاده) وقوله (وآتِ ذا القُرْبَى حَقَّهُ والمِسكينَ وابنَ السبيل) مضمون واضح فى أن ملكية الأموال الخاصة ليست خالصة لأصحابها على إطلاقها ، بل تتعلق بها حقوق لآخرين هم المذكورون فى آية مصارف الصدقات والزكاة . . . والشيء الذى تتعدد فيه الحقوق يكون مشتركًا ، واقعًا وحكمًا ، بين من هو فى حيازته وبين أصحاب الحقوق فيه .

ولا شك أن قول القرآن مخاطبًا الجنس البشرى كله ، لا فرداً بعينه ولا أمة بعينها « هُوَ الذِى خَلَقَ لَكُمْ مَا فى الأَرضِ جَمِيعاً قاطع فى الدلالة على أن ملكية مصادر الأموال والأرزاق كلها ملكية عامة ، الناس كلهم فيها شركاء ، وهى ملكية بتخويل الله للإنسان واستخلافه عليها كما يتضح ذلك فى مواضعه من فصول هذا الكتاب .

وأما أن كلمة الاشتراكية فى بعض الاستعمالات تعطى المفاهيم العامة التى يتضمنها الإسلام ، وفى بعض الصور قد تعطى مضامين ينكرها الإسلام كالإلحاد أو الهدم أو الانحلال أو الشيوع المطلق فى الأموال والأعراض إلى آخره ، فذلك أيضًا غير وارد فى الاستعمال العربى الحديث لكلمة الاشتراكية ، لأن دعوة « الاشتراكية العربية » دعوة موجهة إلى الترجمة بلغة العصر عن مقصد واحد من المقاصد التى سبق إليها الإسلام ، وهو العدالة الاجتماعية ، أو الاشتراك أو التكافل فى دائرة الأموال والحياة الاقتصادية ،ولأن(الاشتراكية)العربية قد نصت فى ميثاقها وبياناتها على أنها تؤمن بالدين وتعرف له مكانته وآثاره وضرورته فى حياة الناس لتحريرهم من المظالم والعبودية لغير الله، ولإثارتهم على الطغيان بجميع أشكاله ،لأن الأديان عند نزولها كانت ثورات بكل معنى كلمة الثورة لتحرير عقل الإنسان ووجدانه وجسمه ورزقه من الجهل والطغيان والاستغلال والفساد والجشع والإذلال .

وبهذا كله يتضح أنه ليس هناك استبدال كلمة ضيقة ذات مضمون واحد هو الاشتراكية فى الأموال ، بكلمة عامة متعددة المضامين هى الإسلام . . . وأنه ليس هناك مراد سيىء مناقض للإسلام والإيمان تنطوى عليه كلمة الاشتراك بمفهومها العربى الواضح فى ميثاق الاشتراكية العربية .

بل أذهب بعيداً عن منطق الحَرْفِيّين وأقول : على فرض أن اسم (الاشتراكية) — أو أى اسم آخر — يطلق ويراد منه مضمون الإسلام كله عقيدة وشريعة وأخلاقاً وسياسة واقتصاداً إلى آخره . . . فماذا يضير الإسلام حين نقول للذين يعتنقون هذا المضمون تحت أى اسم: إن هذا الذى تعتنقونه هو نفس ما نعتنقه باسم الإسلام ؟ وأن نقول لهم كذلك : إنه لا مانع لدى الإسلام أن نلتقى معكم على أى اسم يستهويكم ويستميلكم ما دام المضمون هو مضمون الإسلام مقترنا باسم الله . . . تماماً كما كان المنطق الإسلامى الواسع غير الحرفى فى عهد نزول الإسلام ، والمتمثل فى قول القرآن لأهل الكتاب لمنع الاختلاف حول الأسماء والألفاظ

(قل يا أَهلَ الكتاب تَعَالَوْا إلى كلمة سَواءٍ بينَنا وبينكم : أَنْ لاَ نَعْبدَ إلا الله ولا نُشْركَ به شيئاً ، ولا يَتَّخذَ بعضُنا بعضاً أَرْباباً من دون الله ، فإن تَوَلَّوْا فقُولُوا اشْهَدُوا بأَنَّا مسلمُون)

ومعنى ذلك أن أية كلمة تضم هذه المعانى التى ذكرتها الآية هى كلمة يستوى أمرها بين المسلمين وأهل الكتاب . . . فليس اللفظ أمراً يستحق الخلاف ما دام المعنى واحداً متفقاً عليه .

نعم ليس الإسلام هو الدين الذى يتعبد الناس بالأسماء والشكليات ، لأنه يريد أولا جوهر الأمور ولُبابها لا أسماءها وأشكالها . . . وقد جاء اسم « الإسلام » بلفظه القرآنى العربى علَماً على الدين الذى لا ينتسب معتنقه إلى شخص ، كالمسيحية ، أو إلى قوم ، كاليهودية ، بل إلى معنى استسلام العقل والضمير لله الخالق وإرادته وفطرته التى فطر الناس عليها ، ولذلك قال القرآن « إن الدين عند الله الإسلامُ » وقرر أنه اسم لجميع رسالات الله الخالدة المتجددة على مدى العصور ، وأن جميع معتنقيها من كل الأديان والأجناس هم « مسلمون» فى رأى القرآن ، كما بينا ذلك فى فصل « الباب الواسع » من هذا الكتاب .

وقد ردّ القرآن على أهل الكتاب الذين كانوا يعتقدون أن مناط النجاة والجزاء هو الانتساب إلى دين شخص أو قوم بعينهم ، وذلك فى مثل قوله : « وقالوا لن يَدْخُلَ الجنةَ إلا مَنْ كان هُودًا أَو نَصارَى ، تلك أَمانيُّهم ، قل هاتُوا

برهانكم إن كنتم صادقين . بَلىٰ من أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وهو محسنٌ فلَهُ أَجرُه عنَد ربِّه ولا خوفٌ عليهم ولاهم يَحْزَنُون) .

وعلى ذلك يكون معنى كلمة « الإسلام » إطلاق الدين من قيود الانتساب إلى الأقوام أو الأشخاص ليكون الانتساب فيه إلى الله وحده ، مع الإقرار والاستسلام له بالطاعة ، والسير على مقتضى إرادته الواضحة فى الطبيعة والفطرة ، وهى إرادة السلام والحق والخير والعدالة والرحمة والجمال . . .

ومن هنا قال الأديب العالم الفيلسوف الألمانى الأشهر (جوته) للذى حدثه عن الإسلام : « إذا كان الإسلام كما وصفتَ فنحن كلنا مسلمون » .

وإنها لعبارة صادقة مصدّقة من القرآن ، تُدْخل فى الإسلام أعداداً هائلة على مدى العصور واختلاف الأمكنة ، من الذين لا ينتسبون إلى اسمه ولكنهم يؤمنون ويعملون بمضمونه ، وتوحى للمسلمين فى كل عصر أن يقولوا لكثيرين جداً من الناس : أنتم مسلمون ولو لم تَعرِفوا . . .

الأسس النفسية لبناء الاشتراكية الإسلامية
١- المشاركة الوجدانية

إن اتجاهنا نحن المسلمين إلى النظم والمبادئ التقدمية المعاصرة اتجاه عميق الجذور فى نفوسنا وإن لم تكن لتطبيقاته تلك الصور العصرية من حيث التفصيل والتنظيم والاستيعاب ، ولذلك لم تواجهه مجتمعاتنا الحالية بالمقاومة والشحناء والحرب المريرة بين الطبقات كما جرى عليه الحال فى المجتمعات الغربية والشرقية. بل لقد تقبلتها مجتمعاتنا فى يسر وسهولة وترحيب، لأن تجاربنا فيها مبنية على صور من المحبة والتضامن رسمت فى خيالنا على وضع أننا «كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى[١] » : وأننا « كالبنيان يشد بعضه بعضا[٢] » ، وأننا تتكافأ دماؤنا ويسعى بذمتنا وعهدنا أقلنا[٣] ، وأننا يجب أن نحب للناس ما نحبه لأنفسنا ونكره لهم ما نكره لها[٤]، ليتحقق شرط إيماننا .

وقد وقر وثبت فى نفوسنا أن عماد حياتنا الاجتماعية هو المشاركة الوجدانية بين الجميع ، والتكافل الذى يتضامن فيه الأفراد فى المسئوليات والحقوق والواجبات ، فكل فرد مسئول عن كل فرد كمسئوليته عن نفسه وأهله ، ونحن جميعاً رعاة لغيرنا ورعايا لهم ، فكلنا راع مسئول عن رعيته .

وكل هذه الأسس النفسية تقوم عليها الاشتراكية السياسية والاقتصادية بالنظم والقوانين فى أشكال حياة المجتمع ، فهى ليست اشتراكية قائمة على النظريات وحسب ، ولم نخضع نحن لها خضوعاً آلياً جافاً على أساس من الخوف والرهبة من السلطة والقانون والدولة ، وإنما هى قائمة على فيض من نبع وجداننا وعلى قوى الدفع الروحية فى كياننا ، شأننا فى ذلك كشأننا فى كل مبادئنا التى تحكم حياتنا من داخل نفوسنا أولاً ونتعبد بها لله ونصدر عنها بعد إيمان واقتناع بها .

ونحن إذا أقمنا اشتراكيتنا بهذا الوصف وهذا الوضع لا نخشى عليها نكسة

(١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) من أحاديث محمدية .

أو ارتداداً ، لأنها تكون نابعة من عقائدنا الراسخة التى نحرص عليها حرصنا على الحياة وبدونها لا نستسيغ العيش المادى مهما كان فيه من رفاهية .

والشريعة الإسلامية تنمى فى نفس كل فرد الشعور بالمسئولية الجماعية وتربّيه على أن يحيا فى المجتمع بنوع من المشاركة العملية كنتيجة للمشاركة الوجدانية حتى تزيل أو تخفف حدة غرائز الأنانية والفردية والأثرة ، وليكون مثل المجتمع كمثل الجسد الواحد : بين أعضائه من المودة والترابط والتراحم والتعاطف ما يجعله يشعر بالوحدة الحقيقية . . . ولا شك أن هذا الاتجاه هو أساس الاشتراكية المعقولة التى تسمو بالإنسانية وتوطد بناء الحياة الاجتماعية وتحمى الأمة من عوامل الهدم والتفكك وحرب الطبقات وعواقب التفاوت الفاحش فى مستويات حياة الأفراد .

ولا شك كذلك أن هذا الاتجاه هو التطبيق العملى للدعوات الدينية والفلسفية السامية التى مضت فى الدهور الطوال تبشر بالمساواة وتدعو إلى الرحمة والتعاطف والمشاركة الوجدانية والمادية بين الناس .

وما دامت الاشتراكية تستهدف القضاء على التفاوت الفاحش بين الناس فى مستويات المعيشة المادية والأدبية ، فإنها لا شك ستقضى على أكثر أسباب الجرائم التى تقوض بناء المجتمعات من قديم وتجعل حياة البشر لا تفترق كثيراً عن حياة الوحوش فى الغابات والفلوات ، إذ أن القانون الذى يحكم الحياة فى الغابة هو الفردية والأنانية التى تدفع للعدوان ، للاستئثار بضروريات الحياة مع التربص للصراع والقتل هجوماً أو دفاعاً لتوفير القوت والأمن الخاص فى حدود ضيقة وفى تهديد مستمر بالأخطار والأهوال .

وإن أكثر بواعث الجرائم فى المجتمعات هو التفاوت الفاحش بين مستويات الحياة الأدبية والمادية ، وإن الفقر والجهل والمرض والطغيان والعدوان والاغتصاب والسرقة والاختلاس والسخط والتبرم والكفر بالحياة وبالإيمان ، وغير أولئك من عوامل الهدم وظواهر الصراع والفساد ، إنما هى أعراض ونتائج لجريمة الجرائم ، وهى التفاوت الفاحش بين الناس فى مستويات حياتهم مما يجعل بعض الناس ، وهو القلة يحقق كل رغباته وأسبابَ الترف فى حياته ، ويحار كيف يصرف الزائد الكثير فى ألوان لذاته المحرمة وغير المحرمة ، وتمضى حياته مع الترف والسرف وبوار التبطل وفساد

الفراغ . . . بينما البعض الآخر ، وهو الكثرة ، يحار كيف يحصل بشق الأنفس على قوته وقوت أهله بعد الكدح والتعب ، وكيف يدبر أمر كسائهم وسكنهم وتعليمهم وتطبيبهم ، مما يجعل الحياة الدنيا لديهم موصولة الشقاء ، لا يكادون يرون فيها رحمة الله التى ما خلقوا وأدخلوا رحاب الدنيا إلا لرؤيتها والاستمتاع بآثارها ، ولكن جرائم التفاوت الفاحش فى مستويات الحياة هى التى حالت بينهم وبين ذلك .

وقد كان رواد الدعوات الدينية والإنسانية والفلسفية السامية ، مُثُلا ونماذج لتطبيق التكافل الاجتماعى فى المحيط الذى عاشوا فيه ، فلم يكن أحدهم يستأثر وحده بشىء من المصالح العامة أو الخاصة ، وإنما كانوا أول من يدعو وأول من ينفذ المبادىء الإنسانية ، فضربوا للناس المُثل وأقاموا القدوة وجسموا المبادىء فى نماذج رفيعة للحياة الطيبة فى ظلال التكافل .

فينبغى لنا جميعًا الآن ، دعاة ومدعوين ، حاكمين ومحكومين ، أن نلاحظ العدالة والرفق والقدوة الطيبة فى تطبيق النظم الاشتراكية ، وأن نتذكر دائمًا أن ضرب المثل الحسن فى تطبيق شريعة العدل والرحمة هو أول ما يدخل فى أذهان الجماهير وقلوبهم من دلائل صدق هذه الشريعة ومسايرتها للمصالح العامة والخاصة ، وأعظمُ ما يدفعهم إلى الإيمان بها وحمايتها من النكسات والارتداد .

وذلك التطبيق لشريعة العدل والبر العام على الجميع ، يسير على مقتضى الحكمة الواجبة على الداعى حتى يصدق الناس دعوته ، كما فى قول القرآن حكاية لقول أحد دعاة الإيمان والإصلاح « وما أُريدُ أن أُخَالِفكُمْ إلى ما أنهاكم عنه ، إن أُريدُ إلا الإصلاح ما استطعتُ »

وليس من شك فى أن الحياة الاشتراكية المعقولة التى تحتفظ لكل فرد بحريته ومسئوليته الخاصة ، وبقوام غرائزه الدافعة إلى الإنتاج والتثمير والتعمير مع تهذيبها وقمع جشعها ، إنما هى تطور كبير وعظيم إلى المجتمع الأفضل الذى تقل فيه جرائم التفاوت الفاحش ، ونحو الحياة الطيبة التى تسمح للطمأنينة والسعادة النسبية أن تغمُرَ نفوس أكبر عدد من الناس فيروا من خلالها رحمة الله ووجه الحق ومنطقة البر والسمو فى طبيعة الإنسان .

وينبغى أن نتذكر دائماً أن المعانى الإنسانية هى بواعث النظم والقوانين التى تَسُنُّها الدولة ،وليس الحقد أو الانتقام بين الطبقات هو الباعث . . . بل العكس صحيح ، وهو أن سن هذه القوانين والنظم إنما يكون لمنع الأحقاد والصراع بين الطبقات، وخاصة فى المجتمع الصناعى، الذى تكثر فيه ظواهر حرب الطبقات فى صورة مفزعة . . .

كما يجب أن نعلم أن آفة الشرائع هى سوء تطبيقها من جهة ، وعدمُ توفير الجو النفسى والمشاركة الوجدانية التى تجعل النفوس تتقبلها بثقة وتتلقاها برغبة وتذوق لما فيها من معان إنسانية ، ولا تقع فى الخلط بين صحة الاتجاه فيها وبين بعض الظروف والملابسات العارضة التى قد تؤثر فى النتائج بالإبطاء أو التخلف أو الانحراف .

ولنحرص على حسن تطبيق نظمنا فى جو نفسى وحضانة خلقية تحقق ما تهدف إليه من معان إنسانية سامية .

ولنستحضر فى تطبيقها روح العبادة التى نستحضرها فى الزكاة والصدقات التى يفرضها الدين طهرة للنفس من الشح ، وبراً ويسراً بالإنسانية المعذبة فى الأرض .

ب - المشاركة العملية أو التكافل الاجتماعي

المشاركة العملية أو التكافل الاجتماعي ثمرة عظيمة من ثمرات الشعور بالمسئولية العامة والمشاركة الوجدانية التي تجب على كل فرد في المجتمع نحو الأفراد الآخرين ... وهو روح النظام العام الشامل الذي ينتظم حياة المجتمع الإسلامي في جميع قطاعاته .

فهو في قطاع تربية الفرد وسلوكه نحو نفسه ونحو مجتمعه ، وتربية الجماعة وسلوكها نحو الفرد ونحو نفسها ونحو الإنسانية .

وهو في قطاع السياسة والحكم وتحمل مسئوليات الولاية والرعاية والوظيفة والعمل ومزاولة المبادئ الأساسية في الحياة السياسية والمدنية ، كالحرية والكرامة والعدالة القضائية والعدالة الاجتماعية ، والديمقراطية والشورى وتكافؤ فرص الحياة السياسية أمام الجميع .

وهو في قطاع الاقتصاد وتدبير المال وتنميته وصرفه وإنفاقه وإجراء المعاملات والارتفاقات والتعاون على استغلال موارد الثروة الطبيعية ووضعها على السواء أمام الجميع ، وفي احترام حق العمل وتيسيره واعتباره رأس مال .

في جميع هذه القطاعات الحيوية يجب في رأى الإسلام أن يسرى روح التكافل الاجتماعي . وكل وجه من وجوه التربية والسياسة والتوجيه والوظيفة والعمل والاقتصاد يجب أن يكون تطبيقاً للتكافل الاجتماعي لتستكمل هذه الوجوه الروح والصورة معا .

والواقع أن التكافل الاجتماعي هو الامتداد الطبيعي للمسئولية المباشرة في محيط الأسرة ، ويحرص الإسلام على تنمية الشعور بهذا الامتداد ليسبغ على المجتمع الكبير في المدينة أو الوطن كله صورة الأسرة بمعناها الطبيعي الدقيق .

وتتضح شدة الاحتياج إلى روح التكافل الاجتماعي في المجتمعات القبلية البدائية التي لا تعيش في ظل قوانين مسطورة وتنظيم مدني معقد ، وإنما تعيش في ظل التقاليد والضرورات الاجتماعية البسيطة التي تحمل الأفراد على تكوين مجتمع للاحتماء بقوته ضد الأخطار المحققة في تلك البيئات البدائية المنقطعة .

فالتكافل الاجتماعى فى تلك البيئات هو سبب بقائها ، ولولاه لفنيت .

وقد أقيم المجتمع الإسلامى على أساس بناء الأسرة والروابط الفطرية التى بين أفرادها ومسئوليات كل منهم نحو الآخرين ؛ فالمؤمنون فى مجتمعهم إخوة ، وكل أخ مسئول بالطبع عن أخيه كافلٌ له ، ومتضامن معه فى السراء والضراء . وهم جميعاً يمثلون جسداً واحداً إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء ، وكلهم راع لغيره مسئول عنه ، يرى أنه جزء من كل يكمله ويكتمل به ، ويحميه ويحتمى فيه ، ويعطيه ويأخذ منه ؛ فالأمير يرعى المأمورين ، والمأمورون يرعون الأمير ويرعون أنفسهم فيما بينهم ، والخادم يرعى سيده كما يرعى السيد الخادم .

هكذا وجههم القرآن والحديث النبوى المحمدى ، فينشأ ناشئهم وفى ذهنه صورة مطبوعة واضحة لمسئوليته وتبعته إزاء مجتمعه ، منتزعة من ذلك التقرير القرآنى وهذا التصوير النبوى للأخوة وطبيعة العلاقات الاجتماعية بين أعضاء المجتمع الإسلامى ، وهو يعلم أنه مسئول أمام الله عن تطبيق هذه الصورة فى حياته مسئولية كاملة لا مفر منها ولا اعتذار يقبل عن التقصير فيها .

ج - المسئولية التضامنية والقيادة الجماعية

كلما تأمل المفكر المنصف فى صورة المجتمع الإسلامى الأول وتجاربه ، يؤمن بأن الكمال الذى وضعه الله فى الإسلام وأشار إليه القرآن بقوله : (اليومَ أكملتُ لكم دِينَكُم وأتمَمتُ عليكم نعْمَتِى وَرضِيتُ لكم الإسْلام ديناً) كمال فى كل اتجاه من وجهات الحياة : فى العقيدة والشريعة والأخلاق والسياسة والاقتصاد .

ومعالم هذا الكمال يلمحها الذهن دائمًا وإن كانت بغير عنوان أو مصطلح من المصطلحات الفنية التى يضعها المتخصصون والفقهاء فى كل عصر .

ولا شك أن أعظم ضمانات الحياة الديمقراطية الاشتراكية ما يسمى الآن « المسئولية التضامنية » وما ينبثق عنها من « القيادة الجماعية» وهما من وسائل التربية السياسية والتوجيه والنصح والترشيد ، لأنها تأبى أن تجمع الوصاية والمسئولية عن المجتمع فى يد فرد أو جماعة محدودة يستأثرون بها ويستبدون ، وإنما تجعلها مسئولية عامة بين الجماهير وموجهيها وقادتها ، يتعاونون عليها ويحملونها جميعاً بحيث» إذا غاب منهم واحد سد غيره مكانه ، فلا يحدث فى بنائهم خلل ، وبحيث يكون التفاعل دائمًا بين الجماهير والقادة ، وبذلك تؤمَّن وسائل تجلية رأى الشعب وسير الحكم بمقتضاه معصومًا من جموح الفرد .

وكلما تقاربت مستويات الحياة بين الأفراد سياسيًّا واقتصاديًّا استقرت مراسم القيادة الجماعية ، وسهل الأخذ بها ، فنما الضمان العام للحريات واستعلان رأى الجماهير .

وإذا كان المجتمع الإسلامي الأول وهو فى ظل حياة محمد رسول الله المؤيد بالوحى الذى يهدى كل رأى ويرشد إلى التى هى أقوم فى كل أمر بتوجيه الله ، ويلقى الضوء الكاشف من نوره وبلسان قرآنه على كل مشكلة أو مسألة من مسائل الحياة . . . أقول إذا كان هذا المجتمع قد رباه الله ووجهه على أن يكون الأمر فيه شورى حتى بين الرسول والمؤمنين . . . فلا شك أن غيره من المجتمعات التى

تأتى بعده هى أشد حاجة إلى أن يكون الأمر بينها شورى، وبالتالى تكون المسئولية تضامنية والقيادة جماعية ، حتى لا تضل بالرأى الفرد والحكم المستبد غير المستمد من الجماعة .

وتحمل المسئولية العامة هو أعظم ما يربى الشخصية الفردية ويؤهلها للخلافة فى الأرض ، كل فى دائرة حياته حتى ولو ضاقت وصغرت .

والقيادة الجماعية مسئولية تضامنية بين القادة والموجهين ، وهى مستمدة من كل فرد فى الجماعة ، وليس أبدع فى بيان هذه المسئولية المتبادلة مما قرره الرسول من أن كل فرد فى المجتمع راع والكل مسئول عن رعيته ، فالأمير راع ومسئول عن رعيته ، والرجل راع ومسئول عن رعيته ، والمرأة فى بيت زوجها راعية ومسئولة عن رعيتها ، والخادم فى دار سيده راع ومسئول عن رعيته .

وصفوة القول : إن المسئولية التضامنية بين الأفراد والقيادة الجماعية المنبثقة منها هى أهم الأدوات العملية لتحقيق معنى الديمقراطية السياسية والاجتماعية بمفهومها الإسلامى ومفهومها العصرى .

وكل قطاع من قطاعات التنظيمات الشعبية كالتنظيمات التعاونية والنقابات لا يستطيع أن يقوم بدوره المؤثر الفعال فى التمكين للديمقراطية والاشتراكية إلا بالمسئولية التضامنية والقيادات الجماعية الواعية التى تتفاعل مع جماهيرها تفاعلا مباشراً يجعل حركة حياتها كلها فى نبض واحد وتناسق تام بعيد عن التعارض والتناقض .

وإن الإسلام ليبارك إرساء نظم المسئولية التضامنية والقيادة الجماعية فى مجتمعنا الجديد على أصول راسخة من تعاليمه التى امتازت بالدعوة إلى الشعور بتلك المسئولية والحرص على الجماعة وتحكيم مصلحتها أولا قبل المصالح الفردية الضيقة ، وإلى عدم الشرود عنها حتى لا تتفرق بالجميع السبل فتأكلهم ذئاب الطريق التى لا تستطيع أن تأكل إلا الشاردين المنفردين

و « يد الله مع الجماعة » دائماً . . .

ـ الحرية المتكاملة للفرد

إن الحرية السياسية والحرية الاقتصادية هما أساس الحياة الاجتماعية الجديرة بأن تعاش، وهما المطلب الأول للجماعات والأفراد ليصححوا ذواتهم ويشعروا بكيانهم وينطلقوا إلى كل اتجاه فى رحاب الحياة الواسعة المتجددة . فإذا لم تتحقق الحرية بنوعيها لم يتحقق أى وجود شريف كريم .

وقد مضى التاريخ مطرداً بنشوء المجتمعات ونموها وازدهارها على هذا الأساس من تحقيق الحرية أولا ثم اتخاذها ركيزة انطلاق إلى كل ثورة وكل دعوة لتحقيق الحياة الكريمة العزيزة .

وفى حياة أمتنا نحن المثال والشاهد القريب الذى يوضح لنا هذه الحقيقة الأساسية ؛ فقد مضت تجاهد من أجل هذا المطلب الأول مطلب الحرية السياسية والاستقلال اثنين وسبعين عاما بذلت فيها من الدماء والجهود المتوالية لتحقيق الحرية باعتبارها القيمة الأولى الأساسية، للحياة ولم ترفى تلك الحقبة الطويلة من سنى الكفاح أن يشغلها أو يعوقها أى شاغل أو معوق من مطالب الحقوق الأخرى ، ولم تنطلق منها أية ثورة اجتماعية قبل أن تمضى ثورتها من أجل الحرية السياسية إلى غايتها وتحقق أهدافها . فلما حققت الثورات من أجل الحرية أهدافها سنة ١٩٥٤ بجلاء قوات الاحتلال البريطانى انبثقت الثورة الاجتماعية ومضت غير متعثرة، فى طريق ممهد .

نعم كانت هناك فترة قصيرة من ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ إلى يوم الجلاء سنة ١٩٥٤ ازدوج فيها الكفاح من أجل الحرية السياسية بالكفاح لبدء الثورة الاجتماعية بالقضاء على التفاوت الفاحش، وتحقيق الإصلاح الزراعى ، وتوزيع الأرض على الفلاحين المعدمين ، ولكن معالم الكفاح حتى فى هذه الفترة القصيرة تتضح أكثر فى الكفاح من أجل الحرية السياسية وتصحيح قيمها فى حياتنا أولا .

وطبيعى أن الاحتلال البريطانى ما كان ليسمح بقيام الثورات الاجتماعية حتى ولو ليشغلنا ويلهينا بها عن الثورة من أجل إجلائه عن ديارنا ، لأن الاحتلال

كان يعمل على أن تكون الفائدة الأولى من وجوده فى ديارنا هى أولا : اغتصاب ثمار حياتنا الاقتصادية وسلبها وتحطيم القيم الاجتماعية المترتبة على تملكنا هذه الثمار ، معتمداً فى ذلك على عملائه من الاستغلاليين والاحتكاريين الذين اتخذهم الركائز الأساسية لحكمه واحتلاله هذه الديار . ومتى تحطمت القيم الاجتماعية للأفراد وصاروا أسرى للأرض وللمستغلين ، ذلوا وضاعوا وغفلوا عن المطالبة بالحرية والاستقلال ، واستكانوا للقيود السياسية ، وخصوصاً إذا كانت الأمية الأبجدية والعقلية فاشية فيهم بدرجة عالية كما كان الحال فى عهد الاحتلال .

وحتى بعد زوال الاحتلال وتحطم الملكيات الكبرى والاستغلال والاحتكار وبناء الدولة بناء اشتراكياً بتأميم وسائل الإنتاج والتمكين لتكافؤ الفرص بين المواطنين ، يشعر وطننا شعوراً يقظاً بضرورة المحافظة على الحرية السياسية ومكاسبها من الأخطار الكثيرة التى تهددنا ، باعتبار هذه الحرية سياجاً للمكاسب الاقتصادية والثورة الاجتماعية ؛ ولذلك ما فتىء وطننا يخوض معارك تثبيت الاستقلال ومقاومة الاستعمار الجديد المتخفى وراء الأحلاف ومناطق النفوذ ، سواء أكانت هذه المعارك فى ديارنا أم ديار اشقائنا العرب ، أم ديار حلفائنا وأصدقائنا من معتنقى مبادئ الحياد الإيجابى وعدم الانحياز ، تلك المبادئ التى جنبت العالم فى ظروف كثيرة مزالق الانحدار إلى حافة هاوية الحرب الذرية التى فيها لا شك فناء أمم الأرض جميعاً غالبين ومغلوبين ، إن كان هناك غداة انتهائها غالبون . . .

ولقد آمن وطننا بالحرية السياسية وما وراءها من الحرية الاجتماعية لنفسه وغيره ؛ ووقف فى صفوف أنصارها فى المجال الدولى فى كل ظرف وفى كل مكان ، وجعل من ذلك الإيمان رسالة يبشر بها ويعمل لها صادراً فى ذلك عن تجاربه السياسية وإيمانه الدينى الذى ينادى بمبادئ الحرية والسلام والعدالة والاستعداد الدائم للكفاح فى سبيلها .

ويعلم أعداؤنا وخاصة الصهيونيين منهم أن الصراع الحقيقى بيننا وبينهم على امتلاك أرضنا العربية ، وعلى فلسطين بصفة خاصة ، يدور فى ميادين صراعنا من أجل تصحيح الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للأفراد وزيادة الإنتاج

ومسايرة ركب الحضارة والعلم الذى يجرى بالناس ، وهم لذلك يشعرون بالأخطار تحيط بآمالهم الخبيثة فى تحقيق مُلْكهم الكبير على أرضنا العربية كلما رأوا أى قطر عربى يثور أو يحارب فى سبيل بناء حريته السياسية والاجتماعية ، لأنهم ما جاءوا لغزو فلسطين إلا على حساب استمرارنا فى غفلتنا وتخلفنا السياسى والاقتصادى والاجتماعى ، وكلما رأوا شعبًا عربيًّا يستيقظ ليكافح ويحرر نفسه سياسيًّا واقتصاديًّا شعروا بمطارق الخطر تدق رؤوسهم وتسحق قلوبهم وتحطم آمالهم .

والواقع أننا فى حاجة ماسة إلى استحضار هذه النظرة اليقظة دائمًا فى جميع ميادين معاركنا العربية فى الوقت الحاضر ، إلى أن يأذن الله بزوال إسرائيل وما وراءها من أحلام الصهيونية ؛ لأن هذه النظرة الثاقبة هى مفتاح استعدادنا لكسب جميع معاركنا ضد أعدائنا وضد شرور أنفسنا وضعفها وتفرقها وعجزها عن رؤية الخطر الحقيقى ، وانصرافها عنه إلى أخطار موهومة تجسمها الأخيلة المريضة والقلوب العمياء .

هـ- كرامة الفرد وسلطة الدولة

تستمد الجماعات الإنسانية كرامتها وحقوقها وسلامتها من كرامات أفرادها وحقوقهم ، فالجماعة التى ليس لأفرادها كرامة مصونة وحقوق مقررة محترمة ، هى جماعة يسودها السخط والتفرق وتفشو فيها خواطر الأنانية والميل إلى الانعزالية والسلبية والتمرد ويذوق بعضها بأس بعض .

وحقوق الأفراد وكراماتهم ، تستمد أصالتها من أصالة الحياة نفسها ، لأن الناس يستمدون هذه الحقوق مع طبيعة الحياة ذاتها ويعرفونها من مذاقها .

فمنذ أن يأخذوا هبة الحياة من واهبها يأخذون معها حقوقها الكاملة التى تخولهم أن يحيوها طيبين ويتمتعوا بها متاعاً حسناً إلى نهايتها .

وأول حق يثبت لهم فى رأى الإسلام بعد أن ينالوا هبة الحياة هو حق حفظها وصيانتها من الاعتداء والاغتيال ، فلا يباح لأية قوة أن تعتدى على حياة أحد ولا أن تحرمه منها إلا بحق آخر . . . فإذا اعتدى إنسان على حياة آخر أو حرمه منها بغير حق يكون قد اعتدى أو سلب حياة الناس جميعاً ، وعصى إرادة واهب الحياة فى إيجاد نفس من العدم ، وصار قوة من قوى التدمير والتخريب لمخلوقات الله . تستحق غضبه ولعنه . . .

يوضع هذا المعنى قول القرآن :(مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا على بَنى إسرائيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْساً بغير نَفْسٍ أو فَسادٍ فى الأَرض فكأَنَّمَا قَتَلَ النَاسَ جميعاً ، ومن أَحياها فكأَنَّمَا أَحيَا النَاسَ جميعاً . .)

وفى العبارة الأخيرة من هذا القول العظيم توضيح لمعنى عظيم ، هو أن من يحفظ شعلة الحياة فى الأحياء ويزيدها ازدهاراً ونماء يكون قوة من قوى التكوين والبركة والنماء التى أوجدها الله لتنمو بها الحياة . . .

وثانى حق يثبت للفرد بعد ثبوت حق استمرار حياته وحفظها هو حق الحرية ،

لأن الحياة فى جوهرها حرية . . . حرية من قيود الموت والجمود ، وحركة وانطلاق مع تيار الوجود فى كل اتجاه . . .

وحق الحرية هو أساس لجميع الحقوق الأخرى المدنية والسياسية والاقتصادية . . ولا كرامة ولا طعم لحياة بدون حرية . . . ومن يسلب الناس حريتهم فكأنما سولبهم حياتهم . . . وقد وقر فى قلوب الناس وعقولهم عشق الحرية والدفاع عنها تفديتها حتى بالحياة نفسها . . . إدراكًا منهم أنه لا قيمة لحياة بدون حرية .

وقد أعلنها الإسلام صريحة حينما حرر الفرد من عبادة ما سوى الله الخالق ، وحين خاطب كل فرد خطاباً مباشراً بدون وساطة ، وألقى عليه مسئولية نفسه وتبعات حياته ؛ إذ لا مسئولية بدون حرية ، وحين عرض عليه أمانة الوجود فحملها وعلم أنه لم يخلق عبثاً ولم يترك سدى ، وأنه (كلُّ امْرِىءٍ بِما كَسَبَ رَهِين) (وكلُّهم آتِيه يوم القيامة فردًا) ، (يوم تأْتى كل نفس تجادل عن نفسها) ، (إن السمع والبصر والفؤاد كلُّ أولئك كان عنه مسئولا) .

وفى هذه المبادئ القرآنية بيان عميق المآخذ بعيد الصدى فى تقرير حق الحرية وتثبيته وتشعيعه فى كل أفق من آفاق الحياة ، وذلك سبق مبكر جداً قبل هذا العصر إلى تقرير حريات الفكر والعلم والاعتقاد والقول والتملك والتصرف واختيار نظم الحكم التى يعيش فى ظلها الفرد مع جماعة ما ، لضمان المساواة وتكافؤ الفرص أمام الجميع ، وتأمين الحماية لدمائهم وأعراضهم وأموالهم وكفالة الحد اللازم لمعيشتهم عيش الكرامة والحرية . . .

وقيام دولة على هذه الأسس يعنى أنها دولة ديمقراطية اشتراكية بلغة العصر ، إذ يضمن فيها للفرد حقه فى الحرية والكرامة فى الحدود التى تكفل حقوق غيره ، بحيث يتنازل كل فرد عن جزء من حريته السياسية والاقتصادية ، لا مفر من التنازل عنه ، ليضمن مصلحة أعظم لنفسه ولغيره .

والاشتراكية كما يشير اسمها تعنى المشاركة من جميع أفراد المجتمع فى وضع الجزء المتنازل عنه من حريات الجميع السياسية والمالية تحت تصرف الدولة أو الهيئة التى تُختار من الجميع لتمثل الجميع . .

وتتفاوت أنواع الاشتراكية بمقدار تفاوت القدر المتنازل عنه للدولة من الحريات

وكلما كان ذلك القدر أبعد عن محو شخصية الفرد ومسئوليته كان ذلك أقرب إلى الوضع الطبيعي الذى خلق عليه قبل إندماجه فى المجتمع .

وبعض المذاهب الاشتراكية يدمج الفرد فى الدولة إدماجاً تاماً لا تبدو فيه ملامح شخصيته المستقلة ، ويستعبده لها ، فلا إرادة له ولا ملكية خاصة ولا حرية له فى نقد الدولة ، وذلك كله من أجل ما يصل إليه عن طريقها من الحماية والكفاية لحياته.

وفى هذا غلو فاحش وإهدار لقيمة الفرد الإنسانى ومسئولياته والخصائص المميزة لشخصيته ، ونزول به نحو حضيض حياة الحيوان الذى يسير مع القطيع بدون تفكير وإرادة ، وتماثل فيه الأفراد تماثلا تاماً ، فهو واحد مكرر فى الملايين ، ولا ميزة لفرد على فرد ، كالغراب والغراب والغزال والغزال ، والحوت والحوت ، والحشرة والحشرة .

وقد نآى الإسلام بدولته وأفرادها عن مثل هذا الغلو وعن مقتضياته وآثاره ، فجعل الاشتراكية غير مفروضة ابتداءً من الدولة على الأفراد ، بل نابعة ومنبثقة من ضمير الفرد ، فخاطب النفس الفردية فى وجوب الإيمان بالعدالة والتكافل الاجتماعى قبل أن يخاطب الدولة ، ودعا الأفراد أن يحدوا باقتناعهم واختيارهم من حرياتهم الطبيعية فى القول والعمل والتملك ، على مقتضى مصلحة الجميع .

وقد درجت الدولة العربية الإسلامية الأولى فى مهد رحب من الحرية المطلقة التى لم تكن تعرف قيود القوانين والنظم المسطورة فى السياسة والاقتصاد ، ونشأت نظمها وقوانينها السياسية والاقتصادية فى ظل تلك الحرية الفردية ، بعد أن تنازل الأفراد عن جوانب منها اقتناعاً واستجابة للدعوة الالهية التى دعتهم لما يحييهم فلبوا طائعين من غير جبرية ولا سيطرة حتى من رسول الدعوة ، كما بين له القرآن فى مثل قوله : (لستَ عليهم بمسيطرٍ) (وما أنتَ عليهم بجبّار) ، (إن عليك إلا البلاغُ) (لا إكراهَ فى الدِّين) .

وقد أكدت الشريعة الإسلامية للأفراد مبدأ الحرية المطلقة فى أصل الفطرة حينما وضعت لهم تلك القاعدة الأصولية ، وهى أن الأصل فى كل شىء هو الإباحة ، ولا يحرّم وتمنع عنه النفس أو يحد من حريتها فى تناوله إلا من ضرر فيه يلحق بالنفس أو ضرار بالغير .

وقد جعلت الشريعة الإسلامية سيادة الدولة على أفرادها مزيجاً من شريعة الله وإرادة الشعب الممثلة فى أهل الحل والعقد ، وإرادة القائم على الحكم ، وقررت أن الأنفس والأموال هى ملك لله واهب الحياة استودعنا إياها وخولنا التصرف فيها بالوكالة عنه وجعل حرية ذلك التصرف مقيدة بقيود من مسئولية الجميع عن الجميع .

وفى هذا أساس مكين للاشتراكية التى لا تذيب شخصيات الأفراد ولا تذهب بحرياتهم .

د - الحضانة الخلقية للنظم والمبادئ

لا شك أننا بالتجربة الاشتراكية التي نعيشها قد دخلنا طوراً جديداً يحتاج منا إلى وعي وإدراك لأسسه ومقوماته التي تجعله ينتج النتائج المرجوة منه .

وأول أنواع هذا الوعي أن نعلم أن المجتمعات الاشتراكية هي أحوج المجتمعات إلى قيام بنائها على الأسس الخلقية التي تؤخذ من المثل الدينية العليا ومن وازع الضمير الإنساني السامي الدقيق اليقظ .

ذلك لأن الاشتراكية السياسية والاقتصادية لن يكون بناؤهما سليماً وطيد الأركان إلا إذا أقيم على الاقتناع بضرورة التنازل عن كثير من المصالح الفردية والمنافع الشخصية في سبيل تحقيق مصلحة المجتمع ، وهذا الاقتناع يحتاج إلى فهم وتذوق خلقي للعلاقات الإنسانية الواجب توافرها في أفراد المجتمع ، وهذا الفهم الخلقي يحتاج إلى قوة دافعة من العقائد الإنسانية السامية التي تنبع من المثل العليا التي رسمتها أديان الحق والخير والصلاح والإيمان بالإنسانية الواحدة وبوصايا الله بشأنها .

بل إن الاشتراكية في حد ذاتها يجب أن تُعلَّم على أنها مذهب خلقي قبل أن تكون مذهبا سياسيًّا أو اقتصاديًّا ، ويجب أن تطبق بالاقتناع الوجداني قبل أن تطبق بالنظم والقوانين ، فتنبع من الشعور النفسي النبيل المتبادل بين أفراد الجماعة ، شعور أعضاء الجسم الواحد ، أو شعور الإخوة في الأسرة الواحدة ، يكفل بعضهم بعضاً ، ويسعى بعضهم لبعض سعي الخير ، ويعملون جميعاً بروح الجماعة وبالقيادة الجماعية ، ويبنون ثرواتهم الخاصة في الحدود التي ارتضتها الجماعة لمنع الطغيان ، وفي غير جشع ولا اغتيال ولا اختلاس ، كما يبنون ثروات أمتهم بالإنتاج الدائب المشمر عن سواعد الجد في ظل العواطف والأفكار التي تؤمن بجلب الخير للجميع وبدفع الشر عن الجميع وبوحدة مصير الجميع .

وما لم يقم المجتمع الاشتراكي الجديد على هذه المفاهيم الخلقية فإن نظمه وقوانينه لن تكفل له الدوام والاستمرار . . .

والمفاهيم الخلقية لن تثبت مضامينها وتتوحد فى قلوب الجميع إلا إذا استندت إلى المثل الأعلى فى الدين ، لأن الدين هو سند الأخلاق وحارسها وحافظها من أن تضعف أو تنهار فى ساعات الضعف البشرى عند الأزمات والمشكلات والامتحانات .

ومن طبيعة الدين أنه يجعل على كل مؤمن رقيباً من نفسه ومن ربه ، يحرسه من نزعاتها التى تدعوه دائماً إلى الفردية والأنانية التى لا تعمل للجماعة ولا ترى غير ذاتها .

وقد اعترف « ميثاق العمل الوطنى » بالدين والإيمان ، لأن المنطقة العربية والإسلامية التى جعلها الله منطقة الأمة الوسط ، لا تستطيع أن تعيش إلا فى ظل الإيمان بالدين والأخلاق والنظم المنبثقة من الدين . وقد نشأت حضاراتها ونمت فى ظلال الدين والإيمان ولا يمكن أن تنقاد طائعة مختارة لأى نظام إلا فى ظلال الدين .

ومن حسن حظ مجتمعنا الماضى ومجتمعنا المعاصر أن العدالة الاجتماعية والكفالة الاجتماعية والأخوة الإنسانية شعارات ندين بها ونعتقدها وتنمو عليها أخلاقنا من قديم . . .

ولو أن المذاهب الاشتراكية المعاصرة فى البلاد الأخرى سلكت إلى شعوبها عن طريق الإيمان بالله رب الجميع ، الداعى إلى التراحم بين الناس ، والجاعل حدوده هى حدود معاملات خلقه بعضهم مع بعض ، فهو « ثالث الشريكين » والمتعاقد الثالث مع كل متعاقدين ، وهو مع كل مريض يعوده عائد ، ومع كل محكوم يحكمه حاكم ، ومع كل فقير أو عاجز أو مستضعف : « ما يكون من نجوَى ثلاثة إلاّ هو رابعُهم ، ولا خمسةٍ إلا هو سادسُهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثرَ إلا هو معهم أين ما كانوا » . . .

أقول : لو أن مذاهب العدالة والإنصاف والاشتراكية وتخفيف الفوارق بين الطبقات ، تسلك إلى الجماعات فى كنف الدعوة للإيمان بالله رب الرحمة والعدالة ، لاختزلت خطوات وجهود كثيرة بذلت فى تلك السبيل .

فإلى الشعور بالمشاركة الوجدانية والعملية بين جميع الأفراد والهيئات فى ظلال المثل العليا الدينية فى مجتمعنا . . .

وإلى الأمانة الكاملة على حدود المشاعر النفسية وحدود الأعمال وحدود المعاملات باعتبارها حدود الله التى كثيراً ما أوصانا ألا نعتدى عليها . . .

وإلى ترويض النفس على ترك الجشع والطمع وحب الاستغلال وحب الترف . . .

وإلى الإخلاص فى العمل ومضاعفة الإنتاج لتكون وراء ذلك الكفاية للجميع وسد احتياجات الجميع . . .

وإلى عشق المساواة والحرية والشورى وتفدية ذلك الثالوث بكل عزيز ونفيس من المال والدم . . .

وإلى الحراسة اليقظة على مصالح الشعب فى المزرعة والمصنع والمتجر والمعمل والدوائر الحكومية والمؤسسات ، لأنها ملك للوطن ، والوطنُ ملك الجميع . . .

وإلى الصراحة فى مواجهة الأخطاء وتصحيحها فى كل تجربة من تجارب العمل والسلوك . . .

وإلى النقد الذاتى ومحاسبة النفس . . .

وليكن شعار الجميع القول المأثور :

« أنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يُؤْتَيَنَّ مِنْ قِبَلِك » .

وتلك هى الحضانة الخلقية لمبادئ مجتمعنا الجديد .

المال فى موازين الإسلام

المال قوة من القوى الكبرى للأفراد والشعوب ، يقيم حياتها ويسد احتياجها وتصرّف به شئونها الخاصة والعامة . وتصنع به أدوات عزها وتمكينها وحضارتها وثقافتها ومتاعها ، وتدافع به عن نفسها بإعداد السلاح والعتاد والحصون ، وتتسع به إمكانياتها وقدرتها على معالجة الأمور وتعمّق الحياة ، وترى به وجوها للدنيا لا تراها إلا فى ظلاله .

فهو أحد زينتى الدنيا كما فى قول القرآن : (المال والبَنُون زِينةُ الحياةِ الدنيا) بل جعله القرآن قوام الحياة الإنسانية ، ونهى عن تمكين سيِّئِى التصرف من حيازته حتى لا يضيعوه بسفههم وسوء تصرفهم فقال (ولا تُؤْتُوا السفهاءَ أموالَكُم التى جَعَل الله لكم قياماً)

والمال هو ما يملكه الإنسان منفصلا عن ذاته ، وقد جعله الله للإنسان وقاية وحفظًا ومتاعًا . وسماه القرآن خيراً فقال

(وإنه لِحُبّ الخير لَشديدٌ) أى وإنه لشديد الحب للمال ، وقال :

(كُتِبَ عليكم إذا حضر أحدَكُم الموتُ إنْ ترك خَيْرًا الوصيَّةُ للوالدين والأَقربين) أى إن ترك مالا ، ومدحه محمد رسول الله فقال : « نِعْمَ المالُ الصالح للرجل الصالح ! » وامتن الله به على الناس جزاء على احسانهم . فقال :

(ويُمْدِدْ كم بِأَموال وبنين ويجعلْ لكم جناتٍ ويجعلْ لكم أنهارًا)

ولما كان الإنسان واسع الآمال متعدد آفاق الحياة فقد سلحه الله بغريزة حب التملك والاقتناء لكل ما ينفعه ويسد ضروراته ويفى بمتاعه هو وأولاده وذوى قرباه ، تأمينًا لمستقبلهم وضمانًا لتحقيق آمالهم .

غير أنه قد ينحرف بهذه الغريزة إلى الإفراط فيصل إلى البخل والشح ، أو إلى التفريط فيصل إلى الإسراف والتبذير ، ولذلك كان من هداية القرآن له أن أوصاه بالاعتدال بين الطرفين المتباعدين ، فقال :

(ولا تجعلْ يدَك مغلولةً الى عُنُقك ولا تَبْسُطْهَا كلَّ البَسْط. فتَقْعُدَ مَلُوماً محسورًا) وقال في وصف المؤمنين (والذين إذا أنفقوا لم يُسْرفوا ولم يَقْتُروا وكان بين ذلك قَواماً) أى وكان إنفاقهم وسطاً معتدلا بين طرفى الإسراف والتقتير .

وقد صور فى الآية الأولى البخل على أنه تعطيل لليد كأنها مغلولة أى مربوطة إلى العنق ممنوعة عن أداء وظيفتها ، وصور الإسراف والتبذير على أنه تعطيل أيضًا لوظيفة من وظائف اليد لا تستطيع معه أن تمسك شيئًا ، فكل شىء يقع فيها هو إلى سقوط وضياع .

وذلك لأن البخل مهلك لمنفعة المال بتعطيله عن الدوران فى الأسواق وتداول الأيدى له لخدمة الصالح العام . . . وهو أيضًا مهلك لصاحب المال بالشح وتعلق النفس به تعلقًا يمنعها من كسب المكارم والمحامد ، وأداء واجبات المروءة ، مضافًا إلى حرمانه من كثير من طيبات الحياة التى يملك القدرة على التمتع بها وتذوق نعم الله فيها وتجديد نفسه بها .

والإسراف كذلك مهلك لقوة المال الحقيقية بانسيابه من يد المسرف بدون وعى وتقدير إلى غير مصارفه المستحقة وأماكن إنتاجه وتزايده، ومهلك للمسرف بجلب الحسرة والندم لنفسه بعد أن تلحقه عواقب الإسراف من الفقر والذل والتعرض لنكباتهما .

وقد شدد القرآن فى النهى عن الإسراف فى إنفاق المال حتى ولو كان ذلك بالمغالاة فى إعطاء ذوى الحقوق فقال :

«وآتِ ذا القُربى حقَّه والمسكينَ وَابنَ السبيل ولا تبذِّر تبذِيرا . إن المبذِّرين كانوا إخوان الشياطينِ وكان الشيطان لربه كَفورًا »

لأن عاقبة التبذير دائمًا واحدة، هى انهيار الثروة التى بها قيام الحياة الكريمة وصون الأعراض الشريفة وسد الحاجات المتجددة للنفس والولد وذوى الحقوق المذكورين فى الآية أنفسهم . ولذلك قيل : « لا خير فى السَّرَفَ » .

والمبذر كالشيطان فى عدم تقديره لما كان فيه من نعم الله فى الجنة وإسقاطه لمتاعها الدائم الذى كان فيه .

والمراد بالتبذير تفريق المال فيما لا ينبغي وإنفاقه على من لا يستحق وتضييعه بدون حساب ، كما ترمى البذور الصالحة فى الأرض بدون تعهد .

والإنسان يسلك إلى تأمين مستقبله ومستقبل من يعولهم بادخار المال الفائض عن الاحتياجات الاجتماعية لأمثاله ، بدون انحراف إلى الاكتناز والتقصير عن أداء الواجبات الزمنية والدينية كالصدقات والزكوات . وقد قامت الحياة الاقتصادية فى هذا العصر على تنمية خلق الادخار عند الأفراد وتنظيم عملياته ؛ فمن المتجمع لديهم جميعاً تقوم الشركات والمؤسسات الاقتصادية التى تزيد إنتاج البلاد وثروتها ورخاءها ، وتضمن فرص العمل لمن لا مال عنده تطبيقاً للوصية الدينية الجامعة فى قول القرآن (وتعاونوا على البر والتقوى) وكل عمل نافع يندرج تحت كلمتى « البر والتقوى » .

ومن هنا كان الادخار بجانب كونه أمراً طبيعياً لتأمين النفس واقتصاد الدولة ، أمراً دينياً مطلوباً . وفى الحديث المحمدى : « ما عَالَ مَن اقتصد » أى ما افتقر وصار عالة على غيره . وفيه أيضاً : «الاقتصاد فى النفقة نصف المعيشة ، والتدبير نصف المعيشة » ومن الحكم المأثورة قولهم : « التدبير مع الكفاف خير من الغنى مع الإسراف » .

وقد صار المال سلاحاً دولياً خطراً للسيطرة والتغلب ، ولذلك رأت الدول توجهيه والإشراف على تدبيره لخدمة الجماعة ، بتنظيم التوفير وإنشاء مؤسساته وضمانها وعقد قروض من الأفراد لتنفيذ المشروعات العامة .

والحرب الاقتصادية بين الدول حرب لا تهدأ فى الأسواق إذا هدأت الحرب بالسلاح والنار فى الميادين .. فالمال عصب الحياة وعنصر الصراع والهدف المختفى وراء أكثر الشئون . وقد رأينا كيف يسيطر بعض الأقوام القليلى العدد على العالم بالغزو الاقتصادى الخفى والظاهر .

وقد علمتنا الطبيعة التى فطر الله الكائنات الحية عليها ، الدرس الأول فى الادخار ، إذ جعلت فى أجسام النبات ،والحيوان والإنسان مخازن تختزن فيها الفائض من عصارات الحياة للانتفاع به وقت الضرورة والجفاف ، حتى لا تموت الأجسام الحية بانقطاع المدد فجأة عنها . فالماء فى النبات والشحم واللحم فى الحيوان والإنسان،

ما هى إلا مدخرات مخزونات لوقت الطوارئ يستطيع بها الكائن الحى أن يصبر على الجوع والعطش مدة ما حتى تنفرج أزمة المجاعة ، وبعض الحيوان والحشرات كما نعلم يدخر الفائض من غذائه اليومى إلى يوم أو فصل آخر لا يتوافر فيه الغذاء أو الأمان .

وقد جعل الإسلام سلوك الفرد ومنطقه يتجهان إلى الادخار للدنيا حين نصحه وألزمه بجمع الحسنات والطيبات وادخارها للمستقبل البعيد فى الدار الآخرة إذ يبعث من فى القبور ويُحَصَّل ما فى الصدور وما أمره أن يتزود به ويدخره من زاد نافع بقوله : (و تَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى) فالعمل للآخرة هو الادخار الأكبر للثروة الكبرى التى تقتنيها النفس البشرية من المعانى الدينية والمعارف والعلوم والمساعى الطيبة والنوايا الخالصة .

ومن قواعد علم النفس أن الخلق لا يتجزأ ، فالذى يؤمن بوجوب الادخار للآخرة يؤمن بوجوب الادخار فى الدنيا ؛ لأنه موجه من دينه إلى تأمين المستقبل البعيد فما بالكم بالقريب . . . وقد وجّه له القرآن الأمر بهذا التأمين المزدوج للدنيا والآخرة فى قوله :

(وابْتغِ فيما آتَاكَ الله الدارَ الآخرةَ ولا تَنْسَ نصيبَك من الدنيا) .

المبادئ العامة للاشتراكية الإسلامية فى المال

الاشتراكية الإسلامية هى التطبيق العملى لمبادىء الإسلام الاجتماعية والخلقية ولنظرياته الإنسانية ومبادئه فى العدالة والديمقراطية، ولتنظيم الحريات وما يقابلها من تبعات ومقومات لنظام التكافل الاجتماعى .

وهى اشتراكية معقولة يلتقى فى رحابها احترام الملكية الخاصة ودوافعها الفطرية كأكبر عامل من عوامل الإنتاج والتنمية الاقتصادية والإنشاء والتعمير والتنافس الذى لا بد منه لدوام التقدم الحضارى والسباق نحو اكتشاف المجهول من موارد الثروة والقوة . . . يلتقى هذا الاحترام مع المبادىء الأخرى التى قررها الإسلام للحد من سُعار تلك الملكية وجشعها وقمع طغيانها ونهمها .

كمبدأ أن المال فى الأصل مال الله جعلنا مستخلفين فيه ، فلا يجوز أن نخل بعدالة توزيعه بين عيال الله ، أو أن نتصرف فيه تصرف البخلاء أو السفهاء أو الطغاة ، وأنه إذا كان لأحد من هذا المال شىء كثير أو لم يكن له منه شىء فليس ذلك لكرامة خاصة أو مهانة خاصة له عند الله ، وإنما هو من آثار إخلال الأقوياء الطغاة بالوضع الطبيعى ، وذلك بأكل مواريث الله الطبيعية التى جعلها للناس جميعاً وبحب المال حباً جماً ينسى الواجبات ويلهب سُعار جمعه واحتجازه عن الآخرين ، كما سبق القول فى إحدى مقدمات هذا الكتاب . . .

وكمبدأ أنه لا يجوز كنز المال ولا تجميده وحبسه عن الحركة فى الأسواق ، وذلك ليزيد بحركته النماء الاقتصادى وينتفع به كثير من الناس . . .

وكمبدأ أنه لا يجوز استغلاله استغلالاً ربوياً يجعل النقد سلعة وثمناً فى وقت واحد ، ويجعل جماعة من المستغلين لضرورات الناس واحتياجاتهم يمتصون بدون عمل جهود الناس وأعمالهم ويستذلونهم ، ويأخذون أرباحاً بدون عمل ، ويجرد المجتمع من جمال صورة التكافل الذى أقامه الإسلام عليه ، ويجعله فى صورة قبيحة حين لا يعطى أو يُقرض من عنده فائض من المال عن حاجته أخاه الذى هو فى أشد الاحتياج إليه ، فهذه صورة كريهة شنيعة تأباها مبادىء الإنسانية والأخلاق .

ومن أعظم معجزات الإسلام فى هذا العصر قيام النظم الاشتراكية على ما قام

هو عليه من قديم؛كتحريم الربا والاتجار بالنقود باعتبارها سلعة للاستغلال والمضاربات وافتراس المحتاجين .

وكمبدأ إطلاق بعض أنواع المال ودورانه أو تعميم ملكيته بين جميع الأيدى ، وعدم جعله دُولةً بين أيدى الأغنياء وحدهم .

وكمبدأ عدم احتكار السلع الضرورية لحياة الناس والتحكم فيها سعياً وراء الربح الفردى .

وكمبدأ تكافؤ الفرص أمام الجميع فى العلم والعمل والتجارة والصناعة والتعمير والتثمير ، بحيث لا يختص فريق دون فريق بالتمكين له وحده مع حرمان الآخرين لأى سبب من الأسباب .

وكمبدأ تحرير المصادر الطبيعية للثروة والإنتاج الحيوى الأساسى من أية ملكية خاصة ، وتمكين الدولة وحدها من استغلالها والانتفاع بما فيها من موارد هى ملك للمجتمع كله .

وكمبدأ احترام العمل وتيسيره ، واعتباره الأساس الأول للقيمة الاقتصادية للسلع وللقيمة الاجتماعية للفرد وللتنمية الاقتصادية ، وأن الذى يملك الجهد والخبرة له حق وفضل كبير فى استغلال الموارد الطبيعية للثروة .

وكمبدأ كفالة العاجز ، ومن ليس له حيلة فى الكسب والارتزاق ، لمرض أو عجز أو شيخوخة أو أى سبب خارج عن إرادته .

وكمبدأ ضمان الحد الأدنى اللازم المعقول فى المعيشة الإنسانية لجميع الأفراد . . .

تلك المبادئ الأساسية هى لب الاشتراكية المنبثقة من روح التكافل الاجتماعى الذى طالبنا الإسلام به ، وربانا عليه وأقام بناء مجتمعاتنا على أسسه . ومع هذه الاشتراكية المعقولة تسير التعاونية المعقولة والديمقراطية المعقولة ، ويبلغ المجتمع مبلغه من حياة الرشد والرغد والسداد وتوفيق الله .

بين الفكر والعقيدة والعمل

يرى القرآن أن الفكر فى الله والإيمان به بدون عمل وخُلُق ، لا ثمار له إلا ثمرة واحدة هى الدخول فى نطاق رحمة الله وعفوه والنجاة من لعنه وطرده كما قال القرآن :

(ان اللهَ لا يَغْفرُ أن يُشْرَكَ به ويَغْفرُ ما دُونَ ذَلكَ لمَنْ يَشَاءُ) .

وهذا النوع من الفكر والإيمان المجرد بدون عمل يصدقه هو من الأمانى التى قد تتخلف ولا تتحقق ولذلك قال الحديث المحمدى : « ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل » .

فالعمل هو برهان الإيمان وأمارة صدقه ، ودليل عدم النفاق فيه ، وهو الضابط الكاشف عن حقيقته فى المعيار العام ، ولذلك قرن الإيمان دائماً بالعمل فى آيات القرآن وفى الحديث المحمدى وفى مواضعات الناس ومقاييسهم . فمن ادعى الإيمان والإسلام فله دعواه مصدقة غير مردودة كما يقول القرآن (ولا تَقُولُوا لمَنْ أَلْقى إليكم السلاَم لَسْتَ مؤْمناً) فكلمة الإيمان تعصم الإنسان من الإهدار ولكنها وحدها لا تسلكه فى جماعة المؤمنين إلا إذا عمل بمقتضى ذلك الإيمان .

وللجماعة أن تشك فى إيمانه وتتهمه إذا لم يعمل أعمال المؤمنين ويقدم بين يدى دعواه برهان صدقه ، من العمل الصالح والقول الصالح والخلق الصالح . . .

بل إن بعض آيات الكتاب تشير إلى أن عملية الإيمان وحدها لا تتحقق وتصدق إلا إذا كان معها أداء اضرائب الإيمان ، من الصبر على تكاليفه ولو كان فيها فتنة شديدة كما قال القرآن :

(ومنَ الناس منَ يَعْبُدُ اللهَ على حَرْف فإن أَصابَه خيرٌ اطْمَأَنَّ به وإن أَصابَتْه فتنةٌ انقلبَ على وجهه خَسرَ الدنيا والآخرة ذلك هو الخُسران المُبين) .

فعلى هذا ، ليس مجرد العمل الصالح الرتيب الهين الذى لا مشقة فيه أو فيه مشقة يسيرة هو مقياس الإيمان ، ولكن من مقاييسه الصبر على المكاره الشديدة وتحملها وعدم الفرار منها ولو فى مجال الموت

فالذين يعبدون الله على حرف ، ويحسبون أن تكاليف الإيمان هينة لينة قاصرون عن إدراك حقيقته وحدوده . . .

والذين يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم منافقون يخدعون أنفسهم ويخادعون الله وهو خادعهم وحائل بينهم وبين قلوبهم وجاعلها حجة عليهم ، لأن ما فى فطرتهم سيشهد عليهم .

والذين لا يستحضرون كل ما فى قدراتهم العقلية والقلبية عندما يعاهدون الله على الإيمان والإسلام ، ولا يستجيبون لكل عزائمه بقوة وعزم ويتواصون باتباع الحق والصبر على أعبائه ، هم خاسرون بائرون قد ضيعوا حياتهم وخسروا عمرهم فى الدهر كما قال القرآن : (والعصر ! إن الانسانَ لَفِي خُسْر . إلا الذين آمنوا وعَملوا الصالحات وتواصَوْا بالحق وتواصَوْا بالصبر) .

وفى ساعة بناء العقيدة يجب أن يستحضر الدعاة والمربون كل ما فى طاقة الناس العقلية والقلبية ليقوموا بميثاق الإيمان ويستحضروا خطره وجلاله ، لأنهم يضعون أيديهم فى يد الله فيجب أن يقدسوا الكلمة التى يعاهدونه عليها .

ويجب أن تكون العظات دائماً كأنها استئناف عملية الميثاق والتعاهد مع الله ، ولا تكون ترديداً لكلمات محفوظات لا روح فيها ولا حرارة معها .

وإننا الآن ونحن فى عهد تجديد بناء العقيدة والدولة ، يجب أن نستحضر دائماً قيم الإيمان والعمل ولا ننساها ، ولا نسلك فى ترديد ألفاظها مسلك الببغاوات ، لتكون الحركة منتجة ، لها كل طاقات الوعى والإخلاص والصدق . ومع تجديد العقيدة ستجدد الدولة .

وللدولة أعباء جسام ، فليكن تحملنا لهذه الأعباء الجسام أثراً من آثار تعاهدنا على الإيمان بالله ، ليكون أداؤها مصحوباً بذلك العزم والاطمئنان والرضا والصبر والرجاء فى الله مشترى الأنفس والأموال والجهود ، ولا تكون عملية الفداء والتضحية والبناء للأوطان أو الأفكار عملية خاوية لا صلة لها بالله ولا تطلع معها لوجهه الأعلى ، ولا رقيب فيها إلا عيون الإنسان القاصرة التى لا تنفذ إلى ما فى الصدور ولا تعلم خفايا الأنفس ، فتزيغ فيها قلوب وتخون قلوب وتخسر الدنيا والآخرة .

أجل . نحن فى عصر نحتاج فيه إلى كل طاقات العقول والأيدى والنفوس

المؤمنة التى تسند ظهرها إلى يد الله القوى القادر ، وتحتمى فى جدار السموات والأرض وكل حصون الحق والصدق ، فى صراعها للعقائد والنظم الضالة المضلة التى طمست وجوه الحياة الصحيحة ، وفطرتها السليمة وأخذتها الأواخذ إلى متاهات المذاهب البعيدة عن صدق الحياة وقطعت ما بينها وبين النبأ العظيم ، . ألا وهو كلمة السر . . . كلمة الإيمان بالله واهب الحياة ، ومالك يوم الجزاء !

وفيما يخص أمتنا العربية وشعوبنا الإسلامية ، نحتاج إلى كل قوى الدفع والإصرار التى فى الإيمان ، بعد أن « أوشكت الأمم أن تتداعى إلى كسر شوكتنا وسلب ما ملكناه من الديار والأموال كما تتداعى الأَكَلَةُ إلى قصعتها * » . . . وذلك من سوء تقديرنا للحياة الدنيا ، وخوفنا من الموت العظيم فى سبيل الأمر العظيم . . . أمر تثبيت الإيمان فى النفوس ، وإقامة الحياة العظيمة .

أجل نحن المسلمين فى هذا العصر فى معركة ضارية على أرضنا ووجودنا وشرفنا وما ورثناه من تراث الحق والخير ومعانى الأمور وعظائم الأمجاد . . . وقد آذنت أن تكون معركة حاسمة فى وجودنا أو عدمنا . . . بعد مجىء الصهيونية العالمية إلى قلب بلادنا ووضعها السكين على عنق وطننا ، وهى مؤمنة بما ورثته من مثل جاهلية ضيقة متعصبة معادية لمن عداها من الإنسانية ، فيجب أن نقابلها بأعظم أسلحتنا وهو الإيمان والعمل الواعى الضخم لتجديد كياننا ودفع هذه المحنة عنا وعن الإنسانية . والله هو المستعان !

* من حديث محمدى .

قيم العمل

نحن فى عهد كثير الأعباء على الدولة وعلى الأفراد ، ولا نستطيع أن ننهض بمسئولياتنا فيه إلا بالتركيز على معانى الإيمان والعمل ، لأن الإيمان هو مفتاحُ قُوَى الدفع التى تكهربنا « وتشحننا » بالعزم والإصرار والتفانى والاستشهاد فى سبيل مثلنا العليا وبلوغ أهداف حياتنا المادية والمعنوية .

وإذا كان الإيمان هو روح العمل وسره فإن العمل هو جسم الإيمان وشكْله ، والفصل بينهما لا ينتج إلا صوراً من الحياة ناقصةً أو مشوهة أو جافة أو عقيماً .

فالذى يؤمن ولا يعمل يعيش فى فراغ وتجريد وعجز . . . ولا حصيلة واضحة لحياته ولا دلالة واضحة على إيمانه ، والذى يعمل بدون إيمان يعيش كالآلة بدون روح يلهمه ويؤنسه ويسدده ويدفعه ، ولا يحس ما وراء العمل من قيم خلقية وإنما يحس ذلة السخرة وغموض السر فى أعباء الحياة التى تمضى به بدون تفسير يعمر قلبه بالطمأنينة والسكينة والفهم .

ويقرر الإسلام أن حياة الإيمان بدون عمل هى عقيم كحياة شجر بلا ثمر ؛ فهى حياة تثير المقت الكبير لدى واهب الحياة الذى يريدها خصبة منتجة كثيرة الثمرات . يقول القرآن : (يا أَيها الذين آمنوا لِمَ تقُولُونَ ما لاَ تَفْعَلون ! كَبُر مَقْتاً عند الله أَن تَقولُوا مالا تفعلون !) .

كما يقرر أن العمل بدون إيمان جهد ضائع على صاحبه وهباء منثور ، كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف . يقول القرآن : « مَثَلُ الذين كفروا بربِّهم أَعمالُهم كرماد اشتدت به الريحُ فى يوم عاصف ، لا يَقْدرُونَ مما كَسَبُوا على شىء » ويقول : (وقَدِمْنا إلى ما عَمِلُوا من عمل فجعلناه هَبَاءً منثورًا) .

وفى بداهة المجتمعات وتقاليدها أنه لايمكن الفصل بين الإيمان والعمل ، فهما فى

تصورها شيء واحد، وذلك ناشيء عن تعودها أن ترى فى الأعم الأغلب أن الضمير العامر بالإيمان لا يمكن إلا أن يكون زاخراً بقوى الدفع إلى الخير والصلاح وعمل البر، وأن ترى أن أعمال الخير والبر لا تكون فى الغالب بدون ضمير وراءها عامر بالإيمان بالله رب الخير والمراحم والمكارم .

وقد استدل العقلاء حتى فى المجتمع العربى الجاهلى على صدق دعوة محمد رسول الله إلى الإيمان وقضاياه ، وعلى أهليته للنبوة وكمالاتها ، بما كان عليه فى حياته قبل النبوة والرسالة من خُلُق عظيم وأمانة ومروءة وفضيلة وعقل واسع الإدراك سديد الحكم ، فقالت له زوجه السيدة خديجة حينما روّعه نزول ملاك الوحى عليه لأول مرة ، وشك أنه رَئِيٌّ من الجن : «أبشر يا ابن العم ! لن يخزيك الله أبداً . . إنك لتَصِلُ الرحم وتكسب الكَلّ وتعين على نوائب الحق » فاستدلت بسمو أخلاق الرسول وشرف أعماله ومروءة طبعه على صدق اختياره واصطفائه للنبوة والرسالة .

وما لبثت آيات القرآن أن نزلت مطمئنة للرسول مستدلة له أمام نفسه على صدقه فيما رآى وما سمع ، وعلى أن اختياره لرسالة الإيمان الكبرى حقيقة لا شك فيها ولا دخل بها لتهويم الخيال مع رَئِيَّاتِ الجن ، وكان استدلال الآيات بنفس المنطق الذى استدلت به السيدة خديجة ، فقالت مفاتح سورة (القلم) وهى ثانية السور نزولا (ن. والقلم وما يَسْطرون. ما أنْت بنعمة ربّك بمجنون . وإن لك لأجرًا غير مَمْنُون. وإنك لَعَلَى خُلُقٍ عظيم) .

فقرنت الآيات بين كمال إدراكه لما رآه من ملاك الوحى وما سمعه منه وبين خلقه العظيم الذى رشحه لهذا الأمر العظيم أمر النبوة والرسالة .

وبهذا المنطق القرآنى الذى اطرد فى السور التالية على هذه الوتيرة الواضحة فى الجمع بين الفكر والإعتقاد والخلق والعمل وعدم تسويغ التفريق بينها ، تُهدم تلك المزاعم القديمة والحديثة فى جواز ازدواج الشخصية أو تناقضها أو توزعها بين حياة الفكر والخلق وحياة العمل ، أو بين الأخلاق الشخصية والمعاملات الاجتماعية ، فتكون للشخص حياة عقلية مؤمنة وحياة خلقية كافرة أو فاسقة ، أو تكون له حياة خاصة يفعل فيها ما يشاء من منكرات العرف والدين ، وحياةٌ عامة يزعم أنه يلتزم فيها حدود الفضائل والعدالة . . .

فهذا التفريق والتوزيع لا تعرفه طبيعة العقل والخلق الإسلاميين ولا يقره مجتمعهما الذى يريد لكل فرد فيه أن يكون سويا غير منحرف عن حياة الصدق إلى حياة الرياء والنفاق وانقسام الشخصية واضطرابها ، ويهتف دائمًا مع القائل :

وغير تقى يأمر الناس بالتقى   طبيب يداوى الناس وهو مريض

بل يهتف مع القرآن (كَبُرَ مَقْتاً عند الله أن تقولُوا ما لا تفعلون) .

وهذا أمر معقول فى دين كالإسلام يدعو إلى اعتناق مذهب وحدة الحياة وامتدادها إلى الأبد بعد الموت فى الدار الآخرة ، وبالتالى يدعو إلى وحدة العمل ويجعله كله من العبادة ،سواء أكان عملا للمعيشة هنا فى الدنيا أم للعيش هناك فى الآخرة ، فلا يقول هذا عمل دنيوى وذاك عمل أخروى ، بل يقول فى كل أنواع العمل : « هذا عمل صالح ينفع الناس ويمكث فى الأرض لإمداد الحياة بمدد الخير ، فهو إذاً عبادة سواء أكان فى ظاهره للدنيا أم للأخرى ،وهذا عمل فاسد يؤذى الحياة ولا يمدها بخير ، فهو إذاً كفر أو فسق، سواء أكان ظاهره عملا دنيويًا أم أخرويًا .

ومن هنا قرر الإسلام أن كل كل الأعمال واللذات الطيبة يجوز أن تتحول إلى عبادة إذا قدمت أمامها النية الخالصة فى حفظ هبة الحياة والانتفاع بها واحترام إرادة واهبها .

ومن هنا كذلك اتسعت نظرة الشريعة الإسلامية إلى أعمال الخير والنفع فى الدنيا والأخرى على امتداد الحياة ، فأوجبت على الدولة توفير أسباب القيام بالأعمال التى لا تقوم الحياة إلا بها ، ولايتسع العمران بدونها ، ولايتقدم المسلمون ويرتقون بسواها ، فجعلت ذلك فرض عين على القائمين على الدولة وفرض كفاية على جميع أفرادها ، ووضعت تلك القاعدة الواضحة لقيم الأفراد فى المجتمع ؛ وهى أن « قيمة كل امرىء ما يحسنه» فدعت بذلك كل فرد إلى ألا يكون سلبيًا أو عالة أو عقيمًا لا ينتج شيئًا أو معتمداً على حسب أو مال موروث بدون جهد وإنتاج ذاتى نافع صادر من فيض قدرته الشخصية .

والأصل فى تلك القاعدة الواضحة التى وضعها الإسلام لقيم الأفراد وقيم الأعمال فى المجتمعات هذا الحديث القرآنى العظيم الذى ضرب مثلا يبلغ أقصى بلاغة

التعبير والبيان بقوله : (وضرَب اللهُ مَثَلاً رجُلَين : أحدهُما أبكمُ لا يَقْدِرُ على شيء وهو كَلٌّ على مولاه ، أينما يُوجههُ لا يأتِ بخير . هل يستوى هو ومن يأمُرُ بالعدل وهو على صراطٍ مستقيم ؟ !) .

ففى هذا المثل بيان للقيمة الحقيقية لكل فرد ولكل عمل فى المجتمع عن طريق المقارنة بين الشخصية السلبية العاجزة عن فعل الخير أو قوله ، العقيم العالة على المجتمع ، التى لا يجدى معها التوجيه إلى سُبُل الخير ، وبين الشخصية الإيجابية التى يفيض منها عمل الخير ، وتوجه غيرها إليه ، وتمضى عمليًّا على الطريق المستقيم إلى وجهات النفع والإنتاج فى الحياة .

إتقان العمل

قد تشعبت أنواع العمل فى هذا العصر بتشعب العلوم والفنون والصناعات التى لا تكاد تعد ، وصارت طوائف العمال فى الصناعة والتجارة والزراعة تخضع للتوجيه العلمى والفنى الذى ينمو دائمًا ، وصارت الكفاية الفنية هى سلاح كل عامل ، واتسع نطاق التنافس بين الشعوب والدول فى وقت السلم فى ميادين الأعمال المختلفة ، وصار السبق فى ذلك لمن يتقنون الأعمال ويغارون عليها ويجوّدونها ويطوّرونها إلى الأحسن والأفضل .

وقد دعا القرآن إلى السباق الحميد فى سبيل الخير والتقدم فى الدنيا فقال « فاستبقوا الخيرات » كما دعا إلى التسابق فى سبيل الفوز فى الأخرى فقال (سابِقُوا إلى مغفرة من ربِّكم وجنةٍ عَرْضُها كعرضِ السماءِ والأرض)

كما دعا الرسولُ إلى إتقان العمل والإحسان فيه فقال: « إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه» وقد وعد الله بأداء أجر كل عامل محسن فيقول القرآن:

« إن الله لا يُضِيع أجرَ من أحسنَ عملا » «ونعم أجرُ العاملين » .

ونوه القرآن بإتقان الله صنع مخلوقاته فقال : « صُنْعَ الله الذى أتقن كلَّ شىء » (قال ربُّنا الذى أعطَى كلَّ شىء خَلْقَهَ ثم هَدَى) .

وهذا يوجه المؤمنين إلى أن يتقنوا عملهم ، وقد أمروا أن يتخلقوا بأخلاق الله .

والدلالات الاجتماعية تشير إلى أن ميزان التقويم للأشخاص ومعيار اعتبارهم وتقديرهم هو بحسب اهتماماتهم بالعمل وإحسانهم فيه .

فإذا لم يكن الشخص من العاملين وكان من السلبيين أو المتواكلين القاعدين عن الأعمال فقد أهدرت قيمته وضاع وسقط من موازين الحساب والتقدير : كما قال الخليفة عمر بن الخطاب : « أرى الرجل فيعجبنى فإذا قيل لا عمل له سقط من عينى » .

ويجب أن نفطن فى هذا المجال إلى أن أجسام الناس ما هى إلا آلات يجب إعمالُها وعدم تعطيلها وإلا دمرها العجز والخور والشلل وصارت إلى الموت البطىء

والاسترخاء والصدأ كأية آلة تعطل، وتحولت إلى أداة تعويق للحياة الاجتماعية ونموها ، بدلا من أن تكون أداة قوة ونماء وازدهار .

وقد طبع الإسلام نفوس أصحابه على تقديس العمل وترتيب قيم الأشخاص عليه والاحتفال بالعاملين وتكريمهم فقال القرآن :

(وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يُرَى ثم يُجْزاه الجزاء الأوْفى)
وهذا محمد رسول الله حينما صافح يداً خشنة فسأل وعلم أن خشونتها من أثر استعمالها للمسحاة ، وهى أداة من أدوات فلاحة الأرض قال : « هذه يد محرمة على النار » وقال : هذه يد يحبها الله ورسوله » .

وعرق العامل وجهده وتعبه من أسباب مغفرة الله له ذنوباً لا يكفرها صوم ولا صلاة ولا أى واجب من واجبات العبادة ولذلك قال الحديث المحمدى : « من بات كالاً (أى متعباً من العمل) بات مغفوراً له وقال أيضاً ما معناه : « إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها صوم ولا صلاة ولا حج وإنما يكفرها سعى الرجل على عياله » .

ومما مكن لشرف العمل المادى وقيمته وإتقانه فى المجتمع الإسلامى أن القرآن جعل أبطال الرسالات الدينية من الأنبياء والمرسلين على مدى التاريخ هم فى الوقت ذاته رواد فى مجالات العمل والقوة المادية .

ولأهمية هذا نعيد هنا خلاصة مما سبق ذكره فى فصل (تخلف التفكير المادى . . .) من المقدمات . .

فهذا « نوح » كان رسولا نبيًّا وكان رائداً من رواد الصناعة ، إذ أوحى الله إليه بصنع السفينة التى نجته هو ومن معه من الطوفان الذى أغرق قومه الكافرين ، فكان بدء صناعة السفن على يديه .

وإبراهيم أبو الأنبياء كان رسولا نبيًّا وكان فى الوقت ذاته يحسن صناعة البناء ولذلك رفع القواعد من البيت الحرام بمكة هو وابنه إسماعيل .

ويوسف الصديق كان رسولاً نبيًّا حاملاً لعهد الله مع آبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب ، وكان فى الوقت نفسه ذا عقل اقتصادى يحسن تدبير أمور الناس المعاشية ، فأشار على فرعون مصر فى عهده بأن يزرع سبع سنين دأباً ويخزن فائض حصاد الزرع وغلته فى هذه السنوات السبع استعداداً لسنوات الأزمة المقبلة التى استشفها بتأويله للرؤيا التى أُرِيَها فرعون فى منامه وقصها عليه ؛ ثم لما استخلصه فرعون

لنفسه بعد تأويله للرؤيا ، طلب يوسف أن يوليه منصب القائم على خزائن الأرض فى دولته ليخدم الناس فى مصر وما جاورها بتدبير أمور معاشهم وأقواتهم ، فكانت رسالته مزدوجة للحياة الروحية والحياة المادية كما قال القرآن : (قال اجْعَلْنى على خزائِن الأرض إنى حفيظ عليم »

وموسى رشحته قوته البدنية وأمانته لأن يعمل للنبى شعيب فى رعاية أمواله ويُعينه عشر سنوات ، وأن يزوجه إحدى ابنتيه بعد أن قالت :

(يا أَبَتِ استأْجِرْه إنَّ خيرَ من استأْجرتَ القوىُّ الأَمين) .

وداود كان نبياً ورائداً من رواد صناعة الحديد وكان يأكل من عمل يده كما قال القرآن

(وألنَّا له الحديد أن اعمل سابغاتٍ وقَدِّرْ فى السَّرْد واعمَلُوا صالحاً)

فهذا أمر إلهى بإصلاح العمل المادى وإتقانه .

وسليمان بن داود كذلك كان من المحتفلين بالعمل والصناعة كما حدث القرآن فى قوله :

(وأَسَلْنا له عَيْنَ القِطْرِ أى (النحاس) ومن الجنِّ من يعملُ بين يديْه بإذن ربِّه ومن يَزِغْ منهم عن أمْرِنا نُذِقْه من عذابِ السعير . يعملون له ما يشاءُ من محاريب وتماثيل وجفانٍ كالجَواب وقدورٍ راسياتٍ ، اعملوا آل داود شكرًا وقليلٌ من عبادى الشَّكور) .

وهنا امتنان بالعمل المادى وأصل صريح فى أن العمل المادى من الشكر لله .

وعيسى المسيح كان من شرف العمل أن أجرى الله على يديه ألواناً من طب الأجسام وعلاج أمراضها وإحياء مواتها معجزة وكرامة له .

ومحمد خاتم الأنبياء والرسل ، شرف الله بشبابه العمل فى الرعى والتجارة فى فى أموال الناس وشئون الدفاع عن الحرمات ، كما شرف العمل المادى بدعوته التى جعلت العمل قرين الإيمان ولا يصح أحدهما بدون الآخر على نحو ما بينا سابقاً وهكذا نرى أن خلاصة دعوة الإسلام هى هدى العقول والقلوب إلى طريق الله الخالق ، وهدى الأيدى والجوارح إلى جميع أنواع العمل النافع الذى تنمو به الحياة المادية وتزكو به الحياة الروحية وتلقى به النفوس جزاءها وثوابها فى الحياة الثانية بدار البقاء والخلود .

العمل أساس الجزاء

العمل أساس بناء الكون كله ، بناه الله الخالق ويقيمه ويجدده فى عمل مستمر من يده القادرة القاهرة .

أما الكلام والبيان فهو خاصة الإنسان يفلسف ويجادل ويثرثر ، وقد ينحرف بالكلام عن سير الطبيعة كأن الكلام مطلوب لذاته ، مع أنه ليس إلا وسيلة لتسجيل الأعمال وللدفع إليها والتمهيد لها والشكر لله عليها . وصدق القرآن :

« وكان الإنسان أكثر شىء جَدَلًا » .

وما دامت الطبيعة كما نشاهدها ، صمتًا مطبقًا وعملا مستمرًّا ، فينبغى أن نتخلق بأخلاق الله خالقها ونسير وراء ما يوحيه إلينا فيها من كثرة العمل ؛ فتكون حياتنا أعمالا منتجة صالحة معمرة دائبة . وتكون قرانا ومدننا كخلايا النحل كل ما فيها عمل وإنتاج وتنظيم وتوزيع .

وفى العمل المنظم لذة ورياضة نفسية . وغالبًا ما يكون جزاؤه فيه ، لِمَا ينشأ عنه من الطمأنينة وارتياح البال والضمير بعد أدائه كاملا .

وحقًّا إن من أسعد لحظات العمر لحظةَ انتهاء العمل الكبير وجنى ثماره و « عند الصباح يحمد القوم السرى » كما يقول المثل العربى .

والعمل رأس مال الفرد والأمة ، وقد صار فى العصر الحديث هو الأساس الأول للاقتصاد والكسب والاعتبار الاجتماعى . وروح العصر تمجد العمل والعامل فى جميع المهن والحرف ، بعد أن كان الناس سابقًا لا يعرفون له حقه كما يعرفونه لأرباب الثقافات النظرية .

والعمل الضرورى للمجتمع شرف مهما كان مجاله ، وقد قيل : « اليد العاملة طاهرة ولو كانت تعمل فى الطين وروث الدواب ، واليد العاطلة نجسة ولو كانت ملفوفة بالحرير والديباج » ، وفى الحديث المحمدى : « لأَنْ يحملَ الرجل حبلا فيحتطب به ثم يجىء فيضعه فى السوق فيبيعه ثم يستغنى به فينفقه على نفسه ، خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » وفى حديث محمدى آخر : « إن الله يحب العبد يتخذ المهنة ليستغنى بها عن الناس » ويقول أبو سليمان الدارانى أحد كبار العابدين :

« ليست العبادة أن تَصُفَّ قدميك (يعنى الصلاة) وغيرك يَقُوتُ لك ، ولكن ابدأ برغيفَيْك فأحْرِزْهما ثم تعبد) .

والعمل مطلوب للدنيا وللآخرة ، ولا جزاء فيهما للفرد إلا ابناء على عمله ، يقول القرآن :

وأن ليس للإنسان إلا ما سَعَى . وأن سَعْيه سوف يُرَى . ثم يُجْزاهُ الجزاء الأَوفى »

وما أعظم وأجل ذلك الدستور الذى يبنيه هذا القول العظيم والأثر الجليل : « اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا » ، فهو من أعظم الأقوال الموجهة المضيئة التى تدفع الإنسان للعمل المستمر للحياة الدنيا ولما بعدها .

أما العمل للحياة الدنيا فهو كل جهد يؤدى إلى جلب نفع خاص أو عام ، أو منع أذى خاص أو عام ، أو ازدهار صناعة مفيدة أو زيادة طيبات الحياة أو انتشار عمران .

وأما العمل للآخرة فهو أداء المفروضات الدينية فى التعبد والتفكير والتعلم وكبح نوزاغ الشر والشهوة والجريمة فى النفس ، كما أنه فى الوقت نفسه كل عمل دنيوى نافع قدمت أمامه نية طيبة خالصة لله .

ومن قوانين علم النفس أن « نفسك إذا لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل » ، فينبغى للمرء أن يفر من الفراغ القاتل لقوى عمله المبدد لطاقاته وإمكانياته ، لأن ذلك الفراغ من العمل هو سبب البوار والضياع .

وقد ذم القرآن الفارغين المترفين المكذبين ونعتهم بالبوار فى قوله تعالى : (وكانوا قوماً بُوراً) .

وحقاً إن ذوى الترف والفراغ والاعتماد على المال الموروث بدون عمل ، يشاهد فيهم البوار والفساد تماماً كما يشاهد فى الأرض البائرة التى لم تزرع ولم تنبت إلا الشوك والحسك .

والشعوب الأكثر عملا هى الشعوب التى تتمتع بوفرة الإنتاج الزراعى والصناعى وما يتبعهما من الرخاء وازدهار العمران وتغلب الجد على طباعهم وتقدير قيمة الوقت وإدراك « أن الواجبات أكثر من الأوقات » فأفرادها غالباً يحترفون حرفة . حتى نساؤهم وأطفالهم فى شغل دائم بأعمال وصناعات منزلية خفيفة كالنسيج والحياكة

وتربية الحيوان المنتج وعمل اللمسات الخفيفة فى كثير من المصنوعات التى تعرض فى الأسواق .

والأمر فى دَوْر التأسيس والنهضة تحتاج إلى روح العمل الجاد ومضاعفة الجهد واحتقار ما يسميه الفارغون البائرون (قتل الوقت) ؛ كأن الوقت عدو يجب التخلص منه ! مع أنه هو الحياة ذاتها . وقد قيل « الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعاك » وليس « الوقت من ذهب » فقط كما يقال ، بل هو معدن أثمن من الذهب والماس ... هو من أنفاس الروح ونبض القلب ونور العين وفيض الفكر !

والتجربة تدل على أن الدأب على العمل يحسِّنه ويرتفع بمستوى كفاية العامل ويكسبه مِرانةً وثقافة مهنية خاصة وسرعة فيه . وقد صار الآن التبرع بزيادة العمل ساعة أو الإضراب عن العمل ساعة يؤثر تأثيراً إيجابيًا أو سلبيًا فى إنتاج الدولة وكيانها ، مما يدل على أن العمل سلاح خطير فى معارك الهجوم والدفاع والمقاومة وأنه نوع ذو أهمية كبرى من الجندية الدائمة لصيانة شرف الوطن وحفظ كيانه ، فليس الجندى المعلوم أو المجهول هو وحده من يحمل السلاح ويجاهد فى الميدان ويوصف بالبطولة ويتلقى شرف الشهادة إذا ما سقط صريعًا هناك ، ولكن الجندى هو هذا وهو كل من يقف وراءه ويحضر له عُدته وذخيرته وطعامه ، ويكفيه رعاية أولاده وأسرته ويشترك فى معركة بناء الوطن فى الجبهة الداخلية بالتعليم والصناعة والتجارة والعمارة والزراعة وغيرها من الحرف التى تشد ظهر الجندى المحارب وتواليه بالمدد وبالطمأنينة على وطنه الذى تركه وراءه لمواجهة المغيرين عليه بالفداء والتضحية . وصدق الحديث المحمدى : « من جَهَّز غازياً فقد غزا » .

وقد تكفل الله بالجزاء الأوفى على كل عمل صالح للدنيا أو للآخرة فقال :

« فاستجاب لهم ربُّهم أنى لا أُضِيعُ عملَ عاملٍ منكم من ذكَرٍ أو أنثى »

كما طمأن كل عامل على تقدير عمله والتنويه به وتسجيله له وتوجيه النظر إليه فقال

« وقل اعملوا فَسَيَرَى اللهُ عمَلَكم ورسولهُ والمؤمنون ، وسَتُرَدُّون إلى عالم الغيب والشهادة فيُنَبِّئُكُم بما كنتم تعملون » .

الترف والتعطل بالوراثة

إن الترف مرض خبيث من أمراض الغنى ويُسْرِ العيش وفراغ الحياة من الأعمال والواجبات ، والإسراف فى المتاع ، وبه تتحول الرجولة والأنوثة الصحيحتان إلى رخاوة وميوعة وأذواق مريضة وطباع منحرفة ، فتتعطل قواها وتصير كالأرض البور التى لا نفع فيها ، بل تكون من أسباب الضرر المحقق .

والاستمتاع بطيبات الحياة وزينتها التى أخرج الله لعباده أمر طبيعى مباح أو مطلوب ما دام من غير إسراف ولا خيلاء ولا انحدار مع طاعة الشهوات والأهواء ؛ فإذا أُسْرِف فى المتاع وركنت إليه النفس دائمًا وآثرته على حياة الخشونة وأداء الواجبات والأعمال النافعة ، فقد استحال إلى ترف ومرض وضعف وبوار . . .

وإلى ذلك يشير قول القرآن :

« ولكن مَتَّعْتَهم وآباءَهم حتى نَسُوا الذِّكْر وكانوا قوماً بورًا » .

فالمتاع الذى ينسى الواجبات نحو الله والوطن يسلم النفوس إلى البوار والضياع ، فهو سوس الحضارات ومدمر قوى الأمم وجالب خرابها وتَبَابِها . وقد ذكر القرآن أن المترفين هم من أدوات انتقام الله من الأمم الظالمة التى بطرت معيشتها وخالفت عن أمر ربها ، فقال :

« وإذا أردنا أن نُهْلِك قريةً أَمَرْنا مُترَفِيها ففسقوا فيها فحَقَّ عليها القولُ فدمرناها تدميرًا » .

وطبيعة الترف تحمل على الضيق بحياة العمل والكدْح ، حتى تَضْمُر قوى الإنتاج والكفاح والمقاومة وحب المغامرات ، وتتحول النفوس إلى أدوات مستهلكة غير منتجة . ومتبطلة غير عاملة . وقد فطن المربون قديمًا وحديثًا فى الأمم السابقة فى الحضارة ، إلى ضرورة مقاومة أمراض الترف لدى أبناء الأغنياء ومعادلة أسبابه لديهم بالرياضات العنيفة والرحلات الشاقة فى مجاهل الأرض وأخطار البحر والصيد والقنْص والكشف والارتياد وحياة الجندية .

والترف يدعو إلى الانحلال وانهيار الأخلاق بسلطان الشهوات ، ومقاومة رسالات

الخير والقوة ، ولذلك كان أكثر المقاومين لدعوات الرسل هم من أولى النعمة ، وقد لاقى منهم مولانا محمد والنبيون من قبله العنت الشديد والصراع المر الذى أشار القرآن إلى صور منه كما فى قوله : (ذرنى والمكذِّبين أُولِى النَّعمة ومَهِّلْهُم قليلا) ، (وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفُوها إنَّا بما أُرسِلتُم به كافرون) ، (واتَّبع الذين ظلموا ما أُتْرِفُوا فيه وكانوا مجرمين) ، (ذرْنى ومَنْ خلقتُ وحيدًا وجعلتُ له مالا ممدودًا وبنين شهودا) ، (وقال الملأُ الذين كفروا وكَذَّبوا بلقَاءِ الآخرة وأَتْرفْنَاهم فى الحياة الدنيا : ما هذا إلا بشرٌ مثلكم) إلى آخر الآيات فى هذا الشأن .

ونحن نشاهد فى المترفين القلق والجوع الدائم إلى المتاع ، يطلبون الجديد منه دائمًا ، ثم سرعان ما يسأمون ويملّون باحثين عن غيره ، وهكذا :

وصدق قول عمر ابن الخطاب « اقْدَعُوا نُفُوسكم عن شهواتها فإنها مَلِقَة ، وإنكم إلاّ تقدعوها تَنْزِعْ بكم إلى شر غاية ، ورُبَّ شهوةِ ساعةٍ أورثت حزنًا طويلا » .

وفى عصرنا هذا تضخمت أسباب المتاع وتنوعت ، وصارت فى متناول الجميع بعد أن كانت سابقًا غير ميسورة إلا لأرباب الغنى ، فقد كثرت أدواتها من (سينما) وملاه وحانات ومراقص ومشاهد طغت على نفوس الجماهير طغيانًا حبب إليهم النزوع إلى حياة الراحة والمتاع المترف والسعى إليه بكل وسيلة ، مما أشاع بعض أعراض الانحلال والتفكك . ولولا المقاومة من حياة خشونة العمل والجندية والرياضة لأصاب الناس من ذلك شر وَبيل .

ومن ظواهر الحياة فى هذا العصر كثرة صناعات الترف وافتنان أربابها فى إرهاف ميول الجماهير إليها وإغرائهم بها بالخداع والتمويه والدعاية ، مما حمل الأغنياء على مضاعفة الإسراف وتبذير الأموال فى اللذات والمفاخر الكاذبة بالأثاث والرياش وأدوات الزينة ، وحمل الفقراء فى الوقت ذاته على التطلع إليهم والشعور فى أنفسهم بالحسد ودبيب نزاع الطبقات .

ومن السخرية بعقول أهل هذا العصر تسلط موجهى « المودة » عليهم رجالا

ونساء ، وحملهم على الإسراف فى اقتناء الملابس والحُلِىّ وأدوات الترف التى تستهلك الأموال الطائلة وتبتلعها فى بالوعات كثيرة بدون حساب ، وتعطل توجيهها إلى الوجهات المنتجة كالتصنيع والتجارة وتأسيس الشركات ومؤسسات البر والخدمة العامة ؛ وإنهم بذلك يتحدون الروح الحقيقى لهذا العصر وهو روح الكدح والعمل ومحاربة الترف والبؤس لإقرار الاشتراكية الإسلامية المعتدلة الموجهة إلى خير المجموع والقاضية على حرب الطبقات بتضييق الفروق بين أنواع حياتها .

وقد فطن الإسلام من قديم إلى ما فى حياة الترف من بوار وفساد فحمل عليها حملات ثبتت أصول تربية الخشونة والعمل والإنتاج والقوة والرجولة والأنوثة الصحيحة ناصحاً بالقول المأثور عن عمر بن الخطاب : « اخشوشنوا فإن النعمة لا تدوم » كما حمل فى الوقت نفسه على حياة البؤس والحرمان ودعا إلى رفع مستوى المعذبين فى الأرض بالفقر والكدح . فبينما طارد الترف فى أعلى المجتمع طارد البؤس فى أسفله ليخرج المجتمع المتقارب المتناسق الذى يوجه الأموال والجهود إلى الإنتاج الأكثر فائدة للجميع ، لا إلى الإسراف والمتاع الشخصى المترف الذى يرضى الأنانيات الضيقة المستهلكة التى يمحق الله الحياة بسوء تصرفها .

وقد سلك الإسلام إلى ذلك كله طريق تحريم اكتناز الأموال واحتكار التجارات والكسب غير المشروع والربا ، لأن ذلك يفضى إلى حياة الترف ، ويخل بميزان التعامل الطبيعى بالبيوع والصناعة ويعطل القوة الحركية الطبيعية للأموال .

وقد دعا الإسلام إلى التقارب بين أفراد الشعب فى المأكل والملبس مهما اختلفت مكانتهم الاجتماعية ، فحرم أن يترف الفرد فى طعامه وشرابه وكسائه بينما جاره أو خادمه أو مواطنه محروم من الضروريات .

قال المعرور بن سويد : « رأيت أبا ذرّ عليه حُلّة وعلى غلامه — أى خادمه — مثلُها ، فسألته عن ذلك فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (هم إخوانكم وخولكم . جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم فإن كلفتموهم فأعينوهم) .

وفى هذا السلوك العظيم قدوة عظيمة فى إذابة الفوارق بين الطبقات ، وفى إنصاف القوة العاملة خاصة ، واحترامها وعدم إرهاقها بما يشق عليها .

الفهرس

الموضوع — الصفحة

مقدمات

البعد الأول

بين الكون والخالق

رقم الإيداع	١٩٨٣/٣٠٢٣
الترقيم الدولى ٩-٤٧٤-٠٢-٩٧٧	ISBN

١/٨٣/٤

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

هذا الكتاب

فى هذا الكتاب حديث جديد عن :

(١) دعوة القرآن إلى حل مشكلات «الفكر والاعتقاد» ببناء التفكير الدينى على أسس علمية ، لمواجهة «المادية الإلحادية» وإثبات عجزها وقصورها عن رؤية الدلالات الحتمية فى الكون المادى على الخالق وصفاته .

(٢) اللقاء الطبيعى بين العلم والدين فى القرآن .

(٣) عظمة البناء المادى للكون واحتفال الخالق بصنعته فيه .

(٤) قيادة القرآن للعقل البشرى إلى رؤية أعماق الكون والنفس رؤية واضحة بدون تهويم وشطح وأوهام وخرافات ؟

(٥) سقوط تأليه الطبيعة المادية نهائيًّا بانقيادها للعلم الإنسانى .

(٦) دعوة إلى حل مشكلة «العيش» بإعلان دعوة باسم القرآن لتصحيح مفاهيم الناس فى أسباب الغنى والفقر ، ولإزالة أثر الطغيان والجشع فى الوضع الطبيعى الإلهى فى التوزيع العادل للأموال .

(٧) اشتراكية الإسلام ولقاء التعارف والإنصاف والحوار المفتوح بينها وبين الاشتراكيات الأخرى .